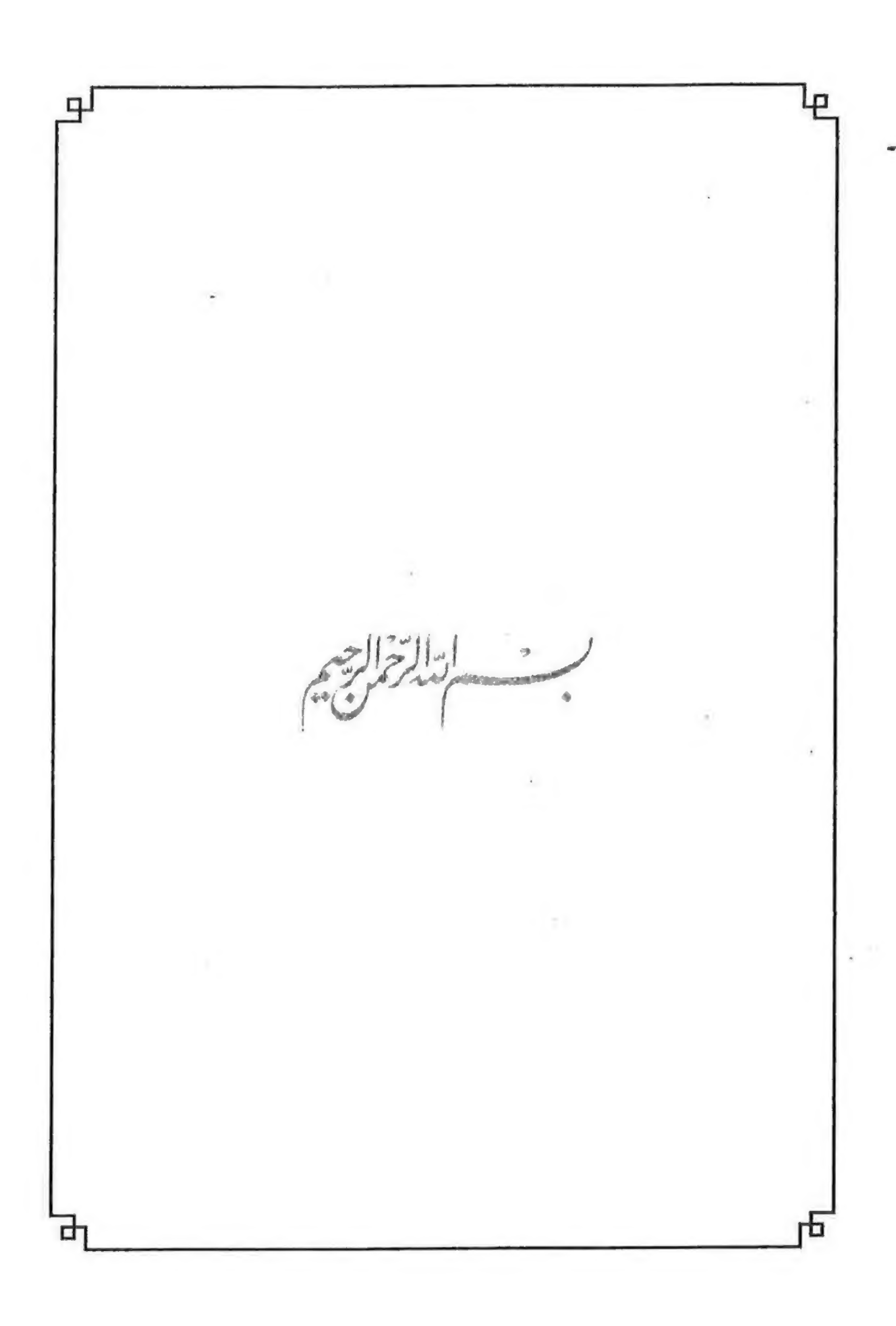


ابـن تيميـة الصوفـي

أحمد محمد بلقيس


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضوع	الصفحة

إهـــداء

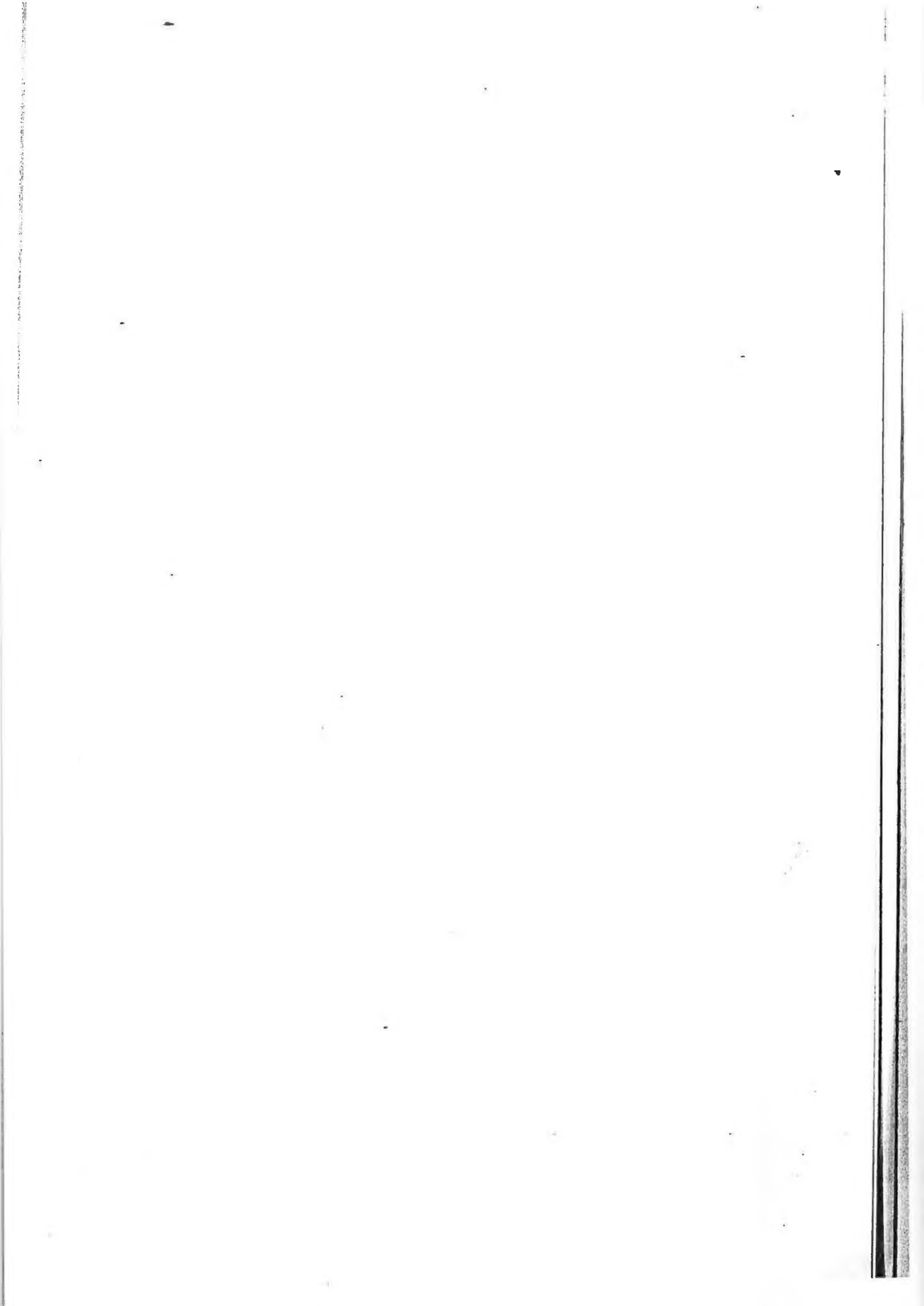
إلىٰ أبي وأمي أصل فكري ووجدي، جمعني الله بهما علىٰ خير ولا فرق بيننا ..

إلىٰ شيخ الإسلام قدس الله روحه ..

إلىٰ مشايخي رفع الله درجاتهم في عليين ..

وإلىٰ كل محب للشيخ تقي الدين ..

أهدي هذا العمل.



تـوطـئـة

ابن تيمية هو تلك الشخصية التي أثارت جدلًا واسعًا علىٰ الساحة الإسلامية، وانقسم الناس حوله فتجاذبوه كلٌّ يريده إلىٰ جانبه، إلىٰ جانبه سلبًا أو إيجابًا، نجد كثيرًا من المعاصرين الصوفية والأشاعرة لما أرادوا الطعن في السلفية بحثوا عن الشخصية المركزية التي تتبناها السلفية المعاصرة بعجرها وبجرها، فما وجدوا شخصية أكثر تمركزًا من ابن تيمية، فانهالوا علىٰ تراثه بالعبث وبحثوا عن كل ما وقعت عليه أيديهم من عبارات توهم ما أرادوه من طعن في السلفية، فأخرجوا لنا ابن تيمية المجسم، وجاء العلمانيون فأرادوا أن يتمسكوا بقشة ليصنعوا منها فزاعة يهددون بها الوسط الملتزم من أن ينقلب إلىٰ التكفير والتفجير، فدرسوا كتب ابن تيمية كالدارس لتلك المجلات المصفوفة علىٰ مناضد الحلاقين، فأخرجوا لنا ابن تيمية التكفيري، وجاء أصحاب الشيخ ومحبوه فما وجدوا أرصن وأقوىٰ من ردوده علىٰ المبتدعة فأخرجوه لنا بصورة ابن تيمية الجامد، وغاب ابن تيمية الذي هو هو بين هذه الفئاتّ التي تقتل الإنصاف والحياة، وتحرف الشخصيات عن مواضعها التي أرادها لها أصحابها أن تكون،

وغابت كثير من جوانب شخصية الشيخ بين المناوئين والمحبين، كل يجذب إليه طرفه الذي يريده، وشخصية الشيخ تتأوه من هذا العبث، فانقدح في ذهني أن أطالع جانبًا غاب عن كثير ممن درسوا ابن تيمية علمًا وفقهًا وشخصية، وهي شخصيته في ثوبها الصوفي، ولا أعني هنا صوفية الدراويش والرقص والعزف والغناء، وإنما صوفية السلوك والأخلاق والصفاء.

ولانشغال التيار السلفي بالأمور العقدية والعلمية التي تعد من أبواب العلم الصلب، واتكاء السلفية علىٰ الموروث العلمي للشيخ تقي الدين ابن تيمية، تكونت صورة نمطية حول ابن تيمية أنه ذاك الشيخ الجامد المتنطع، فكل حديثه يدور حول الشرك والتوحيد، والكفر والإيمان، والبدعة والفسق، وهكذا من الأمور التي في كثرة الحديث عنها دون التفات إلىٰ روحها أو اهتمام بالرقائق يقسو القلب[1] ويشعر بالظلمة ويضيق الصدر بذكرها.

ولكن المنشغل بالتراث التيمي يرىٰ أمرًا مغايرًا، فابن تيمية رحمه الله من خلال تتبع كتاباته يمكننا القول وبكل ثقة إنه شكل حركة تصحيحية للمفاهيم الصوفية، وصفاها ونقاها من كل كدر وشائبة مرت بها هذه المفاهيم الصوفية كدخول المفاهيم الفارسية وطروئها

---

(١) لا يتوهم المتوهم أننا نزعم أن الكلام في التوحيد يورث القسوة، ولكن العلم -لمن عرفه- يعلم المنشغل به أنه يجب أن يكون دائم الاتصال بالقرآن فهمًا وتدبرًا، وبالآثار النبوية وبالرقائق اتصالًا قلبيًا حقيقيًا، فللبدعة والشرك ظلمة تصيب المنشغل بالرد عليهما كما يصيب الدخان المنشغل بالتنور.

علىٰ التصوف ومعانيه، لتتحول الصوفية إلىٰ معان فاسدة من حلول واتحاد.

هذه الحركة التصحيحة التيمية -إن صح التعبير- لم تلق رواجًا ولا اهتمامًا ولا إظهارًا بارزًا من جهة التيار السلفي أو غيره، فتارة لانشغال التيار السلفي المنصب والمتركز علىٰ شخصية ابن تيمية العقدية وهو ما شكل فجوة بين السلفية والتزكية، مع أن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ نبه إيماء إلىٰ أن السلوك والأخلاق هي من صميم العقيدة حين صنف العقيدة الواسطية وعقد في نهايتها بابًا في اعتقاد أهل السنة والجماعة في أمور السلوك والأخلاق والتزكية وذكر جملة من هذه الأحكام، كأنه يقول: إن لم تثمر العقيدة سلوكًا وأخلاقًا وتهذيبًا للنفس، فليراجع المعتقد اعتقاده!

وتارة أخرىٰ لظن التيار الصوفي بأن ابن تيمية جاء معاديًا للتصوف والتزكية، فانهالوا عليه بكل ما آتاهم الله من جهل، فشوهوا صورته وطمس علىٰ قلوب بعضهم فهم لا يفقهون أن الشيخ ما أراد إلا أن يخرجهم من دنس الرسم إلىٰ جوهر الحقيقة، ومن خدمة أجسامهم ومظاهرهم إلىٰ خدمة أرواحهم وبواطنهم كأن حاله يخاطبهم:

يا خادم الجسم كم تشقىٰ لخدمته
أتطلب الربح مما فيه خسران؟
أقبل علىٰ الروح واستكمل فضائلها
فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

إذن، فلئن كانت المسائل التي يدور حولها التصوف ليست منفصلة عن الدين في شيء، بل يجب أن تكون من المسائل المركزية للبرنامج الإصلاحي للنفس البشرية التي جاء بها الإسلام وجعلها من أصول دعوته إلىٰ الله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، فهي دعوة كل الأنبياء، وجب أن يظهر هذا الإصلاح علىٰ جنبات من اهتم بمنهج السلف الصالح ويكون حريًا به أن يظهر عليه هذا السمت في رقي النفس ورفعة مكانتها ومنزلتها.

وهذه المجموعة من المفاهيم الشرعية التي تحوي معاني السلوك والأخلاق والمحبة والجمال والزهد والتعلق بالدار الآخر ستجعلنا لا نؤرخ للتصوف تأريخًا مستقلًا عن التأريخ للشريعة الإسلامية، فالمقصد الأسمىٰ من الإسلام -كما ذكرنا- هو تزكية النفس والرقي بها إلىٰ مقامات الزهد والتواضع والانكسار والعبادة لله جل وعلا، وهذه المعاني ليست أبدًا محل نزاع بين التيارات الإسلامية ولكنها محل تفاوت عند التطبيق بلا شك، فالتيارات الإسلامية جمعاء تحمل هذا العنوان العريض من وجوب تزكية النفس وتخليتها والارتفاع بها من المقامات الدنية إلىٰ المقامات العلية، ولكننا نجد تفاوتًا في أولويات هذه العناوين عند التطبيق الحركي لهذه التيارات، فبعضها يصب تركيزه علىٰ العمل السياسي، ومنهم من يرىٰ الاهتمام بالجوانب العلمية العقدية، وبقيت الصوفية

هي التيار الذي ينسب إليه الانشغال بالعمل السلوكي والأخلاقي والتفرد به والتميز به، بل الوصول به إلىٰ مراتب قد تصنف علىٰ أنها نوع غلو حتىٰ خرجت بعض المعاني التي تصادمت مع العقيدة تصادمًا بينًا كعقائد الحلول والاتحاد، ولا بد أن نشير إلىٰ أنه كما أن تلك الحركات الإسلامية التي انتهجت في أدبياتها بعض المحاور كالسياسة والعلم، فشلت في بعض الجوانب، فإن هذا الفشل كان طارئًا كذلك علىٰ تطبيقات الحركة الصوفية في محورها الأساسي: وهو محور النفس وسلوكها.

هذا التفرد -الظاهر- للصوفية باحتواء هذه المعاني جعل الاعتقاد السائد بين الجميع بأن التيارات الأخرىٰ لا تهتم بإعمال الجانب السلوكي والروحي للنفس المسلمة، وهذا انعكس أيضًا علىٰ الرموز المركزية لهذه التيارات، وهذا الذي يعرف بالنمطية، وهذه النمطية قد مورست مع كثير من الشخصيات الإسلامية أو المنتسبة إلىٰ الإسلام فكثير من المنشغلين بالعلوم الشرعية عندما يذكر عندهم ابن رشد لا يتبادر إلىٰ ذهنهم إلا ابن رشد الفيلسوف، وإذا ذكر ابن سينا لم يعرف إلا الزنديق، وغير معروف عندهم ابن سينا الطبيب، وهكذا الأمر عند كثير من الرموز الإسلامية أو المنتسبة إلىٰ الإسلام.

لا شك أن كثيرًا من الدراسات قد تناولت موقف الشيخ من الصوفية، ولكنها كانت حبيسة لمنهج المصنف فيظهر موقف

ابن تيمية من الصوفية كما يراه هو وليس كما أراد ابن تيمية في كتاباته، فغابت شخصيته التصحيحية للمفاهيم الصوفية إلا في بعض الدراسات هنا وهناك دون أن تلقي الضوء على سيرته التي أظهرت لنا ممارسته المفاهيم الصوفية ممارسة عملية حقيقية.

في هذا الفصل سنحاول أن نرسم الخطوط-العراض لشخصية ابن تيمية في شقها الصوفي، ونبين منهج ابن تيمية في التعامل مع الصوفية، وسنحاول التركيز على صورة ابن تيمية الصوفية من خلال شذرات من سيرته، والله الموفق.

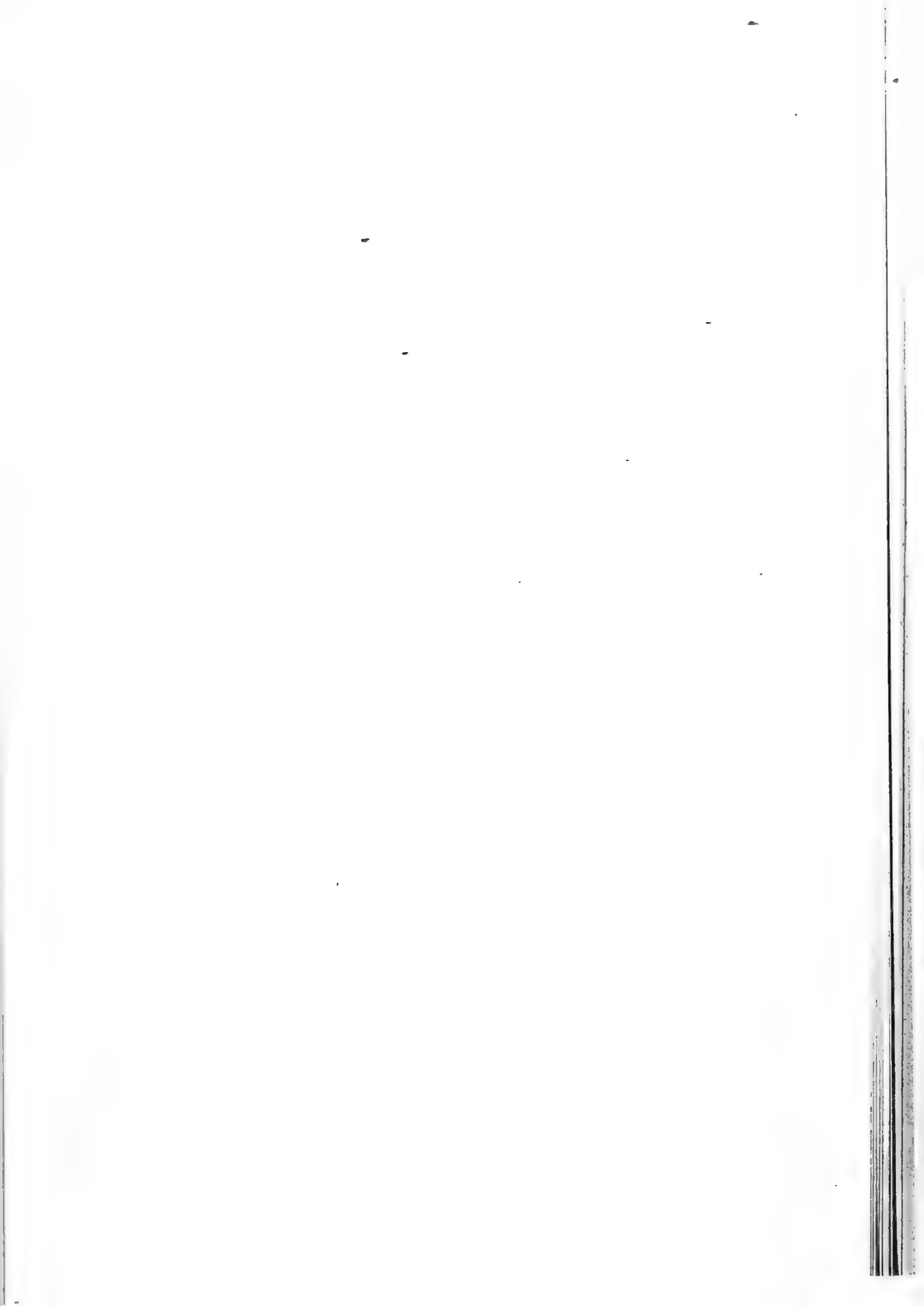
كتبه

أحمد محمد بلقيس

١٢/٢/٢٠١٦

«والمشايخ المستقيمون كالفُضيل بن عِياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكَرخي وأمثالهم هم المتبعون للكتاب والسنة والصوفية المتبعون لهم هم صوفية أهل السنة والحديث في اعتقادهم وفي عملهم فهم [يؤمنون] بما أخبر به الرسول ويَمتَثلون ما أمر به يصدقونه في خبره ويطيعونه في أمره ومن كان كذلك فهو من أولياء الله المتقين الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.»

ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ



الصوفية عند ابن تيمية

إن مفاهيم الصوفية والتصوف هي تلك المفاهيم التي وقع النزاع في حدها، بل إن التيار الصوفي تنازع في حد تعريف التصوف ابتداء من اشتقاقه كما قال أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفيِّ واختلفوا
وظنه البعضُ مشتقًا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير
فتىً صفا فصوفي حتىٰ سمي الصوفي

وانتهاء بحده كتعريف اصطلاحي، فقال ابن زروق في قواعده عن التصوف:

(وقد حد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجع كلها لصدق التوجه إلىٰ الله تعالىٰ، وإنما هي وجوه فيه)[1].

ومن جملة من وصف الصوفية هو الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالىٰ، فيرىٰ أن الصوفية تعد من الحركات التنسكية، أي المهتمة

---

(١) قواعد التصوف ص٢، نقلا عن كتاب: حقائق عن التصوف لعبد القادر عيسىٰ ص١٩.

بالعبادة والزهد والتقشف، يقول بعد أن استعرض الأقوال في أصل كلمة الصوفي:

(قِيلَ: -وَهُوَ الْمَعْرُوفُ- إِنَّهُ نِسْبَةٌ إِلَىٰ لُبْسِ الصُّوفِ؛ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا ظَهَرَتْ الصُّوفِيَّةُ مِنْ الْبَصْرَةِ وَأَوَّلُ مَنْ بَنَىٰ دويرة الصُّوفِيَّةِ بَعْضُ أَصْحَابِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ وَعَبْدُ الْوَاحِدِ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ وَكَانَ فِي الْبَصْرَةِ مِنْ الْمُبَالَغَةِ فِي الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخَوْفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي سَائِرِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَلِهَذَا كَانَ يُقَالُ: فِقْهٌ كُوفِيٌّ وَعِبَادَةٌ بَصْرِيَّةٌ)[1].

ويعرف لنا الصوفي فيقول: (هو -أي الصوفي- في الحقيقة نوع من الصديقين فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة علىٰ الوجه الذي اجتهدوا فيه فكان الصديق من أهل هذه الطريق كما يقال: صديقو العلماء وصديقو الأمراء فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين إنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صديقون أيضًا كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم فهم من أكمل صديقي زمانهم والصديق من العصر الأول أكمل منه والصديقون درجات وأنواع ولهذا يوجد لكل منهم صنف من

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/٨).

الأحوال والعبادات حققه وأحكمه وغلب عليه وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه)[1].

ويقول: (وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ مَنْشَأَ «التَّصَوُّفِ» كَانَ مِنَ الْبَصْرَةِ وَأَنَّهُ كَانَ فِيهَا مَنْ يَسْلُكُ طَرِيقَ الْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ مِمَّا لَهُ فِيهِ اجْتِهَادٌ كَمَا كَانَ فِي الْكُوفَةِ مَنْ يَسْلُكُ مِنْ طَرِيقِ الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ مَا لَهُ فِيهِ اجْتِهَادٌ وَهَؤُلَاءِ نُسِبُوا إِلَىٰ اللُّبْسَةِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ لِبَاسُ الصُّوفِ. فَقِيلَ فِي أَحَدِهِمْ: «صُوفِيٌّ» وَلَيْسَ طَرِيقُهُمْ مُقَيَّدًا بِلِبَاسِ الصُّوفِ وَلَا هُمْ أَوْجَبُوا ذَلِكَ وَلَا عَلَّقُوا الْأَمْرَ بِهِ لَكِنْ أُضِيفُوا إِلَيْهِ لِكَوْنِهِ ظَاهِرَ الْحَالِ. ثُمَّ «التَّصَوُّفُ» عِنْدَهُمْ لَهُ حَقَائِقُ وَأَحْوَالٌ مَعْرُوفَةٌ قَدْ تَكَلَّمُوا فِي حُدُودِهِ وَسِيرَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: «الصُّوفِيُّ» مَنْ صَفَا مِنَ الْكَدَرِ وَامْتَلَأَ مِنَ الْفِكَرِ وَاسْتَوَىٰ عِنْدَهُ الذَّهَبُ وَالْحَجَرُ. التَّصَوُّفُ كِتْمَانُ الْمَعَانِي وَتَرْكُ الدَّعَاوَىٰ)[2].

فهذا التعريف الذي يقدمه ابن تيمية يظهر منه أنه يرىٰ في الصوفية الأولىٰ الاجتهاد في العبادة والتنسك والزهد عن الدنيا وما فيها، وهذه المعاني هي معان أصيلة في الشريعة الإسلامية بلا شك.

ثم ينقل ابن تيمية رحمه الله نظرته عن الصوفية بإنصاف متجرد

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٢/٣٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١١/١٩).

منقطع النظير، فيذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الناس تنازعوا في الحكم على الصوفية فأصبحوا طرفي نقيض، ويقر أن التوسط في الحكم عليهم هو الصواب، فيقول: (وَلِأَجْلِ مَا وَقَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ مِنَ الِاجْتِهَادِ وَالتَّنَازُعِ فِيهِ تَنَازَعَ النَّاسُ فِي طَرِيقِهِمْ؛ فَطَائِفَةٌ ذَمَّتْ «الصُّوفِيَّةَ وَالتَّصَوُّفَ». وَقَالُوا: إنَّهُمْ مُبْتَدِعُونَ خَارِجُونَ عَنْ السُّنَّةِ وَنُقِلَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ مِنْ الْكَلَامِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَتَبِعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ. وَطَائِفَةٌ غَلَتْ فِيهِمْ وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَكْمَلُهُمْ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَكِلَا طَرَفَيْ هَذِهِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ.

وَالصَّوَابُ: أَنَّهُمْ مُجْتَهِدُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ كَمَا اجْتَهَدَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ فَفِيهِمْ السَّابِقُ الْمُقَرَّبُ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِ وَفِيهِمْ الْمُقْتَصِدُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهْلِ الْيَمِينِ وَفِي كُلٍّ مِنْ الصِّنْفَيْنِ مَنْ قَدْ يَجْتَهِدُ فَيُخْطِئُ وَفِيهِمْ مَنْ يُذْنِبُ فَيَتُوبُ أَوْ لَا يَتُوبُ. وَمِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَيْهِمْ مَنْ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ عَاصٍ لِرَبِّهِ. وَقَدْ انْتَسَبَ إلَيْهِمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالزَّنْدَقَةِ؛ وَلَكِنْ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ لَيْسُوا مِنْهُمْ: كَالْحَلَّاجِ مَثَلًا؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ مَشَايِخِ الطَّرِيقِ أَنْكَرُوهُ وَأَخْرَجُوهُ عَنْ الطَّرِيقِ. مِثْلُ: الْجُنَيْد بْنِ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الطَّائِفَةِ وَغَيْرِهِ. كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي؛ فِي «طَبَقَاتِ الصُّوفِيَّةِ» وَذَكَرَهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِ بَغْدَادَ. **فَهَذَا أَصْلُ التَّصَوُّفِ**)[1].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/١٩).

إذن فالذي يراه الشيخ رحمه الله تعالىٰ، أن الصوفية لا تعدو أن تكون حركة تنسكية عنيت بالاجتهاد في العبادة والطاعة، والمنتسبون لها علىٰ درجات، وهذه النظرة المتجردة في الحكم علىٰ الصوفية، تبين لنا أمرًا مهمًا، وهو أن ما نسب إلىٰ الشيخ من أنه يرىٰ أن الصوفية فرقة من فرق أهل البدع والضلال، وأنها نشأت دخيلة علىٰ الإسلام، هي غلط علىٰ الشيخ، وكلامه ينبئ عن مراده كما بينا. هذه النظرة المتجردة في الحكم علىٰ الصوفية، تبين لنا أمرًا:

وانظر يا رعاك الله في هذه الكلمات التي مُلئت علمًا ونورًا وإنصافًا غاب عن كثير من المعاصرين اليوم، يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: («وأنت تجد كثيرًا من المتفقهة، إذا رأىٰ المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئًا ولا يعدهم إلا جهالًا ضلالًا، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدىٰ شيئًا، وترىٰ كثيرًا من المتصوفة، والمتفقرة لا يرىٰ الشريعة ولا العلم شيئًا، بل يرىٰ المتمسك بها منقطعًا عن الله وأنه ليس عند أهلها مما ينفع عند الله شيئًا. وإنما الصواب: أن ما جاء به الكتاب والسنة، من هذا وهذا: حق، وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا: باطل»)[1].

ويكأنه يصف حال متفقهة ومتصوفة هذا الزمان!

ومن تتبع كلام الشيخ عن التصوف والصوفية وجده دائم

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٩٢).

المقارنة بين طريق المتصوفة والفقهاء من وجه الوقوع في البدع والضلالات، يقول الشيخ مبينًا هذا: (وَكَانُوا يَقُولُونَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ الْعُلَمَاءِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ الْيَهُودِ وَمَنْ فَسَدَ مِنْ الْعُبَّادِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ النَّصَارَىٰ فَمَنْ دَعَا إلَىٰ الْعِلْمِ دُونَ الْعَمَلِ الْمَأْمُورِ بِهِ كَانَ مُضِلًّا وَمَنْ دَعَا إلَىٰ الْعَمَلِ دُونَ الْعِلْمِ كَانَ مُضِلًّا وَأَضَلُّ مِنْهُمَا مَنْ سَلَكَ فِي الْعِلْمِ طَرِيقَ أَهْلِ الْبِدَعِ؛ فَيَتَّبِعَ أُمُورًا تُخَالِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ يَظُنُّهَا عُلُومًا وَهِيَ جَهَالَاتٌ. وَكَذَلِكَ مَنْ سَلَكَ فِي الْعِبَادَةِ طَرِيقَ أَهْلِ الْبِدَعِ. فَيَعْمَلُ أَعْمَالًا تُخَالِفُ الْأَعْمَالَ الْمَشْرُوعَةَ يَظُنُّهَا عِبَادَاتٍ وَهِيَ ضَلَالَاتٌ. فَهَذَا وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْمُنْحَرِفِ الْمُنْتَسِبِ إلَىٰ فِقْهٍ أَوْ فَقْرٍ. يَجْتَمِعُ فِيهِ أَنَّهُ يَدْعُو إلَىٰ الْعِلْمِ دُونَ الْعَمَلِ وَالْعَمَلِ دُونَ الْعِلْمِ وَيَكُونُ مَا يَدْعُو إلَيْهِ فِيهِ بِدَعٌ تُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ. وَطَرِيقُ اللَّهِ لَا تَتِمُّ إلَّا بِعِلْمِ وَعَمَلٍ يَكُونُ كِلَاهُمَا مُوَافِقًا الشَّرِيعَةَ. فَالسَّالِكُ طَرِيقَ «الْفَقْرِ وَالتَّصَوُّفِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ» إنْ لَمْ يَسْلُكْ بِعِلْمِ يُوَافِقُ الشَّرِيعَةَ وَإِلَّا كَانَ ضَالًّا عَنْ الطَّرِيقِ وَكَانَ مَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ. وَالسَّالِكُ مِنْ «الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ وَالنَّظَرِ وَالْكَلَامِ» إنْ لَمْ يُتَابِعْ الشَّرِيعَةَ وَيَعْمَلْ بِعِلْمِهِ وَإِلَّا كَانَ فَاجِرًا ضَالًّا عَنْ الطَّرِيقِ)[1]، فأنت ترىٰ أن المخاطر تحيط بالصوفي كما هي تحيط بالفقيه، فمن زعم أن الصوفي يقع في البدع والفقيه معصوم أو العكس فقد أخطأ، وهذا ظاهر بيّن.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٢٧).

ثم يقسم الشيخ الصوفية إلىٰ ثلاثة أقسام: صوفية الحقائق وصوفية الأرزاق وصوفية الرسم.

فصوفية الحقائق هم الذين يسيرون بالصوفي إلىٰ مقام الصديقية، وصوفية الأرزاق هم الصوفية التي وقفت عليهم الوقوف من الخوانك[1] والمدارس ودور التخلي، وصوفية الرسم هي الصوفية التي اهتمت بالمظاهر دون الحقائق، باللباس دون الآداب والأخلاق، وأنت ترىٰ أن أكثر صوفية اليوم هم من هذا النوع، بل إن أكثرهم في زمان الشيخ كانوا من هذا النوع، لذلك فإن الشيخ قاد حركة تصحيحية داخل التيار الصوفي وجلّىٰ معاني التصوف الصحيح وأظهره مرة أخرىٰ بعد أن اندرست معالمه واختلط علىٰ الناس.

وعمومًا فإن الشيخ يرىٰ أن الصوفي يشترط فيه ثلاث صفات: العدالة الشرعية، التأدب بآداب أهل الطريق الشرعية ولا يلتفت إلىٰ الآداب البدعية، وأن لا يتمسك بفضول الدنيا. يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَأَمَّا مَنْ كَانَ جَمَّاعًا لِلْمَالِ أَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَخَلِّقٍ بِالْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَلَا يَتَأَدَّبُ بِالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْ كَانَ فَاسِقًا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ)[2].

---

(١) الخوانك جمع خانكاه، وهي كلمة فارسية معناها بيت، وقيل أصلها خونقاه، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. والخوانك حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالىٰ. (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي (٤/ ٢٨٠).

(٢) انظر لجميع ما سبق: مجموع الفتاوىٰ: (١١/ ١٩-٢٠).

حرب الشيخ على المتزييفين
من المتصوفة وميزان الإنصاف

كما كان يتصدىٰ الشيخ دائمًا للمتحلين والمبطلين من المتعالمين، فكذلك كان حاله مع التصدي للمفاهيم الباطلة التي أحدثها الضلال من المتصوفة، فكان دائم التصدر في مناظرتهم وتبيين ضلالاتهم وتزييفهم وتلبيسهم علىٰ الناس، وقد حدثت مواقع بين الشيخ وبين كبار هؤلاء الضلال وأوذي بسببهم لما عجزوا عن رد حجته فألبوا عليه العوام، ومع هذا كله لم يؤثر عن الشيخ إلا الإنصاف دائمًا في حقهم، ويبين أن من كان من هؤلاء ضالًا فإن هذا لا يدفع للحكم علىٰ كل من ينتسب إلىٰ الصوفية بالحكم ذاته.

بل أبعد من هذا، فقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتذاره لكثير من هؤلاء المتصوفة الذين وقعوا في البدع والضلالات بل في الشرك، وكان يعذرهم بجهلهم، وكان يذكر أنهم من أهل الفضل والإحسان.

يقول الشيخ عن «البطائحية» وهي من فرق الصوفية الرفاعية، وقد ناظرها الشيخ في أكثر من موضع: (وَذَلِكَ أَنِّي كُنْت أَعْلَمُ مِنْ حَالِهِمْ بِمَا قَدْ ذَكَرْته فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ -وَهُوَ أَنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا مُنْتَسِبِينَ إلَىٰ الْإِسْلَامِ وَطَرِيقَةِ الْفَقْرِ وَالسُّلُوكِ وَيُوجَدُ فِي بَعْضِهِمْ

التَّعَبُّدُ وَالتَّأَلُّهُ وَالْوَجْدُ وَالْمَحَبَّةُ وَالزُّهْدُ وَالْفَقْرُ وَالتَّوَاضُعُ وَلِينُ الْجَانِبِ وَالْمُلَاطَفَةُ فِي الْمُخَاطَبَةِ وَالْمُعَاشَرَةِ وَالْكَشْفِ وَالتَّصَرُّفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مَا يُوجَدُ- فَيُوجَدُ أَيْضًا فِي بَعْضِهِمْ مِنْ الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَمِنْ الْغُلُوِّ وَالْبِدَعِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَالِاسْتِخْفَافِ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ وَالْكَذِبِ وَالتَّلْبِيسِ وَإِظْهَارِ المخارق الْبَاطِلَةِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَا يُوجَدُ)[1].

هذه الكلمات هي المنهج العملي التطبيقي لما ينظر له اليوم داخل الدوائر العلموية، عن وجوب الإنصاف مع المخالف، ولا تعدو أن تكون مجرد دعاوىٰ، أما عند الشيخ فلا تكاد تجد لهذه الحالة الانفصامية بين الدعوىٰ والعمل أثرًا.

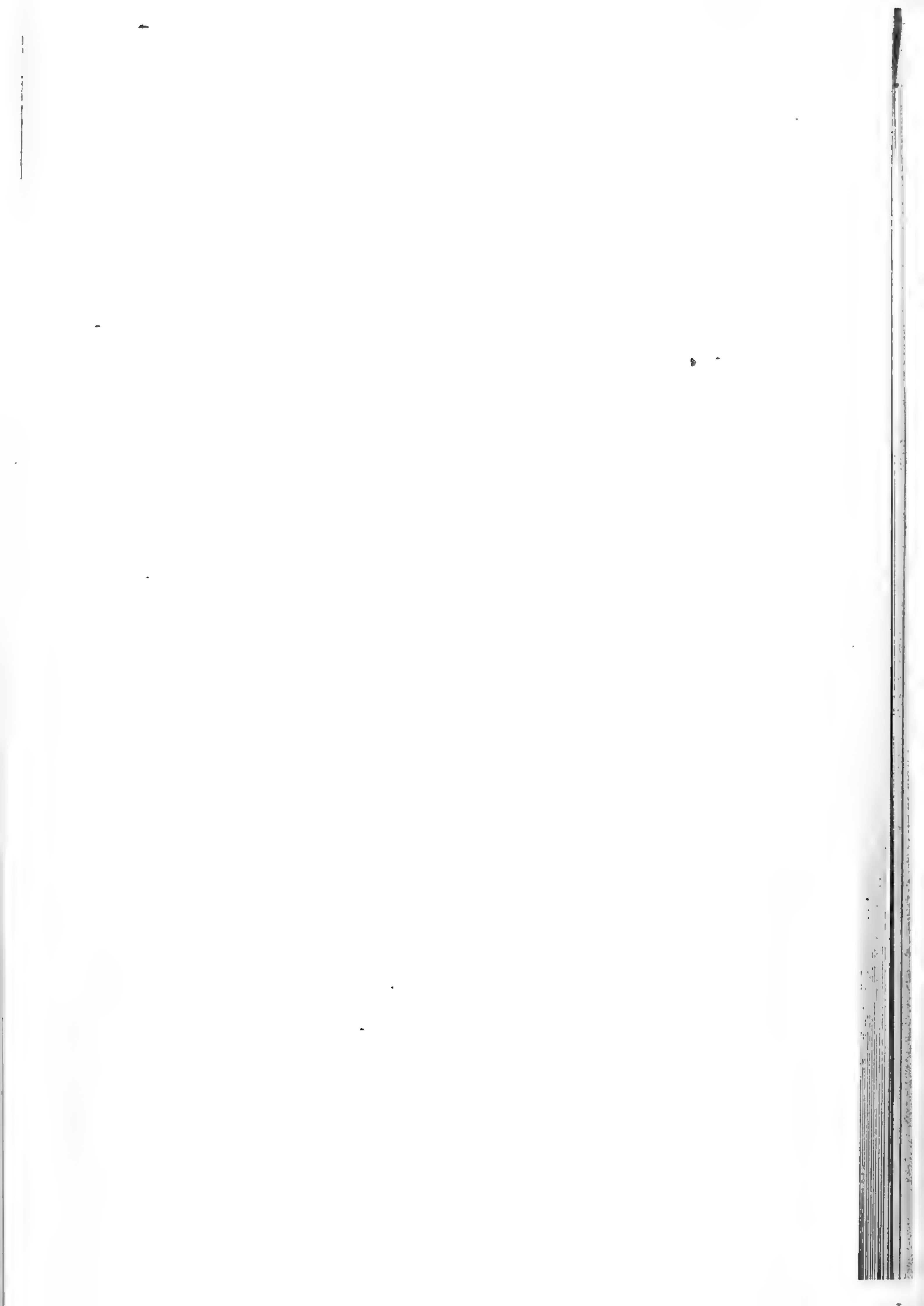
من خلال متابعة مناظرات الشيخ مع فرق الصوفية، وتحقيقه للمسائل التي أشاعها ملاحدة المتصوفة كما يسميهم الشيخ، نجد الشيخ يفرق بين الصوفية الحقة وبين ملاحدة الصوفية أو المتصوفة، بل ويستدل الشيخ بأقوال الصوفية الحقة علىٰ فساد اعتقاد ملاحدة الصوفية، وهذا كله لا يدع مجالًا للشك عند الباحث؛ أن الشيخ رحمه الله تعالىٰ لا يرىٰ أصل الصوفية فرقة مبتدعة، وإنما يرىٰ أدبيات التصوف من صميم الدين ولكنها تعرضت كما تعرضت الحركة الفقهية لكثير من العوائق والشوائب الناشئة عن عوامل

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤٤٧).

متعددة، بل ولا يبعد أن تكون تلك العوامل هي ذاتها التي أثرت في الحركة الفقهية فانحرفت بها إلىٰ غير جادة الفقهاء المتقدمين مما دفع به أن يقدم حركة تصحيحة للتراث الفقهي أيضًا.

«وَهَكَذَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الرِّوَايَاتِ وَمِنْ أَهْلِ الْآرَاءِ وَالْأَذْوَاقِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالزُّهَّادِ وَالْمُتَكَلِّمِين وَغَيْرِهِمْ. يُوجَدُ فِيمَا يَأْثُرُونَهُ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ وَفِيمَا يَذْكُرُونَهُ مُعْتَقِدِينَ لَهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ وَأَمْرٌ عَظِيمٌ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ. وَيُوجَدُ -أَحْيَانًا- عِنْدَهُمْ مِنْ جِنْسِ الرِّوَايَاتِ الْبَاطِلَةِ أَوْ الضَّعِيفَةِ وَمِنْ جِنْسِ الْآرَاءِ وَالْأَذْوَاقِ الْفَاسِدَةِ أَوْ الْمُحْتَمَلَةِ شَيْءٌ كَثِيرٌ. وَمَنْ لَهُ فِي الْأُمَّةِ لِسَانُ صِدْقٍ عَامٌّ بِحَيْثُ يُثْنَى عَلَيْهِ وَيُحْمَدُ فِي جَمَاهِيرِ أَجْنَاسِ الْأُمَّةِ فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَئِمَّةُ الْهُدَى وَمَصَابِيحُ الدُّجَى وَغَلَطُهُمْ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إلَى صَوَابِهِمْ وَعَامَّتُهُ مِنْ مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ الَّتِي يُعْذَرُونَ فِيهَا وَهُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْعِلْمَ وَالْعَدْلَ فَهُمْ بُعَدَاءُ عَنْ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ وَعَنْ اتِّبَاعِ الظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُس.»

ابن تيمية -قدس الله روحه-



موقف الشيخ من أعلام الصوفية

يظهر لمن تتبع درر ابن تيمية في أصدافه، أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان واسع الاطلاع علىٰ كتب الصوفية وعلىٰ أقوال أئمتهم من المتقدمين والمتأخرين، وقد حرر في كتبه موقفه من أعلام الصوفية تحريرًا واضحًا، وبين أن ملاحدة الصوفية ليسوا من التصوف في شيء، وسيأتي معنا إن شاء الله، كيف أن الشيخ كان يدلل علىٰ زندقة بعض رموز ملاحدة المتصوفة من كلام أهل التصوف الحق.

وعلىٰ كل حال فإن الشيخ يقسم المتكلمين في التصوف والحقائق إلىٰ أصناف ثلاثة باعتبار عقائدهم فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(والمتكلمون في التصوف والحقائق ثلاثة أصناف:

١- قومٌ علىٰ مذهب أهل الحديث والسنة كهؤلاء المذكورين. (يعني الفضيل بن عياض وإبراهيم بن الأدهم وأبا سليمان الداراني وغيرهم).

٢- وقومٌ علىٰ طريقة بعض أهل الكلام من الكُلاَّبية أو غيرهم كأبي القاسم القُشَيري وغيره.

٣- وقومٌ خرجوا إلىٰ طريقة المتفلسفة بمثلُ من سلك مَسْلك

رسائل إخوان الصفا ومن ذلك قطعة توجد في كلام أبي حَيَّان التوحيدي.

وأما ابن عربي وابن سبعين وغيرهما ونحوهما فحقائقهم فلسفية غيَّروا عبارتها وأخرجوها في قالب التصوف أخذوا مُخَّ الفلسفة فَكَسوه لِحاءَ الشريعة)[1]، بل إن الشيخ يثبت أن أصول الصوفية هي أبعد الأصول عن البدع والضلالة في باب الاعتقاد، وأن الخلط لم يأت إلا بعد أن نسب القشيري رحمه الله عقيدة الأشعرية إلىٰ الصوفية، وأن الصوفية الأُوَلَ لم يكونوا علىٰ هذه الطريقة قط، بل كانوا مباينين لها، يقول الشيخ: (وَهَذَا الَّذِي ذكره الشَّيْخ أَبُو عَليّ من أَن الصُّوفِيَّة يخالفون الْمُعْتَزلَة فَأمر مُتَّفق عَلَيْهِ فَإِن أُصُول الصُّوفِيَّة لَا تلائم نفي الصِّفَات بل هم أبعد النَّاس عَن الاعتزال فِي الصِّفَات وَالْقدر . . . فَعلم أَن الْقَوْم مخالفون لهَذِهِ الطَّرِيقَة الكلامية الَّتِي أَشَارَ أَبُو الْقَاسِم إِلَىٰ بَعْضهَا وَكَذَلِك قد ذكر أَبُو الْقَاسِم فِي تَرْجَمَة الشَّيْخ أبي الْحسن بن الصايغ وزمنه زمن ابْن الْكَاتِب سنة ثَلَاثِينَ وثلاثمائة قَالَ وَكَانَ من كبار الْمَشَايخ وَقَالَ قَالَ أَبُو عُثْمَان المغربي مَا رَأَيْت من الْمَشَايخ أنور من أبي يَعْقُوب النهرجوري وَلَا أَكثر هَيْبَة من أبي الْحسن بن الصايغ

قَالَ القشيرىٰ سُئِلَ ابْن الصايغ عَن الِاسْتِدْلَال بِالشَّاهِدِ علىٰ

---

(١) الرد علىٰ الشاذلي في حزبيه (ص١٦٠).

الْغَائِب فَقَالَ كَيفَ يسْتَدلّ بِصِفَات من لَهُ مثل وَنَظِير علىٰ صِفَات من لَا مثل لَهُ وَلَا نَظِير.

وَالِاسْتِدْلَال بِالشَّاهِدِ علىٰ الْغَائِب فِي إِثْبَات الصِّفَات هِيَ طَرِيقَة شُيُوخ أبي الْقَاسِم من الْمُتَكَلِّمين الَّذين يجمعُونَ بَين الشَّاهِد وَالْغَائِب فِي الْحَد وَالدَّلِيل وَالشّرط وَالْعلم لإِثْبَات الْحَيَاة وَالْعلم وَسَائِر الصِّفَات فقد رد الشَّيْخ أَبُو الْحسن هَذِه الطَّرِيقَة وَمِمَّا يبين هَذَا أَن أعظم الْمَشَايِخ الَّذين أَخذ عَنْهُم أَبُو الْقَاسِم جمعًا لكَلَام مَشَايِخ الصُّوفِيَّة وتأليفًا لَهُ وَرِوَايَة لَهُ هُوَ الشَّيْخ أَبُو عبد الرَّحْمَن السلمي فَإِن القشيري لم يدْرك شَيخًا أجمع لكَلَام الْقَوْم وأحرص علىٰ ذَلِك وأرغب فِيهِ مِنْهُ وَلِهَذَا صنف فِي ذَلِك مَا لم يصنفه نظراؤه كَمَا أَن الَّذين أدركوا عصر أبي الْقَاسِم من مَشَايِخ الْقَوْم لم يكن فيهم أقوم بِهَذَا الْبَاب من شيخ الْإِسْلَام أبي إِسْمَاعِيل عبد الله بن مُحَمَّد الْأنْصَارِيّ الهروي لَا سِيمَا فِي الْمعرفَة بأخبار الْقَوْم وَكَلَامهم وطريقهم فَإِنَّهُ فِي ذَلِك وَنَحْوه من أعلم النَّاس وَكَانَ إِمَامًا فِي الحَدِيث وَالتَّفْسِير وَغير ذَلِك.

وَمَعَ هَذَا فالشيخ أَبُو عبد الرَّحْمَن وَشَيخ الْإِسْلَام كِلَاهُمَا لَهُ مُصَنف مَشْهُور فِي ذمّ طَرِيقَة الْكَلَام الَّتِي يدْخل فِيهَا كثير مِمَّا ذكره أَبُو الْقَاسِم من الدَّلَائِل والمسائل.

حَتَّىٰ ذكر شيخ الْإِسْلَام فِي كِتَابه قَالَ سَمِعت أَحْمد بن أبي نصر يَقُول رَأينَا مُحَمَّد بن الْحُسَيْن السّلمِيّ يلعن الْكلابِيَّة[1]،

---

(١) الاستقامة (ص١/ ١٠٤).

ويقول أيضًا: (وله فِي ذمّ الْكَلَام مُصنف يُخَالف مَا ينصره أَبُو الْقَاسِم وَأَبُو عبد الرَّحْمَن أجل من أَخذ عَنهُ أَبُو الْقَاسِم كَلَام الْمَشَايِخ وَعَلِيهِ يعْتَمد فِي أَكثر مَا يحكيه فَإِن لَهُ مصنفات مُتعَدِّدَة

وَكَذَلِكَ عَامَّة الْمَشَايِخ الَّذين سماهم أَبُو الْقَاسِم فِي رسَالَته لَا يعرف عَن شيخ مِنْهُم أنه كَانَ ينصر طَرِيقَة الْكلابِيَّة والأشعرية الَّتِي نصرها أَبُو الْقَاسِم بل الْمَحْفُوظ عَنْهُم خلافهم وَمن صرح مِنْهُم فَإِنَّمَا يُصَرح بِخِلَافِهَا حَتَّىٰ شُيُوخ عصره الَّذين سماهم حَيْثُ قَالَ: فَأَما الْمَشَايِخ الَّذين عاصرناهم وَالَّذين أدركناهم وَإِن لم يتَّفق لنا لقياهم مثل الْأُسْتَاذ الشَّهِيد لِسَان وقته وَوَاحِد عصره أبي علي الدقاق وَالشَّيْخ شيخ وقته أبي عبد الرَّحْمَن السلمي وأبي الْحسن علىٰ بن جَهْضَم مجاور الْحرم وَالشَّيْخ أبي الْعَبَّاس القصاب بطبرستان وَأحمد الأسود الدينَوَرِي وأبي الْقَاسِم الصيرفي بنيسابور وأبي سهل الخشاب الْكَبِير بهَا وَمَنْصُور بن خلف المغربي وأبي سعيد الْمَالِينِي وأبي طَاهِر الجحدري قدس الله أرواحهم وَغَيرهم

فَإِن هَؤُلَاءِ الْمَشَايِخ مثل أَبي الْعَبَّاس القصاب لَهُ من التصانيف الْمَشْهُورَة فِي السّنة وَمُخَالفَة طَرِيقَة الْكلابِيَّة الأشعرية مَا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعه.

وَكَذَلِكَ سَائِر شُيُوخ الْمُسلمين من الْمُتَقَدِّمين والمتأخرين الَّذين لَهُم لِسَان صدق فِي الْأمة كَمَا ذكر الشَّيْخ يحيىٰ بن يُوسُف الصرصري ونظمه فِي قصائده عَن الشَّيْخ علي بن إِدْرِيس شَيْخه أنه سَأَلَ قطب العارفين أَبَا مُحَمَّد عبد الْقَادِر بن عبد الله الجيلي فَقَالَ

يَا سَيِّدي هَل كَانَ لله ولي علىٰ غير اعْتِقَاد أَحْمد بن حَنْبَل فَقَالَ مَا كَانَ وَلَا يكونِ ..)[1] وسرد بعد ذلك أسانيد إلىٰ بعض مشايخ الطرق في ذم الكلام والدعوة للاعتصام بالكتاب والسنة.

فأنت ترىٰ أن الشيخ يبين أن الصوفية إنما هم علىٰ مذهب السلف في الاعتقاد ابتداء، وجاء الخلط من جهة القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ.

والمقصود أننا نستعرض هنا شيئًا من أشهر الأعلام الذين تكلم عنهم الشيخ تقي الدين في كتاباته ومصنفاته لنسلط الضوء بشكل مقتضب علىٰ منهج الشيخ رحمه الله تعالىٰ في التعامل مع أعلام الصوفية وكيف تعامل مع ملاحدة الصوفية.

---

(١) الاستقامة (١/ ٨٣).

أبو عبد الرحمن السلمي

أبو عبد الرحمن السلمي من كبار مشايخ الصوفية وهو من أجل شيوخ القشيري الصوفي المعروف، وقد اهتم الشيخ تقي الدين بالنقل عن السلمي في مواضع كثيرة، واهتم أيضًا بتحرير مذهبه العقدي وتبيين أنه علىٰ منهج أهل السنة والجماعة وموافق لهم في باب الأسماء والصفات والعقائد، وهذا التحرير له مزية هامة جدًا لتوضيح الصورة التي رسخت في أذهان المعاصرين من أن الشيخ يحارب الصوفية جملة وتفصيلًا، وهذا غلط صريح بل الشيخ أجل من أن يعامل الفرق بميزان واحد وهو الخبير بهم.

يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن أبا عبد الرحمن السلمي علىٰ عقيدة أهل السنة والجماعة، وهو مفارق للعقائد البدعية التي أنشأها المعتزلة والكلابية وغيرهم، وأن منهج السلمي هو منهج التمسك بالكتاب بالسنة علىٰ ما فهمه السادة الأعلام من السلف الكرام، وينبذ كل بدعة أظهرها أهل البدع والضلالة.

يقول شيخ الإسلام في تقرير تمسك الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي بطريقة السلف الكرام في فهم الدين وعدم الزيغ عنهم كما فعل المبطلون: (وَقَالَ شيخ الْإِسْلَام وَأَخْبرنِي أَحْمد بن حَمْزَة حَدثنَا

مُحَمَّد بن الْحُسَيْن وَهُوَ أَبُو عبد الرَّحْمَن السلمي يَقُول بَلغنِي أَن بعض أَصْحَاب أبي عَليّ الجوزجاني سَأَلَهُ كَيفَ الطَّرِيق إِلَىٰ الله؟ قَالَ: أصح الطرق وأعمرها وأبعدها من الشبه اتباع الكتاب والسنة قولا وفعلا وعقدا ونية لأن الله يقول ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النُّور: ٥٤] فَسَأَلَهُ كَيفَ طَرِيق اتِّبَاع السّنة؟ قَالَ: بمجانبة الْبدع وَاتِّبَاع مَا اجْتمع عَلَيْهِ الصَّدْر الأول من عُلَمَاء الْإِسْلَام وَأَهله والتباعد عَن مجَالِس الْكَلَام واهله وَلُزُوم طَرِيقَة الِاقْتِدَاء والاتباع، بذلك أمر النَّبِي ﷺ بقوله تَعَالَىٰ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النَّحْل: ١٢٣])[1].

وقد نقل الشيخ تقي الدين النقول عن السلمي رحمه الله أنه كان ينكر علم الكلام، وأن السلمي كان يلعن الكلابية، وقد علل الشيخ تقي الدين لعن السلمي للكلابية بقوله: (وَمُحَمّد بن الْحُسَيْن السّلمِيّ هُوَ الشَّيْخ أَبُو عبد الرَّحْمَن أعرف مَشَايِخ أبي الْقَاسِم الْقشيرِي بطريقة الصُّوفِيَّة وَكَلَامهم وَمَعْلُوم أَن الْقَوْم من أبعد النَّاس عَن اللَّعْن وَنَحْوه لحظوظ أنفسهم وَلَوْلَا أَن أبا عبد الرَّحْمَن كَانَ الَّذِي عِنْده أَن الْكلابِيَّة مباينون لمَذْهَب الصُّوفِيَّة المباينة الْعَظِيمَة الَّتِي توجب مثل هَذَا لما لعنهم أَبُو عبد الرَّحْمَن)[2].

وإلىٰ جانب ما يقرره شيخ الإسلام هنا من أن الشيخ السلمي كان مباينًا في طريقته للكلابية، يقرر قاعدة جليلة في أن الصوفية

---

(١) الاستقامة (١/ ١٠٦).

(٢) الاستقامة (١/ ١٠٥).

الحقة هم من أبعد الناس عن اللعن لحظوظ النفس، وهذه القاعدة التي يقررها شيخ الإسلام إنما هي نابعة عن موقفه من أن الصوفية هي حركة اعتنت بالنفس والأخلاق والسلوك كما تقدم، وأن هذا الذي قرره الصوفية كان موافقًا لأخلاقهم العملية كما يبين الشيخ هنا.

ويقرر الشيخ في أكثر من موضع أن السلمي هو من أبعد الناس عن علم الكلام، وساق الأسانيد التي يرويها السلمي وتلامذته عنه في ذم الكلام وأهله وأنها ليست طريقة العلماء من الصدر الأول رحمهم الله تعالىٰ، يقول الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقد ذكر الشَّيْخ أَبُو عبد الرَّحْمَن السلمي فِي كِتَابه فِي ذمّ الْكَلَام مَا ذكر أَيْضًا شيخ الْإِسْلَام أَبُو اسماعيل الْأَنْصَارِيّ فَقَالَ أَخْبرنِي ابْن أَحْمد حَدثنَا مُحَمَّد بن الْحُسَيْن فَقَالَ رَأَيْت بِخَط أبي عَمْرو بن مطر يَقُول: سُئِلَ ابْن خُزَيْمَة عَن الْكَلَام فِي الْأَسْمَاء وَالصِّفَات فَقَالَ بِدعَة ابتدعوها وَلم يكن أَئِمَّة الْمُسلمين وأرباب الْمذَاهب وأئمة الدّين مثل مَالك وسُفْيَان وَالْأَوْزَاعِيّ وَالشَّافِعِيّ وَأحمد وَإِسْحَاق وَيحيىٰ بن يحيىٰ وَابْن الْمُبَارك وَمُحَمّد بن يحيىٰ وَأبي حنيفَة وَمُحَمّد بن الْحسن وَأبي يُوسُف يَتَكَلَّمُونَ فِي ذَلِك وَينْهَوْنَ عَن الْخَوْض فِيهِ ويدلون أَصْحَابهم علىٰ الْكتاب وَالسّنة، فإياك والخوض فِيهِ وَالنَّظر فِي كتبهمْ بِحَال وَقَالَ مُحَمَّد بن الْحُسَيْن وَهُوَ أَبُو عبد الرَّحْمَن السلمي سَمِعت أَحْمد بن سعيد المعداني بمرو سَمِعت أَبَا بكر بن بسطَام سَأَلت أَبَا بكر بن سيار عَن الْخَوْض فِي الْكَلَام فنهاني عَنهُ أَشد

النَّهْي وَقَالَ عَلَيْك بِالْكتاب وَالسّنة وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّدْر الأول من الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وتابعي التَّابِعين فَإِنِّي رَأَيْت الْمُسلمين فِي أقطار الأَرْض ينهون عَن ذَلِك وينكرونه ويأمرون بِالْكتاب وَالسّنة)[1].

فهذا هو موقف السلمي من علم الكلام ونقله لذلك عن أئمة الإسلام من التابعين وغيرهم، وهذا التقرير لسلامة عقيدة السلمي رحمه الله لم يمنع شيخ الإسلام من أن يتدارك عليه في مواضع ويمارس دوره في التصحيح والتقويم كما هو حاله رحمه الله تعالىٰ مع كل أحد من قريب وبعيد.

فقد تكلم شيخ الإسلام عن بعض مصنفات السلمي، وبين ما فيها من خلل في التصنيف والمنهج والروايات، مع تسليمه بمشيخته رحمه الله تعالىٰ.

ومن هذه المصنفات التي تناولها الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالىٰ بالنقد، كتاب السلمي الموسوم بحقائق التفسير، فبين الشيخ رحمه الله أن في هذا الكتاب من العبارات والتفسير مما لا يصح، وأن فيه من العبارات والنقول المكذوبة عن جعفر الصادق رحمه الله، يبين الشيخ ما يحتويه كتاب حقائق التفسير للشيخ أبي عبد الرحمن فيقول: (و«كِتَابُ حَقَائِقِ التَّفْسِيرِ» لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ:

أحدها: نُقُولٌ ضَعِيفَةٌ عَمَّنْ نُقِلَتْ عَنْهُ مِثْلُ أَكْثَرِ مَا نَقَلَهُ عَنْ

---

(١) الاستقامة (١/ ١٠٤).

جَعْفَرٍ الصَّادِقِ فَإِنَّ أَكْثَرَهُ بَاطِلٌ عَنْهُ وَعَامَّتُهَا فِيهِ مِنْ مَوْقُوفِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَقَدْ تَكَلَّمَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ فِي نَفْسِ رِوَايَةِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَتَّىٰ كَانَ البيهقي إِذَا حَدَّثَ عَنْهُ يَقُولُ حَدَّثَنَا مِنْ أَصْلِ سَمَاعِهِ.

والثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمَنْقُولُ صَحِيحًا لَكِنَّ النَّاقِلَ أَخْطَأَ فِيمَا قَالَ.

والثَّالِثُ: نُقُولٌ صَحِيحَةٌ عَنْ قَائِلٍ مُصِيبٍ)[1].

وينبه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ علىٰ بعض ما يورده السلمي في كتابه حقائق التفسير أن فيه من النقول الموضوعة والمكذوبة علىٰ الإمام جعفر، فيقول: (وَكَذَلِكَ مَا يَأْثُرُهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ بَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الطَّرِيقِ أَوْ يَنْتَصِرُ لَهُ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَحْوَالِ. فِيهِ مِنْ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ شَيْءٌ كَثِيرٌ. وَفِيهِ -أَحْيَانًا- مِنْ الْخَطَإِ أَشْيَاءُ؛ وَبَعْضُ ذَلِكَ يَكُونُ عَنْ اجْتِهَادٍ سَائِغٍ. وَبَعْضُهُ بَاطِلٌ قَطْعًا. مِثْلُ مَا ذُكِرَ فِي حَقَائِقِ التَّفْسِيرِ قِطْعَةٌ كَبِيرَةٌ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْآثَارِ الْمَوْضُوعَةِ. وَذَكَرَ عَنْهُ بَعْضُ طَائِفَةٍ أَنْوَاعًا مِنْ الْإِشَارَاتِ الَّتِي بَعْضُهَا أَمْثَالٌ حَسَنَةٌ. وَاسْتِدْلَالَاتٌ مُنَاسِبَةٌ. وَبَعْضُهَا مِنْ نَوْعِ الْبَاطِلِ وَاللَّغْوِ)[2].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢٤٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤٢).

أبو القاسم القشيري

أبو القاسم القشيري هو تلميذ أبي عبد الرحمن السلمي، وكان يسميه الشيخ تقي الدين «الأستاذ أبا القاسم»، وإنما اخترنا القشيري لأنه أشعري اعتقادًا، ومع هذا وجدنا من شيخ الإسلام ثناء علىٰ مصنفاته وإنصافًا منه له، لنبين أن طريقة الشيخ رحمه الله تعالىٰ وإن كان يشتد نكيره علىٰ مذهب الأشاعرة إلا أنه يعتذر لأعيانهم اعتذارًا يضيق به صدر المتعصب الجاهل ما شاء الله له أن يضيق، وقد انتشر عن الشيخ ﵀ أنه يكفر أعيان مخالفيه ويشتد عليهم بالنكير، وأحسب هذه النقولات عنه لتبيين مذهبه وحقيقة رأفته بالمخالفين قربة إلىٰ الله جل وعلا.

يرىٰ شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ أن القشيري من متصوفة أهل الكلام، ويعلل هذا بتلمذته علىٰ يد ابن فورك، يقول الشيخ ﵁: (فصل فِيمَا ذكره الشَّيْخ أَبُو الْقَاسِم القشيرىٰ فِي رسَالَته الْمَشْهُورَة من اعْتِقَاد مَشَايخ الصُّوفِيَّة فَإِنَّهُ ذكر من متفرقات كَلَامهم مَا يسْتَدلّ بِهِ علىٰ أنهم كَانُوا يوافقون اعْتِقَاد كثير من الْمُتَكَلِّمين الأشعرية وَذَلِكَ هُوَ اعْتِقَاد أبي الْقَاسِم الَّذِي تَلقاهُ عَن أبي بكر بن فورك وَأبي إِسْحَاق الإسْفِرَايِينِيّ.

وَهَذَا الِاعْتِقَاد غالبه مُوَافق لأصول السّلف وَأهل السّنة وَالْجَمَاعَة لكنه مقصر عَن ذَلِك ومتضمن ترك بعض مَا كَانُوا عَلَيْهِ وَزِيَادَة تخَالف مَا كَانُوا عَلَيْه، وَالثَّابِت الصَّحِيح عَن أكَابِر الْمَشَايخ يُوَافق مَا كَانَ عَلَيْهِ السّلف وَهَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يجب أَن يذكر)[1].

وهذا التفصيل بديع دقيق منه رحمه الله تعالىٰ، فهو وإن كان يرىٰ أن أبا القاسم ينسب إلىٰ الأشاعرة إلا أنه يرىٰ أنه من متقدمي الأشاعرة وهم أقرب إلىٰ السلف، لا كالمتأخرين وهذا معروف، لهذا أثبت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القشيري وافق السلف في إثبات صفة المحبة وموافقته للسلف في إثباتها.

ويعد القشيري من مشايخ الصوفية الحقة الذين تعرض الشيخ تقي الدين لمؤلفاته وأقواله بالنقد والتصحيح، وعقد له فصولًا مختلفة في مصنفاته في تحقيق أقواله في الرسالة وغيرها، وكل هذا التحقيق والتدقيق والتصحيح لا يخرج عن الذي قعّده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمَا ذكره أَبُو الْقَاسِم فِي رسَالَته من اعْتِقَادهم وأخلاقهم وطريقتهم فِيهِ من الْخَيْر وَالْحق وَالدّين أَشْيَاء كَثِيرَة وَلَكِن فِيهِ نقص عَن طَرِيقَة أَكثر أَوْلِيَاء الله الكاملين وهم نقاوة الْقُرُون الثَّلَاثَة وَمن سلك سبيلهم وَلم يذكر فِي كِتَابه أَئِمَّة الْمَشَايخ من الْقُرُون الثَّلَاثَة وَمَعَ مَا فِي كِتَابه من الْفَوَائِد فِي المقولات والمنقولات فَفِيهِ أَحَادِيث وَأَحَادِيث ضَعِيفَة بل بَاطِلَة وَفِيه كَلِمَات مجملة تحْتَمل الْحق وَالْبَاطِل

(١) الاستقامة (ص٨٢).

رِوَايَة ورأيًا وَفِيه كَلِمَات بَاطِلَة فِي الرَّأْي وَالرِّوَايَة وَقد جعل الله لكل شيء قدرًا، وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٥] فكتبت من تَمْيِيز ذَلِك مَا يسره الله وَاجْتَهَدت فِي اتِّبَاع سَبِيل الْأمة الْوسط الَّذين هم شُهَدَاء علىٰ النَّاس دون سَبِيل من قد يرفعهُ فَوق قدره فِي اعْتِقَاده وتصوفه علىٰ الطَّرِيقَة الَّتِي هِيَ أكمل وَأَصَح مِمَّا ذكره علمًا وَحَالًا وقولًا وَعَملًا واعتقادًا واقتصادًا أَو يحطه دون قدره فيهمَا مِمَّن يسرف فِي ذمّ أهل الْكَلَام أَو يذم طَرِيقَة التصوف مُطلقًا وَالله أعلم.

وَالَّذِي ذكره أَبُو الْقَاسِم فِيهِ الْحسن الْجَمِيل الَّذِي يجب اعْتِقَاده واعتماده وَفِيه الْمُجْمل الَّذِي يُؤْخَذ المحق والمبطل وَهَذَانِ قريبان وَفِيه منقولات ضَعِيفَة ونقول عَمَّن لَا يُقْتَدِي بهم فِي ذَلِك فهذان مردودان وَفِيه كَلَام حمله علىٰ معنىٰ وَصَاحبه لم يقْصد نفس مَا أَرَادَهُ هُوَ ثمَّ إِنَّه لم يذكر عَنْهُم إِلَّا كَلِمَات قَليلَة لَا تشفي فِي هَذَا الْبَاب، وعنهم فِي هَذَا الْبَاب من الصَّحِيح الصَّرِيح الْكَبِير مَا هُوَ شِفَاء للمقتدىٰ بهم الطَّالِب لمعْرِفَة أصولهم وَقد كتبت هُنَا نكتًا يعرف بهَا الْحَال)[1].

وفي معرض الحديث عن الذي ذكره الأستاذ أبو القاسم

---

(١) الاستقامة (١/ ٩١).

القشيري في باب الرضا، ناقلًا عن سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا مشكلًا، يعلق الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قائلًا: (فصل فِيمَا ذكره الأستاذ أبو الْقَاسِم الْقشيري فِي بَاب الرِّضَا عَن الشَّيْخ أبي سُلَيْمَان الدَّارَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قَالَ الرِّضَا أن لَا تسْأَل الله الْجنَّة وَلَا تستعيذ بِهِ من النَّار، فإن النَّاس تنازعوا فِي هَذَا الْكَلَام فَمنهمْ من أنكره وَمِنْهُم من قبله وَالْكَلَام علىٰ هَذَا الْكَلَام من وَجْهَيْن:

أَحدهمَا: من جِهَة ثُبُوته عَن الشَّيْخ أبي سُلَيْمَان، وَالثَّانِي: من جِهَة صِحَّته فِي نَفسه وفساده. أما الْمقَام الأول فَيَنْبَغِي أن يعلم أن الأستاذ أبا الْقَاسِم الْقشيرِي لم يذكرهُ عَن الشَّيْخ أبي سُلَيْمَان بِإِسْنَاد وإنما ذكره مُرْسلًا عَنهُ فِي رسَالَته عَن النَّبِي ﷺ وَالصَّحَابَة وَالتَّابِعين والمشايخ وَغَيرهم تَارَة يذكرهُ بِإِسْنَاد وَتارَة يذكرهُ مُرْسلًا وَكثِيرًا مَا يَقُول فِي الرسَالَة وَقيل عَنهُ كَذَا ثمَّ الَّذِي يذكرهُ الأستاذ أبو الْقَاسِم [بالْإِسْنَادِ] تَارَة يكون إسناده صَحِيحًا وَتارَة يكون ضَعِيفًا بل مَوْضُوعًا وَمَا يذكرهُ مُرْسلًا ومحذوف الْقَائِل أولىٰ، وَهَذَا كَمَا يُوجد [ذَلِك] فِي مصنفات الْفُقَهَاء فَإِن فِيهَا من الأحاديث والْآثَار مَا هُوَ صَحِيح وَمِنْهَا مَا هُوَ ضَعِيف وَمِنْهَا مَا هُوَ مَوْضُوع، فالموجود فِي كتب الرَّقَائِق والتصوف من الآثار المنقولة فِيهَا الصَّحِيح وفيها الضَّعِيف وفيهَا الْمَوْضُوع، وَهَذَا أمر مُتَّفق عَلَيْهِ بَين جَمِيع الْمُسلمين لَا يتنازعون فِي أن هَذِه الْكتب فِيهَا هَذَا وفيهَا هَذَا بل نفس الْكتب المصنفة فِي الحَدِيث والآثار فِيهَا هَذَا وَهَذَا، وَكَذَلِكَ الْكتب المصنفة فِي التَّفْسِير فِيهَا هَذِه وَهَذَا مَعَ أن أهل الحَدِيث أقرب إلىٰ معرفَة المنقولات وَفِي كتبهمْ هَذَا وَهَذَا فكيف غيرهم، والمصنفون

قد يكونُونَ أَئِمَّة فِي الْفِقْه أوْ التصوف أوْ الحَدِيث ويروون هَذَا تَارَة لأَنهم لم يعلمُوا أنه كذب وَهُوَ الْغَالِب علىٰ أهل الدّين فَإِنَّهُم لَا يحتجون بِمَا يعلمُونَ أنه كذب وَتارَة يذكرُونَهُ وإن علمُوا أنه كذب إذ قصدهم رِوَايَة مَا روي فِي ذَلِك الْبَاب . . . .

وَالْمَقْصُود هُنَا أن مَا يُوجد فِي الرسَالَة وأمثالها من كتب الْفِقْه والتصوف والْحَدِيث من المنقولات عَن النَّبِي ﷺ وَغيره من السّلف فِيهِ الصَّحِيح وَفِيه الضَّعِيف وَفِيه الْمَوْضُوع فَالصَّحِيح الَّذِي قَامَت الدّلَالَة علىٰ صدقه، والموضوع الَّذِي قَامَت الدّلَالَة علىٰ كذبه عَلَيْهَا وَلَا يحْتَج بهَا فَإِن الضعْف ظَاهر عَلَيْهَا وَإِن كَانَ هُوَ لَا يتَعَمَّد وإما لاتهامه، وَلَكِن يُمكن أن يكون صَادِقًا فِيهِ، فَإِن الْفَاسِق قد يصدق والغالط قد يحفظ، وغالب أبواب الرسَالَة فِيهِ الأقسام الثَّلَاثَة . . .).

ويقول أيضًا: (وَهَذَا الحَدِيث رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه وإن كَانَ الأستاذ لم يذكر أن مُسلمًا رَوَاهُ، لَكِن رَوَاهُ بِإِسْنَاد صَحِيح وَذكر فِي أول هَذَا الْبَاب حَدِيثًا ضَعِيفًا بل مَوْضُوعًا، وَهُوَ حَدِيث جَابر الطَّوِيل الَّذِي رَوَاهُ من حَدِيث الْفضل بن عِيسَىٰ الرقاشِي عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن جَابر، فَهُوَ وإن كَانَ أول حَدِيث ذكره فِي الْبَاب فَإِن حَدِيث الْفضل بن عِيسَىٰ من أوهىٰ الأحاديث وأسقطها وَلَا نزاع بَين الأئمة أنه لَا يعْتَمد عَلَيْهَا وَلَا يحْتَج بهَا فَإِن الضعْف ظَاهر عَلَيْهَا، وإن كَانَ هُوَ لَا يعْتَمد الْكَذِب)[١].

وهذه النقول تجلي لنا بوضوح أن الشيخ رحمه الله تعالىٰ،

---

(١) الاستقامة (٢/٦٩).

لا ينظر إلىٰ التصوف علىٰ أنه بدعة بالكلية كما يفعل بعض المعاصرين، بل إنه يرىٰ التصوف مدرسة كما الفقه والحديث، وأنه لا يجب أن يتعامل معها بعيدًا عن أدبيات التعامل مع باقي علوم الدين، وأن ما يوجد من خلل في مصنفات التصوف هو موجود كذلك في باقي الكتب ووارد عليها، وأيضًا من المهم التنبه إلىٰ أن كثيرًا من المعاصرين يتعامل مع كتب الصوفية انطلاقًا من تصور مسبق وهو أن المصنف الصوفي جاهل بعلوم الشريعة، وهذا ما نفاه ابن تيمية مرارًا وقد سبق معنا أن الشيخ أنكر علىٰ من كان يحتقر الزهاد والعباد ولا يراهم شيئًا، وينبهنا أيضًا إلىٰ أن هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي تروىٰ في هذه الكتب هي للغرض ذاته الذي من أجله تروىٰ في باقي المؤلفات كمجرد مناسبة الرواية وغير ذلك مما خطه الشيخ هناك.

ويعالج الشيخ مشكلة ضعف النقول أو كونها غير مسندة بإرجاعها إلىٰ كتب الصوفية المسندة، فيقول: (والكتب المسندة فِي أخبار هَؤُلَاءِ الْمَشَايِخ وَكَلَامهم مثل كتاب حلية الاولياء لأبي نعيم وطبقات الصُّوفِيَّة للشَّيْخ أبي عبد الرَّحْمَن وصفوة الصفوة لِابْنِ الْجَوْزِيّ وأمثال ذَلِك لم يذكرُوا فِيهَا هَذِه الْكَلِمَة عَن الشَّيْخ أبي سُلَيْمَان وَقد ذكرُوا فِيهَا عَن الشَّيْخ أبي سُلَيْمَان الأثر الَّذِي رَوَاهُ عَنهُ مُسْندًا حَيْثُ قَالَ لأحمد بن أبي الْحوَارِي: يَا أَحْمد لقد أوتيت من الرِّضَا نَصِيبًا لَو ألقاني فِي النَّار لَكُنْت بذلك رَاضِيًا ..)[1].

---

(١) الاستقامة (٢/ ٨٥).

الجنيد السالك

وللجنيد عند الشيخ رحمه الله منزلة رفيعة، وقد أثنىٰ عليه في مواضع كثيرة، فكان ينعته بسيد الطائفة[1] وإمام الهدىٰ، وكثيرًا ما كان يستشهد بكلامه في الكلام عن الرضا وأعمال القلوب ، والنهي عن التكلف في السماع والتوحيد واليقين، وكثيرًا ما كان يجل الجنيد عن أقوال نسبت إليه ولا تصح لاحتمالها معاني فاسدة. بل كان يثني علىٰ الجنيد لقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي وقع فيه أهل زمانه من المتصوفة، قال الشيخ: (والجُنَيد نفعَه الله بقيامه بالأمر والنهي)[2]، وينقل الشيخ تقي الدين موقفًا من مواقف التصحيح الذي مارسه سيد الطائفة مع أتباعه، يقوّم لهم المفاهيم الذي ربما خرجت عن مقصودها التي وضعت له فيقول: (قَالَ الشِّبْلِيُّ بَيْنَ يَدَيْ الْجُنَيْد: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ. فَقَالَ الْجُنَيْد: قَوْلُك ذَا ضِيقُ صَدْرٍ، وَضِيقُ الصَّدْرِ لِتَرْكِ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ. فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْكَلَامِ. وَكَانَ الْجُنَيْد رضي الله عنه سَيِّدَ الطَّائِفَةِ وَمِنْ أَحْسَنِهِمْ تَعْلِيمًا وَتَأْدِيبًا وَتَقْوِيمًا - وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ

---

(١) الاستقامة (٢/ ٨٢).

(٢) الرد علىٰ الشاذلي (ص٧١).

كَلِمَةُ اسْتِعَانَةٍ؛ لَا كَلِمَةُ اسْتِرْجَاعٍ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُهَا عِنْدَ الْمَصَائِبِ بِمَنْزِلَةِ الِاسْتِرْجَاعِ وَيَقُولُهَا جَزَعًا لَا صَبْرًا. أَنْكَرَ عَلَىٰ الشِّبْلِيِّ حَالَهُ فِي سَبَبِ قَوْلِهِ لَهَا إِذْ كَانَتْ حَالًا يُنَافِي الرِّضَا وَلَوْ قَالَهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ)[1].

ومن النقول التي نقلها الشيخ تقي الدين يبين فيها التزام الجنيد بالكتاب والسنة، ما نقله في رسالته (الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان): (وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث، لا يصلح له أن يتكلم في علمنا، أو قال: لا يقتدىٰ به)[2]. وهذه الطريقة من الشيخ ينتهجها مع كل من ذكرهم من مشايخ الصوفية الحقة، أو مشايخ الطريق، فإنه ينقل عنهم النقول التي فيها أن تصوفهم إنما هو مقيد بالكتاب والسنة، وأن من لم يجمع القرآن ويكتب الحديث لم يكن له في طريق الصوفية حظ.

وقال الشيخ: (وَأَمَّا أَئِمَّةُ الصُّوفِيَّةِ وَالْمَشَايِخُ الْمَشْهُورُونَ مِنَ الْقُدَمَاءِ: مِثْلُ الْجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَأَتْبَاعِهِ وَمِثْلُ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ وَأَمْثَالِهِ فَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ لُزُومًا لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَتَوْصِيَةً بِاتِّبَاعِ ذَلِكَ وَتَحْذِيرًا مِنَ الْمَشْيِ مَعَ الْقَدَرِ)[3].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٦٨٧).

(٢) (ص٧٤).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٣٦٩).

بل إن الشيخ صرح بأن من اتبع الجنيد فقد سعد، يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (فَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَ الْجُنَيْد مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ كَانَ قَدْ اهْتَدَىٰ وَنَجا وَسَعِدَ . .)[1] وسيأتي معنا إن شاء الله، استشهاد الشيخ تقي الدين واعتماده علىٰ كلام الجنيد رَحِمَهُ اللهُ، في كثير من مواضع الاعتقاد والإنكار علىٰ ملاحدة المتصوفة وتقويمه لمفاهيمهم.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٣٥٥).

الشيخ عبد القادر

يعد الشيخ عبد القادر الجيلاني من أكثر المشايخ الذين نافح عنهم الشيخ تقي الدين وتأثر به تأثرًا عجيبًا، وكان الشيخ تقي الدين يسمي الشيخ عبد القادر بالشيخ العارف، ولعله سماه قطب العارفين، وكان دائم الترضي عنه ، واهتم بأقواله ومصنفاته واهتم بتثبيت مواقفه في كثير من المسائل كالقدر والنبوة والولاية والاستغاثة والاستواء وغيرها من مسائل الفقه، بل إن الشيخ قد شرح جزءًا من كتاب فتوح الغيب للشيخ عبد القادر وكان يكثر النقل عنه.

الشيخ عبد القادر يعد من الشخصيات المحورية ذات الصلة بالتراث الصوفي، وإن كنا قد ذكرنا بأن الشيخ تقي الدين قد بذل وسعه في تنقية العقائد الصوفية وإعادتها إلىٰ الصدر الأول، فهو كان يفعل ذلك من خلال تجلية الشخصيات الصوفية المركزية، بل وإظهارها علىٰ خلاف ما يدعيه ملاحدة الصوفية من أن هذه الشخصيات والرموز تحمل هذه الأفكار الخبيثة والمنحرفة، فألصقوا بها من الاعتقادات الباطلة ما هم منه براء، وقد انتهج الشيخ رحمه الله منهجًا واضحًا في المنافحة عن هذه الرموز الصالحة وإزالة الكدر الذي أحاط بها.

بين الشيخ تقي الدين ومشايخ الطريق، وبين الحلاج

يعد الحلاج من أكثر الأسماء التي انتشر ذكرها عند المتصوفة، وقد حدث شرخ كبير حتىٰ داخل الصوفية المعاصرة في الموقف من الحلاج، فمنهم من كفره كالبوطي، ومنهم من يراه فيلسوفًا أو حتىٰ وليًا.

والشيخ تقي الدين كانت طريقته مختلفة في التعاطي مع الحلاج، فهو جعل الحلاج في مواجهة مشايخ الطريق، وصادمه معهم وأثبت أنهم أخرجوه من الطريق ولم يعدوه من مشايخ المتصوفة، وستجد أن هذا المنهج يطرد مع الشيخ في جل المسائل الشائكة في علم التصوف، فيستشهد بأقوال المشايخ والعلماء من أهل الطريق والحقائق ليبين أن هذه البدع ليست من التصوف في شيء وأنها بدع محدثة ومشايخ الطريق لا يقرونها بحال.

نعود للحلاج، فنجد أن الشيخ تقي الدين اهتم بتقرير عقيدة الحلاج في ضمن تقريره لعقيدة الحلولية والاتحادية، وقد بين الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ موقفه من الحلاج وأهم قضية قتل لأجلها الحلاج، فقال: (سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ -قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ-:

مَا تَقولُ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ فِي الْحَلَّاجِ؟ وَفِيمَنْ قَالَ: أَنَا أَعْتَقِدُ مَا

يَعْتَقِدُهُ الْحَلَّاجُ مَاذَا يَجِبُ عَلَيْهِ؟ وَيقُولُ: إِنَّهُ قُتِلَ ظُلْمًا كَمَا قُتِلَ بَعْضُ الأَنْبِيَاءِ؟ وَيقُولُ: الْحَلَّاجُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَمَاذَا يَجِبُ عَلَيْهِ بِهَذَا الْكَلَامِ وَهَلْ قُتِلَ بِسَيْفِ الشَّرِيعَةِ؟

فَأَجَابَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَنْ اعْتَقَدَ مَا يَعْتَقِدُهُ الْحَلَّاجُ مِنْ الْمَقَالَاتِ الَّتِي قُتِلَ الْحَلَّاجُ عَلَيْهَا فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا قَتَلُوهُ عَلَىٰ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَقَالَاتِ أَهْلِ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ كَقَوْلِهِ: أَنَا اللَّهُ. وَقَوْلِهِ: إلَهٌ فِي السَّمَاءِ وَإِلَهٌ فِي الْأَرْضِ)[1].

وهذه الزندقة دلل عليها الشيخ من كلام ونقول مشايخ الطريق من الصوفية الحقة، فتارة ينقل لنا الشيخ أن مشايخ الصوفية أخرجوا الحلاج عن الطريق، وتارة ينقل لنا أن كبار الصوفية لم يدخلوا الحلاج في تراجم مشايخ الطريق، وتارة ينقل لنا أن أحدًا من علماء المسلمين من الفقهاء والصوفية لم يذكروه بخير.

يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي فِي طَبَقَاتِ الصُّوفِيَّةِ: إنَّ أَكْثَرَ الْمَشَايِخِ أَخْرَجُوهُ عَنْ الطَّرِيقِ وَلَمْ يَذْكُرْهُ أَبُو الْقَاسِمِ القشيري فِي رِسَالَتِهِ مِنْ الْمَشَايِخِ؛ الَّذِينَ عَدَّهُمْ مِنْ مَشَايِخِ الطَّرِيقِ. وَمَا نَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ذَكَرَ الْحَلَّاجَ بِخَيْرٍ لَا مِنْ الْعُلَمَاءِ وَلَا مِنْ الْمَشَايِخِ؛ وَلَكِنَّ بَعْضَ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٤٨٠).

النَّاسِ يَقِفُ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ أَمْرَهُ وَأَبْلَغُ مَنْ يُحْسِنُ بِهِ الظَّنَّ يَقُولُ: إِنَّهُ وَجَبَ قَتْلُهُ فِي الظَّاهِرِ فَالْقَاتِلُ مُجَاهِدٌ وَالْمَقْتُولُ شَهِيدٌ وَهَذَا أَيْضًا خَطَأٌ. وَقَوْلُ الْقَائِلِ: إِنَّهُ قُتِلَ ظُلْمًا قَوْلٌ بَاطِلٌ فَإِنَّ وُجُوبَ قَتْلِهِ عَلَىٰ مَا أَظْهَرَهُ مِنَ الْإِلْحَادِ أَمْرٌ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ؛ لَكِنْ لَمَّا كَانَ يُظْهِرُ الْإِسْلَامَ وَيُبْطِنُ الْإِلْحَادَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ: صَارَ زِنْدِيقًا فَلَمَّا أُخِذَ وَحُبِسَ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ وَالْفُقَهَاءُ مُتَنَازِعُونَ فِي قَبُولِ تَوْبَةِ الزِّنْدِيقِ فَأَكْثَرُهُمْ لَا يَقْبَلُهَا وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَذْهَبُ أَحْمَدَ فِي أَشْهَرِ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ وَهُوَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ وَوَجْهٌ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ؛ وَالْقَوْلُ الْآخَرُ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ. وَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّهُ إِذَا قُتِلَ مِثْلُ هَذَا لَا يُقَالُ قُتِلَ ظُلْمًا)[1].

وقال أيضًا: (وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ الْحَلَّاجَ لَمْ يَكُنْ مُقَيَّدًا بِصِنْفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ بَلْ كَانَ قَدْ قَالَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي تُوجِبُ الْكُفْرَ وَالْقَتْلَ بِاتِّفَاقِ طَوَائِفِ الْمُسْلِمِينَ مَا قَدْ ذُكِرَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَكَذَلِكَ أَنْكَرَهُ أَكْثَرُ الْمَشَايِخِ وَذَمُّوهُ: كَالْجُنَيْدِ وَعَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ الْمَكِّيِّ وَأَبِي يَعْقُوبَ النهرجوري. وَمَنْ الْتَبَسَ عَلَيْهِ حَالُهُ مِنْهُمْ فَلَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ مَا قَالَهُ -إِلَّا مَنْ كَانَ يَقُولُ بِالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ مُطْلَقًا أَوْ مُعَيَّنًا- فَإِنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ هَذَا كَانَ قَوْلَ الْحَلَّاجِ وَيَنْصُرُ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ فِرْقَةُ ابْنِ سَبْعِينَ فِيهَا مِنْ رِجَالِ الظُّلْمِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الْحَلَّاجُ - وَعِنْدَ جَمَاهِيرِ الْمَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْحَلَّاجَ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٤٨٢ وما بعدها).

لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَشَايِخِ الصَّالِحِينَ؛ بَلْ كَانَ زِنْدِيقًا وَزُهْدُهُ لِأَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ يَطُولُ وَصْفُهَا وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْفَنَاءِ فِي «تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ»؛ بَلْ كَانَ قَدْ تَعَلَّمَ السِّحْرَ وَكَانَ لَهُ شَيَاطِينُ تَخْدِمُهُ إِلَىٰ أُمُورٍ أُخْرَىٰ مَبْسُوطَةٍ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَبِكُلِّ حَالٍ آدَمُ لَمَّا أَكَلَ هُوَ وَحَوَّاءُ مِنَ الشَّجَرَةِ لَمْ يَكُنْ زَائِلَ الْعَقْلِ وَلَا فَانِيًا فِي شُهُودِ الْقَدَرِ الْعَامِّ وَلَا احْتَجَّ عَلَىٰ مُوسَىٰ بِذَلِكَ بَلْ قَالَ: لِمَ تَلُومُنِي عَلَىٰ أَمْرٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ فَاحْتَجَّ بِالْقَدَرِ السَّابِقِ لَا بِعَدَمِ تَمْيِيزِهِ بَيْنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَحْظُورِ)[1].

ويزداد هذا المنهج وضوحا عندما سئل الشيخ تقي الدين عن قول السادة العلماء في الحلاج أكان صديقا أم زنديقا، فيجيب: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْحَلَّاجُ قُتِلَ عَلَىٰ الزَّنْدَقَةِ الَّتِي ثَبَتَتْ عَلَيْهِ بِإِقْرَارِهِ وَبِغَيْرِ إِقْرَارِهِ؛ وَالْأَمْرُ الَّذِي ثَبَتَ عَلَيْهِ بِمَا يُوجِبُ الْقَتْلَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ قُتِلَ بِغَيْرِ حَقٍّ فَهُوَ إِمَّا مُنَافِقٌ مُلْحِدٌ وَإِمَّا جَاهِلٌ ضَالٌّ . . . وَقَدْ جَمَعَ الْعُلَمَاءُ أَخْبَارَهُ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ أَرَّخُوهَا؛ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِهِ وَالَّذِينَ نَقَلُوا عَنْهُمْ مِثْلُ أَبِي عَلِيٍّ الْحَطِي ذَكَرَهُ فِي «تَارِيخِ بَغْدَادَ» وَالْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ ذَكَرَ لَهُ تَرْجَمَةً كَبِيرَةً فِي «تَارِيخِ بَغْدَادَ» وَأَبُو يُوسُفَ الْقَزْوِينِيُّ صَنَّفَ مُجَلَّدًا فِي أَخْبَارِهِ وَأَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ لَهُ فِيهِ مُصَنَّفٌ سَمَّاهُ «رَفْعُ اللَّجَاجِ فِي أَخْبَارِ الْحَلَّاجِ». وَبَسَطَ ذِكْرَهُ فِي تَارِيخِهِ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي فِي

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٣١٨).

«طَبَقَاتِ الصُّوفِيَّةِ» أَنَّ كَثِيرًا مِن الْمَشَايِخِ ذَمُّوهُ وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَعُدُّوهُ مِنْ مَشَايِخِ الطَّرِيقِ؛ وَأَكْثَرُهُمْ حَطَّ عَلَيْهِ. وَمِمَّنْ ذَمَّهُ وَحَطَّ عَلَيْهِ أَبُو الْقَاسِمِ الْجُنَيْد؛ وَلَمْ يُقْتَلْ فِي حَيَاةِ الْجُنَيْد؛ بَلْ قُتِلَ بَعْدَ مَوْتِ الْجُنَيْد؛ فَإِنَّ الْجُنَيْد تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ. وَالْحَلَّاجَ قُتِلَ سَنَةَ بِضْعٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ)[1].

ويقول الشيخ: (وَلَيْسَ أحد من مَشَايِخ الطَّرِيق لَا أَوَّلهمْ وَلَا آخِرهم يصوب الحلاج فِي جَمِيع مقاله بل اتّفقت الْأمة علىٰ انه إِمَّا مُخطئ وَإِمَّا عَاصٍ وَإِمَّا فَاسق وَإِمَّا كَافِر وَمن قَالَ إِنَّه مُصِيب فِي جَمِيع هَذِه الْأَقْوَال المأثورة عَنهُ فَهُوَ ضال بل كَافِر بِإِجماع الْمُسلمين)[2].

فهذه النقول تبين لك أن منهج الشيخ في التعامل مع الحلاج كان يعتمد اعتمادًا أساسيًا علىٰ ما اعتمده مشايخ الصوفية الحقة ومشايخ الطريق من اعتبار الحلاج زنديقًا خارجًا عن الطريق.

وهذه الطريقة هي طريقة تتسم بالاتساق الكلي مع منهج ابن تيمية في التصحيح الشرعي، فإنه لا يفتات علىٰ أهل الاختصاص بل يحكم بحكمهم، كما المسائل الفقهية تمامًا، وهو يعد التصوف علمًا من العلوم الشرعية التي لها أصول من الكتاب والسنة كما سبق معنا.

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/١٠٨ وما بعدها).

(٢) الاستقامة (١/١١٧).

ويجب أن لا يغيب معنا حس راقٍ من أحاسيس الشيخ رحمه الله، وفيه تتجلىٰ جماليات الشيخ التي لطالما طمست بظلمة قلوب مخالفيه وشنئهم له وبغضهم إياه، فهم أرادوا أن يظهروه بأقبح الصور، ويأبىٰ الله إلا أن ينتصر لأوليائه، فتجد الشيخ ينبه علىٰ أن الحلاج لعله تاب توبة باطنة يغفر الله له بها ولا يسعنا إلا أن نحكم علىٰ ظاهره.

يقول الشيخ رحمه الله بعد أن ذكر جملة من كفريات الحلاج الظاهرة: (لَكِنَّ الْعُلَمَاءَ لَهُمْ قَوْلَانِ فِي الزِّنْدِيقِ إذَا أَظْهَرَ التَّوْبَةَ: هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ فَلَا يُقْتَلُ؟ أَمْ يُقْتَلُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ؛ فَإِنَّهُ مَا زَالَ يُظْهِرُ ذَلِكَ؟ فَأَفْتَىٰ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُ يُسْتَتَابُ فَلَا يُقْتَلُ وَأَفْتَىٰ الْأَكْثَرُونَ بِأَنَّهُ يُقْتَلُ وَإِنْ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فِي تَوْبَتِهِ نَفَعَهُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ وَقُتِلَ فِي الدُّنْيَا وَكَانَ الْحَدُّ تَطْهِيرًا لَهُ كَمَا لَوْ تَابَ الزَّانِي وَالسَّارِقُ وَنَحْوُهُمَا بَعْدَ أَنْ يُرْفَعُوا إلَىٰ الْإِمَامِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ إنْ كَانُوا صَادِقِينَ كَانَ قَتْلُهُمْ كَفَّارَةً لَهُمْ وَمَنْ كَانَ كَاذِبًا فِي التَّوْبَةِ كَانَ قَتْلُهُ عُقُوبَةً لَهُ. فَإِنْ كَانَ الْحَلَّاجُ وَقْتَ قَتْلِهِ تَابَ فِي الْبَاطِنِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْفَعُهُ بِتِلْكَ التَّوْبَةِ وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَإِنَّهُ قُتِلَ كَافِرًا)[1].

فلا تغيب عن بصيرة الشيخ أن يذكر ما من شأنه أن يكون عذرًا أخرويًا للحلاج، وهكذا أولياء الله أرأف الناس بالناس!

وانظر يا رعاك الله إلىٰ تحري شيخ الإسلام أن ينسب إلىٰ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/١٠٩).

الحلاج كلامًا لم يقله أو فيه شبهة عدم صحة، فيقول: (قلت هَذَا الْكَلَام وَالله أعلم هَل هُوَ صَحِيح عَن الحلاج أم لَا فَإِن فِي الْإِسْنَاد من لَا أعرف حَاله وَقد رَأَيْت أَشْيَاء كَثِيرَة منسوبة إِلَىٰ الحلاج من مصنفات وكلمات ورسائل وَهِي كذب عَلَيْهِ لَا شكّ فِي ذَلِك وَإِن كَانَ فِي كثير من كَلَامه الثَّابِت عَنهُ فَسَاد واضطراب لَكِن حملوه أَكثر مِمَّا حمله وَصَارَ كل من يُرِيد أَن يَأْتِي بِنَوْع من الشطح والطامات يعزوه إِلَىٰ الحلاج لكَون مَحَله أقبل لذَلِك من غَيره وَلكَون قوم مِمَّن يعظم المجهولات الهائلة يعظم مثل ذَلِك)[1]. فالشيخ كما أنه ينظر بعين الشرع، فهو ينظر بعين الرأفة والرحمة والإنصاف، لا كأهل زماننا والله المستعان الذين ينسبون لابن تيمية أقوالًا ما أنزل الله بها من سلطان، ويزعمون أنه قد خالف الأئمة وخرق الإجماع، وحسبنا الألوسي من أهل الإنصاف فقد ذب عنه في رسالته جلاء العينيين ورد علىٰ من طعن فيه رحم الله الجميع.

---

(١) الاستقامة (١/١١٩).

بين الشيخ ومشايخ الطريق، وبين ابن عربي

ابن عربي من الشخصيات التي أثارت جدلًا أكثر من الحلاج، وتنازع فيه أقوام أيما تنازع، فمنهم من رد عنه ومنهم من حط عليه، وألف القوم حول ما ألفوا، وحرروا فيه ما حرروا، إلا أني هنا لا أريد أن أبحث مواقف ابن عربي ورد ابن تيمية عليه، بل أريد تبيين اطراد منهج ابن تيمية في الحكم علىٰ رموز الملاحدة من المتصوفة بالاستشهاد بمشايخ الطريق، فيجعلهم في مقابلة هذه الرموز ويجعلهم هم من يحكمون عليهم.

ابتداء يرىٰ الشيخ أن ابن عربي قد أخرج الفلسفة في ثوب التصوف، فهو متطفل علىٰ التصوف وليس نابعًا منه ولا متأصلًا منه، يقول في بيان ذلك -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما ابن عربي وابن سبعين وغيرهما ونحوهما فحقائقهم فلسفية غيَّروا عبارتها وأخرجوها في قالب التصوف، أخذوا مُخَّ الفلسفة فَكَسوه لِحاءَ الشريعة .... قال ابن عربي إن الرسل جميعهم إنما يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم فقال ليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء وما يراه أحد من الأولياء إلا من

مشكاة الولي الخاتم حتىٰ إن الرسل لا يرونه إلا من مشكاة الولي خاتم الأولياء ـ . . . وهذا يقوله من يقوله بناءً علىٰ أصله الفاسد وهو الفلسفة التي أخرجها في قالب التصوف والكشف . .)[1] انتهىٰ من كلامه بتصرف.

ومن ثم بين الشيخ في عدة مواضع أن محيي الدين ابن عربي قد فارق وخالف المشايخ من أهل الطريق في أصول التوحيد ورد عليهم، وهنا يلمح الشيخ إلىٰ الفرقان بين الصوفية الحقة وبين المتفلسفة من المتصوفة، فيقول الشيخ: (ولما كان كثير من السالكين يقعون في الحلول والاتحاد وكَثُر ذلك في طريق مُتأخِّري الصوفية [أجاب] الجُنَيد قدَّسَ الله روحَه لما سُئل عن التوحيد فقال: التوحيد إفراد الحدوث عن القِدَم، فرضي الله عن الجُنيد فإنه كان إمام هُدَىٰ وتكلَّم علىٰ المرض الذي يُبتلىٰ به كثيرٌ من هؤلاء. وقد أنكر ابن عربي علىٰ الجنيد وعلىٰ غيره من الشيوخ مثل سهل بن عبد الله التُّسْتَري وأمثاله في كتابه الذي سماه بـ التجليات وادَّعىٰ أن هؤلاء ماتوا وما عرفوا التوحيد وأنه عَرَّفَهم إياه في هذا التجلِّي الذي له وهو تجلٍّ خياليٌّ شيطانيٌّ من نفسه إلىٰ نفسه في نفسه)[2].

ويقول رحمه الله: (فَإِنَّ ابْنَ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالَهُ وَإِنْ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فَهُمْ مِنْ صُوفِيَّةِ الْمَلَاحِدَةِ الْفَلَاسِفَةِ لَيْسُوا مِنْ صُوفِيَّةِ أَهْلِ

---

(1) الرد علىٰ الشاذلي (ص٤٠، ١٣٢-١٣٣).

(2) الرد علىٰ الشاذلي (ص١٥٩).

الْعِلْم فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِنْ مَشَايِخِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: كالْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَمَعْرُوفِ الْكَرْخِي والْجُنَيْد بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التستري وَأَمْثَالِهِمْ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ)[١].

ثم ساق الأسانيد إلىٰ كبار مشايخ الطريق ينقل رأيهم في ابن عربي: (وَقَدْ حَدَّثَنِي أَحَدُ أَعْيَانِ الْفُضَلَاءِ: أَنَّهُ سَمِعَ الشَّيْخَ إبْرَاهِيمَ الجعبري[٢] -رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ- يَقُولُ: رَأَيْت ابْنَ عَرَبِيٍّ -وَهُوَ شَيْخٌ نَجِسٌ- يُكَذِّبُ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَبِكُلِّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ. وَلَقَدْ صَدَقَ فِيمَا قَالَ؛ وَلَكِنَّ هَذَا بَعْضُ الْأَنْوَاعِ الَّتِي ذَكَرَهَا مِنْ الْكُفْرِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ السَّلَام: هُوَ شَيْخُ سُوءٍ مَقْبُوحٌ كَذَّابٌ يَقُولُ بِقِدَمِ الْعَالَمِ وَلَا يُحَرِّمُ فَرْجًا)[٣].

(وَحَدَّثَنِي صَاحِبُنَا الْفَقِيهُ الصُّوفِيُّ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ قرباص: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ الشَّيْخِ قُطْبِ الدِّينِ ابْنِ القسطلاني فَوَجَدَهُ يُصَنِّفُ كِتَابًا. فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا فِي الرَّدِّ عَلَىٰ ابْنِ سَبْعِينَ وَابْنِ الْفَارِضِ وَأَبِي الْحَسَنِ الجزلي وَالْعَفِيفِ التلمساني. وَحَدَّثَنِي عَنْ جَمَالِ الدِّينِ ابْنِ وَاصِلٍ وَشَمْسِ الدِّينِ الأصبهاني: أَنَّهُمَا كَانَا يُنْكِرَانِ كَلَامَ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَيُبْطِلَانِهِ وَيَرُدَّانِ عَلَيْهِ وَأَنَّ الأصبهاني رَأَىٰ مَعَهُ كِتَابًا مِنْ كُتُبِهِ فَقَالَ لَهُ: إنِ اقْتَنَيْت شَيْئًا مِنْ كُتُبِهِ فَلَا تَجِئْ إلَيَّ أَوْ

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٢٣٣).

(٢) لست أدري أهو الذي ترجم له الشعراني في طبقاته أو غيره.

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٢٤٣).

مَا هَذَا مَعْنَاهُ. وَأَنَّ ابْنَ وَاصِلٍ لَمَّا ذَكَرَ كَلَامَهُ فِي التُّفَّاحَةِ الَّتِي انْقَلَبَتْ عَنْ حَوْرَاءَ فَتَكَلَّمَ مَعَهَا أَوْ جَامَعَهَا فَقَالَ: وَاَللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ يَكْذِبُ. وَلَقَدْ بَرَّ فِي يَمِينِهِ. وَحَدَّثَنِي صَاحِبُنَا الْعَالِمُ الْفَاضِلُ أَبُو بَكْرِ بْنُ سالار: عَنْ الشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّينِ ابْنِ دَقِيقِ الْعِيدِ -شَيْخِ وَقْتِهِ- عَنْ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدِ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ عَنْ ابْنِ عَرَبِيٍّ لَمَّا دَخَلَ مِصْرَ فَقَالَ: شَيْخُ سُوءٍ كَذَّابٌ مَقْبُوحٌ يَقُولُ بِقِدَمِ الْعَالَمِ وَلَا يُحَرِّمُ فَرْجًا وَكَانَ تَقِيُّ الدِّينِ يَقُولُ: هُوَ صَاحِبُ خَيَالٍ وَاسِعٍ. حَدَّثَنِي بِذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْفُقَهَاءِ الْمِصْرِيِّينَ مِمَّنْ سَمِعَ كَلَامَ ابْنِ دَقِيقِ الْعِيدِ. وَحَدَّثَنِي ابْنُ بُحَيْرٍ عَنْ رَشِيدِ الدِّينِ سَعِيدٍ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ يَسْتَحِلُّ الْكَذِبَ هَذَا أَحْسَنُ أَحْوَالِهِ . . .

حَدَّثَنِي تَاجُ الدِّينِ الْأَنْبَارِيُّ الْفَقِيهُ الْمِصْرِيُّ الْفَاضِلُ أَنَّهُ سَمِعَ الشَّيْخَ إبْرَاهِيمَ الجعبري يَقُولُ: رَأَيْت ابْنَ عَرَبِيٍّ شَيْخًا مَخْضُوبَ اللِّحْيَةِ وَهُوَ شَيْخٌ نَجِسٌ يُكَفِّرُ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَكُلِّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ. وَحَدَّثَنِي الشَّيْخُ رَشِيدُ الدِّينِ بْنُ الْمُعَلِّمِ أَنَّهُ قَالَ: كُنْت وَأَنَا شَابٌّ بِدِمَشْقَ أَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ عَنْ ابْنِ عَرَبِيٍّ والخسروشاهي: أَنَّ كِلَيْهِمَا زِنْدِيقٌ -أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ- وَحَدَّثَنِي عَنْ الشَّيْخِ إبْرَاهِيمَ الجعبري: أَنَّهُ حَضَرَ ابْنَ الْفَارِضِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَهُوَ يُنْشِدُ:

إنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُم
مَا قَدْ لَقِيت فَقَدْ ضَيَّعْت أَيَّامِي
أُمْنِيَّةٌ ظَفِرَتْ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا
وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ

وَحَدَّثَنِي الْفَقِيهُ الْفَاضِلُ تَاجُ الدِّينِ الْأَنْبَارِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ الشَّيْخَ إبْرَاهِيمَ الجعبري يَقُولُ: رَأَيْت فِي مَنَامِي ابْنَ عَرَبِيٍّ وَابْنَ الْفَارِضِ وَهُمَا شَيْخَانِ أَعْمَيَانِ يَمْشِيَانِ وَيَتَعَثَّرَانِ وَيَقُولَانِ كَيْفَ الطَّرِيقُ؟ أَيْنَ الطَّرِيقُ؟ .

وَحَدَّثَنِي شِهَابُ الدِّينِ الْمِزِّيُّ عَنْ شَرَفِ الدِّينِ ابْنِ الشَّيْخِ نَجْمِ الدِّينِ ابْنِ الْحَكِيمِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: قَدِمْت دِمَشْقَ فَصَادَفْت مَوْتَ ابْنِ عَرَبِيٍّ فَرَأَيْت جِنَازَتَهُ كَأَنَّمَا ذُرَّ عَلَيْهَا الرَّمَادُ فَرَأَيْتهَا لَا تُشْبِهُ جَنَائِزَ الْأَوْلِيَاءِ -أَوْ قَالَ- فَعَلِمْت أَنَّ هَذِهِ أَوْ نَحْوَ هَذَا. وَعَنْ أَبِيهِ عَنْ الشَّيْخِ إسْمَاعِيلِ الكوراني أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: ابْنُ عَرَبِيٍّ شَيْطَانٌ وَعَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَنْ الْحَرِيرِيِّ إنَّهُ شَيْطَانٌ. وَحَدَّثَنِي شِهَابُ الدِّينِ عَنْ الْقَاضِي شَرَفِ الدِّينِ البازيلي أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يَنْهَاهُ عَنْ كَلَامِ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَابْنِ الْفَارِضِ وَابْنِ سَبْعِينَ)[1] .

فأنت ترىٰ كيف عقد الشيخ صفحات ساق فيها الأسانيد إلىٰ فضلاء الصوفية والفقهاء المعاصرين لابن عربي ينقل عنهم تضليلهم وتكفيرهم إياه، وهكذا كان منهجه مع جميع المتصوفة كالتلمساني وغيره.

ومع هذا، فلم يغب عنه حس الإنصاف، يقول الشيخ حاكيًا كيف كان يحسن الظن بابن عربي: (وَإِنَّمَا كُنْت قَدِيمًا مِمَّنْ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِابْنِ عَرَبِيٍّ وَيُعَظِّمُهُ: لِمَا رَأَيْت فِي كُتُبِهِ مِنْ الْفَوَائِدِ مِثْلِ كَلَامِهِ

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٢٤٣-٢٤٨) بتصرف.

فِي كَثِيرٍ مِنْ «الْفُتُوحَاتِ» «والكنة» «وَالْمُحْكَم الْمَرْبُوطِ» «وَالدُّرَّةِ الْفَاخِرَةِ» «وَمَطَالِعِ النُّجُومِ» وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَلَمْ نَكُنْ بَعْدُ اطَّلَعْنَا عَلَىٰ حَقِيقَةِ مَقْصُودِهِ وَلَمْ نُطَالِعْ الْفُصُوصَ وَنَحْوَهُ وَكُنَّا نَجْتَمِعُ مَعَ إِخْوَانِنَا فِي اللَّهِ نَطْلُبُ الْحَقَّ وَنَتَّبِعُهُ وَنَكْشِفُ حَقِيقَةَ الطَّرِيقِ فَلَمَّا تَبَيَّنَ الأَمْرُ عَرَفْنَا نَحْنُ مَا يَجِبُ عَلَيْنَا. فَلَمَّا قَدِمَ مِنْ الْمَشْرِقِ مَشَايِخُ مُعْتَبَرُونَ وَسَأَلُوا عَنْ حَقِيقَةِ الطَّرِيقَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالدِّينِ الإِسْلَامِيِّ وَحَقِيقَةِ حَالِ هَؤُلَاءِ: وَجَبَ الْبَيَانُ. وَكَذَلِكَ كَتَبَ إِلَيْنَا مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ: رِجَالٌ سَالِكُونَ أَهْلُ صِدْقٍ وَطُلِبَ أَنْ أَذْكُرَ النُّكَتَ الْجَامِعَةَ لِحَقِيقَةِ مَقْصُودِهِمْ)[1].

ومع ظهارة ما نقل عن ابن عربي من زندقة وإلحاد، إلا أنه لم يدفع ابن تيمية لقبول كل ما ينقل عنه، فيقر لابن عربي بأنه أقرب هؤلاء إلىٰ الإسلام، وأن من الناس من ينتفع بمواعظه وحسن كلامه في مواضع كثيرة، بل الشيخ نفسه قد انتفع بكلامه كما تقدم معنا، يقول الشيخ: (لَكِنَّ ابْنَ عَرَبِيٍّ أَقْرَبُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ وَأَحْسَنُ كَلَامًا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فَإِنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْمَظَاهِرِ فَيُقِرُّ الأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالشَّرَائِعَ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ وَيَأْمُرُ بِالسُّلُوكِ بِكَثِيرٍ مِمَّا أَمَرَ بِهِ الْمَشَايِخُ مِنْ الأَخْلَاقِ وَالْعِبَادَاتِ وَلِهَذَا كَثِيرٌ مِنْ الْعِبَادِ يَأْخُذُونَ مِنْ كَلَامِهِ سُلُوكَهُمْ فَيَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ حَقَائِقَهُ وَمَنْ فَهِمَهَا مِنْهُمْ وَوَافَقَهُ فَقَدْ تَبَيَّنَ قَوْلَهُ)[2].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٤٦٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ: (٢/ ٤٧٠-٤٧١).

ويقول أيضا: (وَهَذِهِ الْمَعَانِي -يعني المعاني الباطلة والكفرية- كُلُّهَا هِيَ قَوْلُ صَاحِبِ الْفُصُوصِ وَاَللَّهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ بِمَا مَاتَ الرَّجُلُ عَلَيْهِ وَاَللَّهُ يَغْفِرُ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾)[1].

ولكن ما الذي يدفع الشيخ لأن يبين مثل هذا البيان في هذا الموضع؟ إنه رقي النفس وصفاؤها من الضغينة والتحامل، فمع شدة إنكاره بلسانه يشتد قلبه صفاء ورأفة بالمخالف، لعل الله قد كتب له توبة باطنة، يعلمها علام الغيوب!

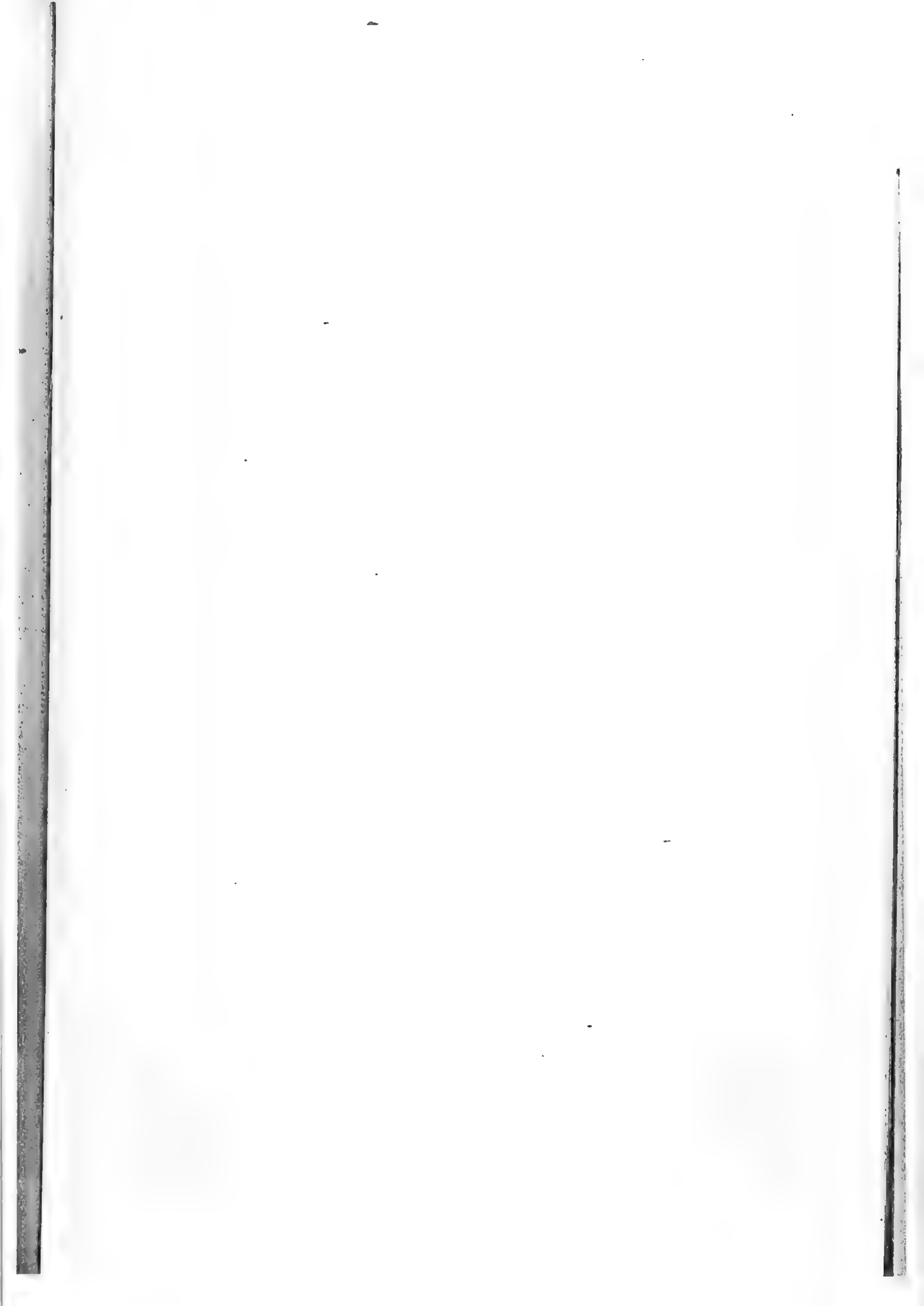
فالقصد من هذه الإضاءات، هو إظهار منهج الشيخ في التعامل مع أعلام الصوفية وتحقيق مواقفهم والرأفة بهم، بل كان يسجل لنا رحمه الله درسًا من دروس السلوك العملي في معاملته مع المخالفين في أشد الأبواب حساسية وهو باب العقيدة، لا كما صوره شانئوه وبعض من تابعوه بصورة الغلظة والتشفي، بل هو رقيق القلب مع كل المسلمين من أهل القبلة وشدته علىٰ المخالف نابعة من خوفه عليهم من الزلل والخطأ والهلكة وجمع الأمة علىٰ كلمة صدق.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/٤٦٩).

«فإن أعمال القلوب التى يسميها بعض الصوفية أحوالًا ومقامات أو منازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك، كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله فهو من الإيمان الواجب وفيها ما أحبه ولم يفرضه فهو من الإيمان المستحب، فالأول لابد لكل مؤمن منه ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار أصحاب اليمين، ومن فعله وفعل الثانى كان من المقربين السابقين وذلك مثل حب الله ورسوله بل أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما، بل أن يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إليه من أهله وماله، ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين والتوكل على الله وحده دون المخلوقين والإنابة إليه مع خشيته، كما قال تعالى ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ ومثل الحب في الله والبغض في الله والموالاة لله والمعاداة لله».

ابن تيمية قدس الله روحه



مظاهر من تصحيح الشيخ لبعض المصطلحات الصوفية

قد مر معنا اهتمام الشيخ بالشخصيات الصوفية وكيف كان منهجه في التعامل معها، فغلب عليه الإنصاف والتحقيق والتدقيق وعدم التسرع والتأني، وكان يستشهد بأحكام مشايخ الطرق الصوفية في الحكم علىٰ ملاحدة الصوفية، وهذا المنهج سيظل حاضرًا معنا في تصحيح الشيخ للمصطلحات والاعتقادات التي فشت بين ملاحدة الصوفية، ، وقد نبه الشيخ في عدة مواضع وقعد قاعدة في التعامل مع الألفاظ الصوفية ينبه فيها إلىٰ أن للصوفية اصطلاحات لا يعلمها إلا هم، فمن دخل فيها علىٰ غير وجه تحقيق أو إنصاف رجع عنهم خاسرًا، يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (واعلم أن لفظ الصوفية وعلومهم تختلف فيطلقون ألفاظهم علىٰ موضوعات لهم ومرموزات وإشارات تجري فيما بينهم فمن لم يداخلهم علىٰ التحقيق ونازل ما هم عليه رجع عنهم وهو خاسئ وحسير)[١].

وسوف نتناول ثلاثة من المفاهيم المشتهرة عند الصوفية: الفناء، والسماع، والعلم اللدني المعروف بالمكاشفة.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٧٩).

تصحيح الشيخ لمعنى الفناء

كعادة الشيخ في التفصيل والتقسيم والاستقراء، يقسم -قدس الله روحه- الفناء إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- قسم كَامِل للسابقين.

٢- وَقسم نَاقص لأَصْحَاب الْيَمين.

٣- وقسم ثَالِث للظالمين الْفَاسِقين والكافرين.

يقول رحمه الله تعالىٰ: (فَالْأول الفناء عَن عبَادَة مَا سوىٰ الله والاستعانة بِهِ بِحَيْثُ لَا يعبد إلا الله وَلَا يَسْتَعِين إلا بِاللَّه وَهَذَا هُوَ دين الإسلام. وَالثَّانِي الفناء عَن شُهُود مَا سوىٰ الله بِحَيْثُ يغيب بمشهوده عَن شُهُوده وَهَذَا لمن لم يقدر علىٰ الْجمع بَين شُهُود الْحَقَائِق وَعبادَة الْخَالِق، بل مَا شهده عِنْده ومعبوده وَاحِد فمشهوده وَاحِد، وَهَذَا يعتري كثيرًا كالعيسوية من هَذِه الأمة الَّذين لَهُم وصف الْعِبَادَة دون الشَّهَادَة فَلهم قُوَّة فِي الْعِبَادَة والإنابة والمحبة، يجتذبهم ذَلِك إلىٰ معبودهم ومقصودهم ومحبوبهم وَلَيْسَ لَهُم قُوَّة مَعَ ذَاك علىٰ شُهُود سَائِر مَا يقوم بِهِ من الكائنات وَمَا يسْتَحقّهُ من الأسماء وَالصِّفَات فَهَؤُلَاءِ إذا لم يتركُوا وَاجِبًا لم يضرهم وإن تركُوا مُسْتَحبًا مشتغلين عَنهُ بِمَا هُوَ أفضل مِنْهُ لم ينقلوا عَن مقامهم وإن اشتغلوا

عَمَّا تَرَكُوهُ من الْمُسْتَحبّ بِمَا لَيْسَ مثله، فانتقالهم إِلَىٰ ذَلِك الأفضل أفضل إذا أمكن وإلا فَفعل الْمَقْدُور عَلَيْهِ من الصَّالِحَات خير من الاهتمام بِمَا يعجز عَنهُ ويصد عَن غَيره وإن تركُوا وَاجِبًا أَوْ فعلوا محرمًا مَعَ إمكان الْعلم وَالْقُدْرَة فهم مؤاخذون علىٰ ذَلِك وإن كَانَ مَعَ سُقُوط التَّمْييز لسَبَب يعذرُونَ بِهِ مثل زَوَال عقل بِسَبَب غير مَحْظُور أو سكر بِسَبَب غير مَحْظُور أَوْ عجز لَا تَفْرِيط فِيهِ فَلَا ذمّ عَلَيْهِم، وإن كَانَ مَعَ التَّكْلِيف فسبب الذَّم قَائِم، ثمَّ لَهُم حكم الله فيهم كَمَا لسَائِر الْمُؤمنِينَ من كَون الذَّنب صَغِيرًا أو كَبِيرًا مَقْرُونًا بحسنات ماحية أو غير ذَلِك من أحكام السَّيِّئَات ما لم يخرجُوا إِلَىٰ: القسم الثَّالِث: وَهُوَ فنَاء الْكَافرين، وَهُوَ جعل وجود الأشياء هُوَ عين وجود الْحق أو وجود نَفسه عين وجوده كَمَا بَيناهُ من مَذَاهِب أهل الْحُلُول والاتحاد فِي غير هَذَا الْموضع، فإن هَذَا كفر وَصَاحبه كَافِر بعد قيام الْحجَّة عَلَيْهِ، وإن كَانَ جَاهِلًا أو متأولًا لم تقم عَلَيْهِ الْحجَّة كَالَّذي قَالَ إذا أنا مت فاحرقوني ثمَّ ذروني فِي اليم . . .)[1].

ويفصل الشيخ في القسم الثاني من الفناء وكيف أنه قد يُرفع التكليف عن من وقع به، فيقول: (وفي هذا الفناء قد يقول: أنا الحق، أو سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، إذا فني بمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، وبمذكور عن ذكره، وبمعروفه عن عرفانه. كما يحكون أن رجلًا كان مستغرقًا في محبة آخر، فوقع

(١) الاستقامة (٢/ ١٤٤).

المحبوب في اليم فألقىٰ الآخر نفسه خلفه، فقال ما الذي أوقعك خلفي؟ فقال: غبت بك عني فظننت أنك أني. وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان، كما يحصل بسكر الخمر، وسكر عشيق الصور. وكذلك قد يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء، كما يحصل بحال حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارىٰ وهي شطحات بعض المشائخ:

كقول بعضهم: انصب خيمتي علىٰ جهنم، ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع؛ وقد يكون صاحبها غير مأثوم، وإن لم يكن فيشبه هذا الباب أمر خفراء العدو من يعين كافرًا أو ظالمًا بحاله ويعلم أنه مغلوب عليه. ويحكم علىٰ هؤلاء أن أحدهم إذا زال عقله بسبب غير محرم فلا جناح عليهم فيما يصدر عنهم من الأقوال والأفعال المحرمة، بخلاف ما إذا كان سبب زوال العقل والغلبة أمرًا محرمًا)[١].

وليس هذا بمدح أبدًا من كل وجه، وإنما هو مدح من جهة واحدة وهي أن هذا الفاني لا يريد إلا الله[٢].

وإذا رجعنا لتعامل الشيخ مع بعض رموز الصوفية كأبي يزيد البسطامي وغيره فيما نطقوا به من كلمات توحي الإلحاد والحلول

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٣٤٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٣٤٢).

نجده دائما ما يتأول لهم ويعتذر لهم بعذر السكر وغلبة الحب الذي قد يفضي إلىٰ مثل هذا، وهو ما أصله في الذي يطرأ علىٰ من حل عليه القسم الثاني من أقسام الفناء، يقول رحمه الله تعالىٰ: (وَلِذَلِكَ غَلِطَ بَعْضُ الْفَلَاسِفَةِ حَتَّىٰ ظَنُّوا أَنَّ ذَاتَ الْمَعْلُوم الْمَعْقُولِ يَتَّحِدُ بِالْعَالِمِ الْعَاقِلِ، فَجَعَلُوا الْمَعْقُولَ وَالْعَقْلَ وَالْعَاقِلَ شَيْئًا وَاحِدًا، وَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ حُلُولِ مِثَالِ الْمَعْلُوم، وَبَيْنَ حُلُولِ ذَاتِهِ، وَهَذَا يَكُونُ لِضَعْفِ الْعَقْلِ وَقُوَّةِ سُلْطَانِ الْمَحَبَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَيَغِيبُ الْإِنْسَانُ بِمَعْبُودِهِ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَبِمَحْبُوبِهِ عَنْ مَحَبَّتِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شَهَادَتِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، فَيَفْنَىٰ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ شُهُودِ الْعَبْدِ، لَا أَنَّهُ نَفْسَهُ يَعْدَمُ وَيَفْنَىٰ فِي مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي شُهُودِهِ، وَمِنْ هَذَا الْمَقَامِ إِذَا غَلِطَ قَدْ يَقُولُ مِثْلَ مَا يُحْكَىٰ عَنْ أَبِي يَزِيدَ الْبَسْطَامِيِّ: سُبْحَانِي، أَوْ مَا فِي الْجُبَّةِ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي هَذَا تُذْكَرُ حِكَايَةٌ، وَهُوَ أَنَّ شَخْصًا كَانَ يُحِبُّ آخَرَ فَأَلْقَىٰ الْمَحْبُوبُ نَفْسَهُ فِي مَاءٍ، فَأَلْقَىٰ الْمُحِبُّ نَفْسَهُ خَلْفَهُ، فَقَالَ: أَنَا وَقَعْتُ فَلِمَ وَقَعْتَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: غِبْتُ بِكَ عَنِّي، فَظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي، فَهَذَا الْعَبْدُ الْمُحِبُّ لَمَّا اسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ قَلْبِهِ سُلْطَانُ الْمَحَبَّةِ صَارَ قَلْبُهُ مُسْتَغْرِقًا فِي مَحْبُوبِهِ، لَا يَشْهَدُ قَلْبُهُ غَيْرَ مَا فِي قَلْبِهِ وَغَابَ عَنْ شُهُودِ نَفْسِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَظَنَّ أَنَّهُ هُوَ نَفْسُ الْمَحْبُوبِ، وَهَذَا أَهْوَنُ مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ذَاتَ الْمَحْبُوبِ نَفْسُهُ)[١].

وقال أيضا بعد أن ذكر حقيقة الشريعة والتوحيد: (فَهَذَا

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٣/ ٣٣٧).

التَّوْحِيدُ: هُوَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ وَإِلَيْهِ تُشِيرُ مَشَايِخُ الطَّرِيقَةِ وَعُلَمَاءُ الدِّينِ لَكِنَّ بَعْضَ ذَوِي الْأَحْوَالِ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ فِي حَالِ الْفَنَاءِ الْقَاصِرِ سُكْرٌ وَغَيْبَةٌ عَنْ السوىٰ وَالسُّكْرُ وَجْدٌ بِلَا تَمْيِيزٍ. فَقَدْ يَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ: سُبْحَانِي أَوْ مَا فِي الْجُبَّةِ إِلَّا اللَّهُ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تُؤْثَرُ عَنْ أَبِي يَزِيدَ البسطامي أَوْ غَيْرِهِ مِنْ الْأَصِحَّاءِ وَكَلِمَاتُ السَّكْرَانِ تُطْوَىٰ وَلَا تُرْوَىٰ وَلَا تُؤَدَّىٰ؛ إذَا لَمْ يَكُنْ سُكْرُهُ بِسَبَبِ مَحْظُورٍ مِنْ عِبَادَةٍ أَوْ وَجْهٍ مَنْهِيٍّ عَنْهُ)[1].

فأبو يزيد البسطامي ومن شاكله يدخلون في النوع الثاني من أنواع الفناء التي قسمها الشيخ، ومع هذا فإنه لم ينكر عليهم لزوال التكليف عنهم في تلك الحال.

وقد شرع الشيخ في كثير من المواضع في الحديث عن الفناء المشروع ورد علىٰ أهل فناء الحلول وفصل أقوالهم وبين بطلانها، ويهمنا هنا أن نستطرد في بيان طريقة الشيخ في تقرير مذهب الصوفية الحقة فيما يتعلق بمسألة الفناء البدعي، وأهم من ينقل عنه تقرير مذهب الصوفية هو القطب الجيلاني رحمه الله تعالىٰ، يوضح لنا شيخ الإسلام ويصحح مفهوم الفناء فيقول:

(فَصْلٌ: وكِلَا الطَّائِفَتَيْنِ: الَّذِينَ يَسْلُكُونَ إلَىٰ اللَّهِ مَحْضَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالدُّنُوِّ وَالْقُرْبِ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٤٦١).

الْمُنَزَّلَيْنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الَّذِينَ يَنْتَهُونَ إِلَىٰ الْفَنَاءِ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ يَقُولُونَ بِالْجَمْعِ وَالِاصْطِلَامِ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا يَصِلُونَ إِلَىٰ الْفَرْقِ الثَّانِي. وَيَقُولُونَ: إِنَّ صَاحِبَ الْفَنَاءِ لَا يَسْتَحْسِنُ حَسَنَةً وَلَا يَسْتَقْبِحُ سَيِّئَةً وَيَجْعَلُونَ هَذَا غَايَةَ السُّلُوكِ. وَالَّذِينَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مَا يَسْتَحْسِنُونَهُ ويستقبحونه وَيُحِبُّونَهُ وَيَكْرَهُونَهُ وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ لَكِنْ بِإِرَادَتِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ وَهَوَاهُمْ؛ لَا بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كِلَا الطَّائِفَتَيْنِ مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًىٰ مِنْ اللَّهِ وَكِلَا الطَّائِفَتَيْنِ لَمْ يُحَقِّقُوا شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَشَهَادَةَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنَّ تَحْقِيقَ الشَّهَادَةِ بِالتَّوْحِيدِ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُحِبَّ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا يُبْغِضَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُوَالِيَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُعَادِيَ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيُبْغِضَ مَا أَبْغَضَهُ وَيَأْمُرَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَيَنْهَىٰ عَمَّا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَّكَ لَا تَرْجُو إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَسْأَلُ إِلَّا اللَّهَ وَهَذَا مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا الْإِسْلَامُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ.

وَالْفَنَاءُ فِي هَذَا هُوَ «الْفَنَاءُ» الْمَأْمُورُ بِهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَهُوَ أَنْ يَفْنَىٰ بِعِبَادَةِ اللَّهِ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ؛ وَبِطَاعَتِهِ عَنْ طَاعَةِ مَا سِوَاهُ وَبِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ عَنْ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ مَا سِوَاهُ وَبِرَجَائِهِ وَخَوْفِهِ عَنْ رَجَاءِ مَا سِوَاهُ وَخَوْفِهِ فَيَكُونُ مَعَ الْحَقِّ بِلَا خَلْقٍ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ: كُنْ مَعَ الْحَقِّ بِلَا خَلْقٍ وَمَعَ الْخَلْقِ بِلَا نَفْسٍ. وَتَحْقِيقُ الشَّهَادَةِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ طَاعَتُهُ طَاعَةَ اللَّهِ وَإِرْضَاؤُهُ إِرْضَاءَ اللَّهِ. وَدِينُ اللَّهِ مَا أَمَرَ بِهِ فَالْحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ وَالْحَرَامُ

مَا حَرَّمَهُ وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ وَلِهَذَا طَالَبَ اللَّهُ الْمُدَّعِينَ لِمَحَبَّتِهِ بِمُتَابَعَتِهِ فَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وَضَمِنَ لِمَنْ اتَّبَعَهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ . وَصَاحِبُ هَذِهِ الْمُتَابَعَةِ لَا يَبْقَىٰ مُرِيدًا إِلَّا مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا كَارِهًا إِلَّا لِمَا كَرِهَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُحِبُّهُ الْحَقُّ كَمَا قَالَ: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي؛ ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه»[1].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٣٣٩).

تصحيح الشيخ لمسألة السماع

مسألة السماع من أهم المسائل التي تتجذر في التراث الصوفي ، فالإنشاد والشعر والحداء كلها تعتبر المكونات الأساسية لأي صوفي تقليدي من المتأخرين أو حتىٰ بعض المتقدمين، وكان السماع مستشريًا جدًا في عصر ابن تيمية، ويمكن الجزم بأن دخول المعازف إلىٰ الإنشاد الصوفي هو نتيجة التأثر بالثقافات الوافدة من بلاد الفرس والعجم، عمومًا؛ تناول الشيخ هذه المسألة وفصل فيها وبين موقفه وموقف مشايخ الطريق من هذا السماع وأثره في النفس وعلاقته بالفناء والسكر الروحاني.

يرىٰ الشيخ أن السماع محرك لما في القلب من محبة للمحبوب، ومنشأ السماع عند المتصوفة كان لغرض تحريك المحبة ولكنه تطور من مراتب الإباحة إلىٰ أن وصل إلىٰ الكفر الصريح، يقول مبينًا هذا: (وَالْمَقْصُود هُنَا إِنَّمَا هُوَ فِي ذكر محبَّة الْعباد لله وَقد تبين أَن ذَلِك هُوَ أصل أَعمال الْإِيمَان وَلم يتَبَيَّن بَين أحد من سلف الْأمة من الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ لَهُم بِإِحْسَان نزاع فِي ذَلِك وَكَانُوا يحركون هَذِه الْمحبَّة بِمَا شرع الله أَن تحرّك بِهِ من أَنْوَاع الْعِبَادَات الشَّرْعِيَّة كالعرفان الإيماني وَالسَّمَاع الفرقاني، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ

أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ إِلَىٰ آخر السُّورَة ثُمَّ أنه لما طَال الأمد صَار فِي طائفة المتكلمة من الْمُعْتَزلَة وَغَيرهم من يُنكر هَذِه الْمحبَّة، وَصَارَ فِي بعض المتصوفة من يطْلب تحريكها بأنواع من سَماع الحَدِيث كالتغبير وَسَمَاع المكاء والتصدية، فيسمعون من الْأَقْوَال والأشعار مَا فِيهِ تَحْرِيك جنس الْحبّ الَّذِي يُحَرك من كل قلب مَا فِيهِ من الْحبّ بِحَيْثُ يصلح لمحب الأوتار والصلبان والإخوان والأوطان والمردان والنسوان كَمَا يصلح لمحب الرَّحْمَن، وَلَكِن كَانَ الَّذين يحضرونه من الشُّيُوخ يشترطون لَهُ الْمَكَان والإمكان والخلان، وَرُبمَا اشترطوا لَهُ الشَّيْخ الَّذِي يحرس من الشَّيْطَان، ثمَّ توسع فِي ذَلِك غَيرهم حَتَّىٰ خَرجُوا فِي ذَلِك إِلَىٰ أَنْوَاع من الْمعاصِي بل إِلَىٰ نوع من الفسوق، بل خرج فِيهِ طوائف إِلَىٰ الْكفْر الصَّرِيح بِحَيْثُ يتواجدون علىٰ أَنْوَاع من الْأَشْعَار الَّتِي فِيهَا الْكفْر والإلحاد مِمَّا هُوَ من أعظم أَنْوَاع الْفساد وينتج ذَلِك لَهُم من الْأَحْوَال بِحَسبِهِ كَمَا تنْتج لعباد الْمُشْركين وَأهل الْكتاب عباداتهم بحسبها . .)[1].

إذن، فالسماع في أصله مطلوب بل هو سنة الأنبياء والصحابة والتابعين والعارفين كما قرره الشيخ، وإنما أنكر علىٰ بغض المتصوفة ما ابتدعوه من أساليب أخرىٰ للسماع كالغناء والمعازف والقصائد الشركية، يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (وَمن الْمَعْلُوم أَنه

(١) أمراض القلوب وشفاؤها (ص٧٣).

لم يكن فِي الْقُرُون الثَّلَاثَة المفضلة الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِي ﷺ خير الْقُرُون قَرْنِي الَّذِي بعثت فِيهِ ثمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ ثمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ لَا فِي الْحجاز وَلَا فِي الشَّام وَلَا فِي الْيمن وَلَا فِي الْعرَاق وَلَا فِي مصر وَلَا فِي خُرَاسَان أحد من أهل الْخَيْر وَالدّين يجْتَمع علىٰ السماع المبتدع لصلاح الْقُلُوب، وَلِهَذَا كرهه الْأَئِمَّة كَالْإِمَامِ أَحْمد وَغَيره وعده الشَّافِعِي من إِحْدَاث الزَّنَادِقَة حِين قَالَ: خلفت بِبَغْدَاد شَيْئا أحدثه الزَّنَادِقَة يسمونه التَّغْبِير يصدون بِهِ النَّاس عَن الْقُرْآن. وَأما مَا لا يَقْصِدهُ الْإِنْسَان من الِاسْتِمَاع فَلَا يَتَرَتَّب عَلَيْهِ نهي وَلَا ذمّ بِاتِّفَاق الأئمة وَلِهَذَا إِنَّمَا يَتَرَتَّب الذَّم والمدح علىٰ الِاسْتِمَاع لَا علىٰ السماع، فالمستمع لِلْقُرْآنِ يُثَاب عَلَيْهِ وَالسَّامِع لَهُ من غير قصد لَا يُثَاب علىٰ ذَلِك، إِذْ الْأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ وَكَذَلِكَ مَا ينْهَىٰ عَن استماعه من الملاهي لَو سَمعه السَّامع بِدُونِ قصد لم يضرّهُ ذَلِك، فَلَو اسْتمع السَّامع بَيْتًا يُنَاسب بعض حَاله تحرّك ساكنه الْمَحْمُود وأزعج قاطنه المحبوب، أَو تمثل بذلك وَنَحْو ذَلِك لم يكن ذَلِك مِمَّا ينْهَىٰ عَنهُ، وَإِن كَانَ الْمَحْمُود الْحسن حَرَكَة قلبه الَّتِي يُحِبهَا الله وَرَسُوله أَو الَّتِي تَتَضَمَّن فعل مَا يُحِبهُ الله وَترك مَا يكرههُ كَالَّذي اجتاز بِبَيْت فَسمع قَائِلًا يَقُول كل يَوْم تتلون غير هَذَا بك أجمل فَأخذ مِنْهُ إِشَارَة تناسب حَاله، فَإِن الإشارة من بَاب الْقيَاس وَالِاعْتِبَار وَضرب الْأَمْثَال وَمَسْأَلَة السماع كَبِيرَة منتشرة قد تكلمنا عَلَيْهَا فِي غير هَذَا الْموضع. وَالْمَقْصُود هَهُنَا أَن الْمَقَاصِد الْمَطْلُوبَة للمريدين تحصل بِالسَّمَاعِ الإيماني القرآني النَّبَوِيّ الديني الشَّرْعِيّ الَّذِي هُوَ سَماع

النَّبيين وَسَمَاع الْعَالمين وَسَمَاع العارفين وَسَماع الْمُؤمنِينَ قَالَ الله تَعَالَىٰ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ إِلَىٰ قَوْله ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ الْآيَة وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الْآيَة وكما مدح المقبلين علىٰ هَذَا السماع فقد ذمّ المعرضين عَنهُ فِي مثل قَوْله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ إِلَىٰ قَوْله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ الْآيَة وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ الْآيَة وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ وَمثل هَذَا كثير فِي الْقُرْآن وَهَذَا كَانَ سَماع سلف الأمة وأكابر مشايخها وأئمتها كالصحابة وَالتَّابِعِينَ وَمن بعدهمْ من الْمَشَايخ كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عِيَاض وَأبي سُلَيْمَان الدراراني ومعروف الْكَرْخِي ويوسف بن أَسْبَاط وَحُذَيْفَة المرعشي وأمثال هَؤُلَاءِ، وَكَانَ عمر بن

الْخطاب يَقُول لأبي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيّ يَا أَبَا مُوسَىٰ ذكرنَا رَبنَا فَيقْرَأ وهم يسمعُونَ ويبكون، وَكَانَ أَصْحَاب مُحَمَّد إِذا اجْتَمعُوا أمروا وَاحِدًا مِنْهُم أَن يقْرَأ الْقُرْآن وَالْبَاقِي يَسْتَمِعُون، وَقد ثَبت فِي الصَّحِيح أَن النَّبِي ﷺ مر بِأبي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيّ وَهُوَ يقْرَأ فَجعل يستمع لقرَاءَته وَقَالَ: لقد أُوتيَ مِزْمَارًا من مَزَامِير آل دَاوُد، وَقَالَ: مَرَرْت بك البارحة وَأَنت تقْرَأ فَجعلت أستمع لقراءتك، فَقَالَ: لَو علمت أَنَّك تسمع لحبرته لَك تحبيرًا أَي لحسنته لَك تحسينًا، وَقَالَ: زَينُوا الْقُرْآن بِأَصْوَاتِكُمْ، وَقَالَ: الله أَشد أذنا إِلَىٰ الرجل الْحسن الصَّوْت بِالْقُرْآنِ من صَاحب الْقَيْنَة إِلَىٰ قَيْنَته، أذنًا أَي استماعًا كَقَوْلِه ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أَي استمعت وَقَالَ ﷺ: **مَا أذن الله لشَيْء مَا أذن لنَبِيّ حسن الصَّوْت يتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ يجْهر بِهِ**، وَقَالَ **لَيْسَ منا من لم يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**، وَلِهَذَا السماع من المواجيد الْعَظِيمَة والأذواق الْكَرِيمَة ومزيد المعارف وَالْأَحْوَال الجسيمة مَا لا يَسعهُ خطاب وَلَا يحويه كتاب كَمَا أَن فِي تدبر الْقُرْآن وتفهمه من مزِيد الْعلم وَالْإِيمَان مَا لا يُحِيط بِهِ بَيَان)[1].

فالتأصيل للصد عن السماع خطأ وقع فيه كثير من الباحثين، بل الشيخ هنا يقرر أن القرآن العظيم يحمل شقين ينبغي الاهتمام بهما:

الشق الأول: المواجيد.

---

(١) أمراض القلوب وشفاؤها (ص٧٣-٧٥).

الشق الثاني: التدبر.

وهذا مقتضىٰ كلامه كما مر معنا آنفًا، وإنما ينكر علىٰ من حرك قلبه ومواجيده بغير الوسائل الشرعية كالتغبير[1] والمعازف وغير ذلك من الوسائل المنكرة.

فما ينقل عن السلف في ذم السماع ينبغي أن يحمل علىٰ ذم السماع الذي ابتدعه بعض المتصوفة ولا ينكر مطلق السماع، وينبغي أيضًا أن لا ينكر علىٰ الأحوال التي يتأثر بها السامع بسماعه الشرعي وقد تقدم معنا هذا، كما أن الأحوال كلما كانت أقرب إلىٰ أحوال السنة والصحابة من صدق التأثر كانت ممدحة، وإذا كانت بعيدة عن هذه الضوابط الشرعية كانت مذمة.

وقد تعرض الشيخ لمسألة السماع بشكل موسع في أكثر من موضع ومن أشهر هذه المواضع ما خطه في كتاب الاستقامة ورد فيه ما تحدث به الشيخ أبو القاسم القشيري وقوّم له مفهوم السماع.

يحقق الشيخ موقف الصوفية من سماع الغناء والحداء والمعازف التي تحرك القلب وتثير الوجد، فيبين لنا أنهم ليسوا علىٰ قياس واحد ولا رتبة واحدة:

- فمنهم من يرىٰ سماع القصائد الملحنة التي تصحبها

---

(1) يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (التغبير هو الضرب بالقضيب، غبر؛ أي أثار غبارًا، وهو آلة من الآلات التي تقرن بتلحين الغناء) انظر الاستقامة (١/٢٣٨).

المعازف هي من أنواع السماع المحمودة لما لها من أثر في النفس، قال بعد أن نقل عن أبي القاسم القشيري ما قاله في هذا المقام من بعض الآثار التي فيها الحداء بين يدي رسول الله ﷺ: «قلت تضمن هَذَا الْكَلَام شَيْئَيْنِ: أَحدهمَا: إِبَاحَة سَماع الألحان والنغمات المستلذة بِشَرْط أَلا يعْتَقد المستمع مَحْظُورًا وَألا يسمع مذمومًا فِي الشَّرْع وَألا يتبع مِنْهُ هَوَاهُ.

وَالثَّانِي: أَن ما أوجد للمستمع الرَّغْبَة فِي الطَّاعَات والاحتراز من الذُّنُوب وتذكر وعد الْحق ووصول الْأَحْوَال الْحَسَنَة إِلَىٰ قلبه فَهُوَ مُسْتَحبّ، وعَلىٰ هَاتين المقدمتين بنىٰ من قَالَ باستحباب ذَلِك مثل أبي عبد الرَّحْمَن السلمىٰ وَأبي حَامِد وَغَيرهمَا)[1].

والذي يتتبع كلام الشيخ ونقوله وتحقيقه يعلم أن ما قصده السلمي وغيره من جواز الاستماع لهذا النوع من السماع، أنه جواز ليس علىٰ الإطلاق، وإنما جوزوه إذا كان ذا أثر علىٰ القلب، فقد قال الشيخ بعد أن ذكر هذا مباشرة: «وفي هؤلاء من قد يوجبه أحيانا إذا رأوا أنه لا يؤدي الواجب إلا به وكذلك يفضلونه علىٰ سماع القرآن إذا رأوا أن ما يحصل بسماع الألحان أكثر مما يحصل بسماع القرآن» وإذا كان من أحسن الكلام ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨].

قَالَ أَبُو الْقَاسِم: اللَّام فِي قَوْله القَوْل تَقْتَضِي التَّعْمِيم

(١) الاستقامة (١/ ٢٣٦).

والاستغراق، وَالدَّلِيل عَلَيْهِ أَنه مدحهم باتباع الْأَحْسَن.

قلت: وَهَذَا يذكرهُ طَائِفَة مِنْهُم أَبُو عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ وَغَيره وَهُوَ غلط باتفاق الْأمة وأئمتها لوجوه)[1]. والذي يؤكد لنا هذا هو أن الشيخ نقل عن الشيخ أبي القاسم أنه نقل عن الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي عن مشايخه ذم الاستماع إلىٰ الملاهي، يقول الشيخ: (قَالَ: سَمِعت الشَّيْخ أَبَا عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ رحمه الله يَقُول: سَمِعت أَبَا الْقَاسِم الدِّمَشْقِي يَقُول: سُئِلَ أبو عَليّ الرُّوذَبَارِي عَمَّن يسمع الملاهي وَيَقُول هِيَ لي حَلَال لِأَنِّي وصلت إِلَىٰ دَرَجَة لَا يُؤثر فِيّ اخْتِلَاف الْأَحْوَال. فَقَالَ: نعم قد وصل لعمري وَلَكِن إِلَىٰ سقر)[2].

يقول الشيخ رحمه الله: (وَالَّذِينَ حَضَرُوا هَذَا السَّمَاعَ مِنْ الْمَشَايِخِ الصَّالِحِينَ شَرَطُوا لَهُ شُرُوطًا لَا تُوجَدُ إلَّا نَادِرًا فَعَامَّةُ هَذِهِ السَّمَّاعَاتِ خَارِجَةٌ عَنْ إجْمَاعِ الْمَشَايِخِ وَمَعَ هَذَا فَأَخْطَئُوا -وَاَللَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ خَطَأَهُمْ فِيمَا خَرَجُوا بِهِ عَنْ السُّنَّةِ- وَإِنْ كَانُوا مَعْذُورِينَ. وَالسَّبَبُ الَّذِي أَخْطَئُوا فِيهِ أَوْقَعَ أُمَمًا كَثِيرَةً فِي الْمُنْكَرِ الَّذِي نَهَوْا)[3].

فعلىٰ هذا لا يصح أن ينسب إلىٰ من قال بجواز السماع من

(١) الاستقامة (١/ ٢١٦).

(٢) الاستقامة (١/ ٣٨٢).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٩٨).

المشايخ، أنهم جوزوه علىٰ الإطلاق، بل وضعوا له شروطًا وضوابط كما ذكر الشيخ.

- ومنهم من غلا فيه ويرىٰ أن الإيمان لا يحصل إلا به، يقول الشيخ: (وَأهل السماع أَيْضًا فيهم من يرىٰ الْإِيمَان لَا يتم إِلَّا بِهِ، وَفِيهِمْ من يَقُول فِي منكره الْأَقْوَال الْعَظِيمَة وَقد يكون يسْعَىٰ فِي قتل منكره . .)[1].

- ومنهم من يرىٰ أنه محرم منكر، وهو قول محققي الصوفية كأمثال الشيخ أبي عبد الله ابن خفيف، نقل عنه الشيخ تقي الدين رحمه الله: (وَنَعْتَقِدُ أَنَّ الْقِرَاءَةَ «الْمُلَحَّنَةَ» بِدْعَةٌ وَضَلَالَةٌ. وَأَنَّ «الْقَصَائِدَ» بِدْعَةٌ. وَمَجْرَاهَا عَلَىٰ قِسْمَيْنِ: فَالْحَسَنُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ ذِكْرِ آلَاءِ اللَّهِ وَنَعْمَائِهِ وَإِظْهَارِ نَعْتِ الصَّالِحِينَ وَصِفَةِ الْمُتَّقِينَ فَذَلِكَ جَائِزٌ وَتَرْكُهُ وَالِاشْتِغَالُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ أَوْلَىٰ بِهِ، وَمَا جَرَىٰ عَلَىٰ وَصْفِ الْمَرْئِيَّاتِ وَنَعْتِ الْمَخْلُوقَاتِ فَاسْتِمَاعُ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ كُفْرٌ، وَاسْتِمَاعُ الْغِنَاءِ والربعيات عَلَىٰ اللَّهِ كُفْرٌ، وَالرَّقْصُ بِالْإِيقَاعِ وَنَعْتُ الرَّقَّاصِينَ عَلَىٰ أَحْكَامِ الدِّينِ فِسْقٌ وَعَلَىٰ أَحْكَامِ التَّوَاجُدِ وَالْغِنَاءِ لَهْوٌ وَلَعِبٌ. وَحَرَامٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يَسْمَعُ الْقَصَائِدَ والربعيات الْمُلَحَّنَةَ -الْجَائِي بَيْنَ أَهْلِ الْأَطْبَاعِ- عَلَىٰ أَحْكَامِ الذِّكْرِ إلَّا لِمَنْ تَقَدَّمَ لَهُ الْعِلْمُ بِأَحْكَامِ التَّوْحِيدِ وَمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يُضَافُ إلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ ذَلِكَ؛ وَمَا لَا يَلِيقُ بِهِ ﷻ مِمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ فَيَكُونُ اسْتِمَاعُهُ

---

(١) الاستقامة (١/ ٢٣٧).

كَمَا قَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ الْآيَةَ.

وَكُلُّ مَنْ جَهِلَ ذَلِكَ وَقَصَدَ اسْتِمَاعَهُ عَلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ غَيْرِ تَفْصِيلِهِ فَهُوَ كُفْرٌ لَا مَحَالَةَ فَكُلُّ مَنْ جَمَعَ الْقَوْلَ وَأَصْغَىٰ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ اللَّهِ فَغَيْرُ جَائِزٍ إِلَّا لِمَنْ عُرِفَ بِمَا وَصَفْت مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَنَعْمَائِهِ وَمَا هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ ﷺ مِمَّا لَيْسَ لِلْمَخْلُوقِينَ فِيهِ نَعْتٌ وَلَا وَصْفٌ؛ بَلْ تَرْكُ ذَلِكَ أَوْلَىٰ وَأَحْوَطُ وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا بِدْعَةٌ وَالْفِتْنَةُ فِيهَا غَيْرُ مَأْمُونَةٍ عَلَىٰ اسْتِمَاعِ الْغِنَاءِ. وَ«الربعيات» بِدْعَةٌ وَذَلِكَ مِمَّا أَنْكَرَهُ المطلبي وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَيَزِيدُ بْنُ هَارُونَ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقُ وَالِاقْتِدَاءُ بِهِمْ أَوْلَىٰ مِنْ الِاقْتِدَاءِ بِمَنْ لَا يُعْرَفُونَ فِي الدِّينِ وَلَا لَهُمْ قَدَمٌ عِنْدَ الْمُخْلَصِينَ. وَبَلَغَنِي أَنَّهُ قِيلَ لِبِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ: إنَّ أَصْحَابَك قَدْ أَحْدَثُوا شَيْئًا يُقَالُ لَهُ الْقَصَائِدُ. قَالَ مِثْلُ أيش؟ قَالَ مِثْلُ قَوْلِهِ: اصْبِرِي يَا نَفْسُ حَتَّىٰ تَسْكُنِي دَارَ الْجَلِيلِ فَقَالَ: حَسَنٌ وَأَيْنَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ذَلِكَ؟ قَالَ قُلْت بِبَغْدَادَ فَقَالَ كَذَبُوا -وَاَللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ غَيْرُهُ- لَا يَسْكُنُ بِبَغْدَادَ مَنْ يَسْتَمِعُ ذَلِكَ)[1].

لذلك كان سماع المتقدمين من مشايخ الطريق هو سماع الصحابة رضوان الله عليهم، يقول الشيخ: (وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إذَا اجْتَمَعُوا أَمَرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ وَالْبَاقِي يَسْتَمِعُونَ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِأَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنهما ذَكِّرْنَا رَبَّنَا. فَيَقْرَأُ وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ (وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه وَهُوَ يَقْرَأُ؛ فَجَعَلَ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٨٥).

يَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِهِ فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَىٰ: مَرَرْت بِك الْبَارِحَةَ فَجَعَلْت أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِك فَقَالَ: لَوْ عَلِمْت لَحَبَّرْتُهُ لَك تَحْبِيرًا وَقَالَ: لَلَّهُ أَشَدُّ أُذُنًا أَيْ اسْتِمَاعًا إلَىٰ الرَّجُلِ يُحْسِنُ الصَّوْتَ بِالْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إلَىٰ قَيْنَتِهِ) . وَهَذَا هُوَ سَمَاعُ الْمُؤْمِنِينَ وَسَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَكَابِرِ الْمَشَايِخِ كَمَعْرُوفِ الْكَرْخِي والْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَنَحْوِهِمْ. وَهُوَ سَمَاعُ الْمَشَايِخِ)[1].

وقال أيضا رَحِمَهُ اللَّهُ: («السَّمَاعُ» الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَمَشَايِخُ الطَّرِيقِ: هُوَ سَمَاعُ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ سَمَاعُ النَّبِيِّينَ وَسَمَاعُ الْعَالِمِينَ وَسَمَاعُ الْعَارِفِينَ وَسَمَاعُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾)[2]. وعلىٰ هذا التحقيق يظهر لنا خطأ من نسب القول إلىٰ جمهور الصوفية بأنهم يرون جواز السماع البدعي، بل إن مشايخ الطريق كما ذكر الشيخ في أكثر من موضع علىٰ خلاف ذلك.

وأما مذهب الجنيد السالك فإن الشيخ تقي الدين حقق أن مذهبه هو إنكار هذا السماع المبتدع، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ أَبُو الْقَاسِم وَحكىٰ جَعْفَر بن نصير عَن الْجُنَيْد أَنه قَالَ: تنزل الرَّحْمَة علىٰ الْفُقَرَاء فِي ثَلَاثَة مَوَاطِن: عِنْد السماع فَإِنَّهُم لَا يسمعُونَ إِلَّا عَن حق وَلَا يقومُونَ إِلَّا عَن وجد، وَعند أكل الطَّعَام فَإِنَّهُم لَا يَأْكُلُون إِلَّا

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٤٢٧).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٨٧).

عَن فاقة، وَعند مجاراة الْعلم فَإِنَّهُم لَا يذكرُونَ إِلَّا صفة الْأَوْلِيَاء.
وَذكر عقيب هَذَا فَقَالَ: سَمِعت مُحَمَّد بن الْحُسَيْن يَقُول سَمِعت الْحُسَيْن بن أَحْمد بن جَعْفَر يَقُول: سَمِعت الْجُنَيْد يَقُول: السماع فتْنَة لمن طلبه، ترويح لمن صادفه وَذكر بعد هَذَا سَمِعت مُحَمَّد بن الْحُسَيْن يَقُول: سَمِعت عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن الرَّازِيّ يَقُول: سَمِعت الْجُنَيْد يَقُول: إِذا رَأَيْت المريد يحب السماع فَاعْلَم أَن فِيهِ بَقِيَّة من البطالة. قلت: فهاتان المقالتان أسندهما عَن جُنَيْد وَأما القَوْل الأول فَلم يسْندهُ بل أرْسلهُ وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ مفسران وَالْقَوْل الأول مُجمل، فَإِن كَانَ الأول مَحْفُوظًا عَن الْجُنَيْد فَهُوَ يحْتَمل السماع الْمَشْرُوع، فَإِن الرَّحْمَة تنزل علىٰ أَهله كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٠٤] فَذكر أَن اسْتِمَاع الْقُرْآن سَبَب الرَّحْمَة ... يبين ذَلِك أَن لفظ السماع يدْخل فِيهِ عِنْدهم السماع الشَّرْعِيّ كسماع الْقُرْآن والخطب الشَّرْعِيَّة والوعظ الشَّرْعِيّ ..)[1].

وقال أيضًا: (وَبِالْجُمْلَةِ فَإِذا كَانَ المسند الْمَحْفُوظ الْمَعْرُوف من قَول الْجُنَيْد أنه رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يحمد هَذَا السماع المبتدع وَلَا يَأْمر بِهِ وَلَا يثني عَلَيْهِ بل الْمَحْفُوظ من أَقْوَاله يُنَافِي ذَلِك لم يجز أَن يعمد إِلَىٰ قَول مُجمل روي عَنهُ بِغَيْر إِسْنَاد فَيحمل علىٰ أَنه مدح هَذَا السماع الْمُحدث. وَقد روىٰ بعض النَّاس أَن الْجُنَيْد كَانَ يحضر هَذَا

(١) الاستقامة (١/ ٣٨٠).

السماع فِي أول عمره ثمَّ تَركه وحضوره لَهُ فعل وَالْفِعْل قد يسْتَدلّ بِهِ علىٰ مَذْهَب الرجل وَقد لَا يسْتَدلّ وَلِهَذَا يُنَازع النَّاس فِي مَذْهَب الْإِنْسَان هَل يُوجد من فعله)[1].

ومذهب الجنيد هو مذهب محققي المشايخ من أهل الطريق والتصوف، يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (الَّذِي عَلَيْهِ محققو الْمَشَايخ أنه كَمَا قَالَ الْجُنَيْد ﷺ: من تكلّف السماع فتن بِهِ وَمن صادفه استراح بِهِ، وَمعنىٰ ذَلِك أَنه لَا يشرع الِاجْتِمَاع لهَذَا السماع الْمُحدث وَلَا يُؤمر بِهِ وَلَا يتَّخذ دينًا وقربة، وَأَن الْقرب والعبادات إِنَّمَا تُؤْخَذ عَن الرُّسُل صلوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِم فَكَمَا أَنه لَا حرَام إِلَّا مَا حرمه الله فَإِنَّهُ لَا دين إِلَّا مَا شَرعه الله)[2].

ثم يفصل الشيخ لنا تفصيلًا بديعًا في تحقيق ما تعارض نقله عن الشيخ الجنيد والشيخ الشبلي في هذه المسألة، فيقول: (قَالَ أَبُو الْقَاسِم: وَسُئِلَ الشبلي عَن السماع. فَقَالَ: ظَاهره فتْنَة وباطنه عِبْرَة فَمن عرف الْإِشَارَة حل لَهُ السماع بالعبرة وَإِلَّا فقد استدعىٰ الْفِتْنَة وَتعرض للبلية قلت: هَذَا القَوْل مُرْسل لم يسْندهُ فَالله أعلم بِهِ فَإِن كَانَ مَحْفُوظًا عَن الشبلي فقد نبهنا علىٰ أن الْأَئِمَّة فِي طَرِيق الْحق الَّذين يعْتد بأقوالهم كَمَا يعْتد بأقوال أَئِمَّة الْهدىٰ هم مثل الْجُنَيْد وَسَهل وَنَحْوهمَا فَإِن أقوالهم صادرة عَن أصل وهم مستهدون فِيهَا.

---

(١) الاستقامة (١/ ٤٠٢).

(٢) أمراض القلوب وشفاؤها (ص٧٣).

وَأما الشبلي وَنَحْوه فَلَابُد من عرض أَقْوَاله وأحواله علىٰ الْحجَّة فَيقبل مِنْهَا مَا وَافق الْحق دون مَا لم يكن كَذَلِك لِأَنَّهُ قد كَانَ يعرض لَهُ زَوَال الْعقل حَتَّىٰ يذهب بِهِ إِلَىٰ المارستان غير مرّة وَقد يخْتَلط اختلاطًا دون ذَلِك.

وَمن كَانَ بِهَذِهِ الْحَال فَلَا تكون أَقْوَاله وأفعاله فِي مثل هَذِه الْأَحْوَال مِمَّا يعْتَمد عَلَيْهَا فِي طَرِيق الْحق، وَلَكِن لَهُ أَقْوَال وأفعال حَسَنَة قد علم حسنها بِالدَّلِيلِ فَتقبل لحسنها فِي نَفسهَا وَإِن كَانَ لَهُ حَال أُخْرَىٰ بِغَيْر عقله أَو اخْتَلَط فِيهَا أَو وَقع مِنْهُ مَا لَا يصلح.

وَمَعْلُوم أَن الْجُنَيْد شَيْخه هُوَ الإِمَام المتبع فِي الطَّرِيق وَقد أخبر أَن السَمَاع فتْنَة لمن طلبه فتقليد الْجُنَيْد فِي ذَلِك أولىٰ من تَقْلِيد الشبلي فِي قَوْله ظَاهره فتْنَة وباطنه عِبْرَة إِذْ الْجُنَيْد أَعلَىٰ وَأفضل وَأجل باتفاق الْمُسلمين وَقد أطلق القَوْل بِأَنَّهُ فتْنَة لطالبه وَهُوَ لَا يُرِيد أَنه فتْنَة فِي الظَّاهِر فَقَط إِذْ من شَأْن الْجُنَيْد أَن يتَكَلَّم علىٰ صَلَاح الْقُلُوب)[1].

وكعادة شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ فإنه لا يترك المسائل دون إنصاف ومنع الاستطالة علىٰ المخالفين، ويسطر لنا كلامًا لو وعاه كل أحد لتجاوزنا كثيرًا من الخلافات والمنازعات التي تقع بين المسلمين، يقول رحمه الله تعالىٰ بعد أن نقل عن أبي طالب المكي ما مفاده أن من أنكر السماع فقد أنكر علىٰ سبعين صديقًا:

---

(١) الاستقامة (١/ ٤٠٢-٤٠٤).

(وَمن الْمَعْلُوم أَن الصديقين الَّذين أباحوا بعض الْمُسكر كَانُوا أسبق من هَؤُلَاءِ وَأكْثر وأكبر، وَكَذَلِكَ الَّذين استحلوا الْمُتْعَة وَالصرْف وَبَعض المطاعم الخبيثة والحشوش، وَالَّذين استحلوا الْقِتَال فِي الْفِتْنَة متأولين معتقدين أَنهم علىٰ الْحق وَغير ذَلِك هم أسبق من هَؤُلَاءِ وَأكْثر وأكبر، فَإِذا نهىٰ عَمَّا نهىٰ الله عَنهُ وَرَسُوله لم يكن لأحد أَن يَقُول هَذَا إِنْكَار علىٰ كَذَا وَكَذَا رجلًا من السَّابِقين وَالتَّابِعِينَ، فَإِن هَذَا الْإِنْكَار كَانَ من نظرائهم وَمن هُوَ فَوْقهم أَو قَرِيبًا مِنْهُم وَعند التَّنَازُع فالمرد إِلَىٰ الله وَرَسُوله، وَلَكِن من ذهب إِلَىٰ القَوْل الْمَرْجُوح ينْتَفع بِهِ فِي عذر المتأولين. فَإِن عَامَّة مَا حرمه الله مثل قتل النَّفس بِغَيْر حق وَمثل الزِّنَا وَالْخمر وَالْميسر وَالْأَمْوَال والأعراض قد اسْتحلَّ بعضَ أَنْوَاعه طوائفُ من الأمة بالتأويل، وَفِي المستحلين قوم من صالحي الْأمة وَأهل الْعلم وَالْإِيمَان مِنْهُم . . .

وَلَكِن وُقُوع مثل هَذَا التَّأْوِيل من الْأَئِمَّة المتبوعين أهل الْعلم وَالْإِيمَان صَار من أَسبَاب المحن والفتنة، فَإِن الَّذين يعظمونهم قد يقتدون بهم فِي ذَلِك وَقد لَا يقفون عِنْد الْحَد الَّذِي انْتهىٰ إِلَيْهِ أُولَئِكَ بل يتعدون ذَلِك وَيزِيدُونَ زيادات لم تصدر من أُولَئِكَ الْأَئِمَّة السَّادة وَالَّذين يعلمُونَ تَحْرِيم جنس ذَلِك الْفِعْل قد يعتدون علىٰ المتأولين بِنَوْع من الذَّم فِيمَا هُوَ مغْفُور لَهُم ويتبعهم آخَرُونَ فيزيدون فِي الذَّم مَا يستَحلُّونَ بِهِ من أَعْرَاض إِخْوَانهمْ وَغير أعراضهم ممَا حرمه الله وَرَسُوله فَهَذَا وَاقع كثيرًا فِي موارد النزاع الَّذِي وَقع فِيهِ خطأ من بعض الْكِبَار.

وَاعْتبر ذَلِك بِمَسْأَلَة السماع الَّتِي تكلمنا فِيهَا ... فَلَمَّا انقرضت الْقُرُون الفاضلة حصل فَتْرَة فِي هَذَا السماع الْمَشْرُوع الَّذِي بِهِ صَلَاح الْقُلُوب وَكَمَال الدّين، وَصَارَ أهل التَّغْيير فِيهِ أحد رجلَيْنِ رجل معرض عَن السماع الْمَشْرُوع وَغير الْمَشْرُوع، وَرجل احْتَاجَ إِلَىٰ سَماع القصائد والأبيات فأحدث سَماع القصائد والأبيات كالتغير، وَكَانَ الأكابر الَّذين حَضَرُوهُ لَهُم من التَّأْوِيل مَا لَهُم فَأَقَامَ الله فِي الْأمة من أنكر ذَلِك كَمَا هُوَ سنة الله فِي هَذِه الْأمة الآمرة بِالْمَعْرُوفِ الناهية عَن الْمُنكر وَهَؤُلَاء المنكرون فيهم المقتصد فِي إِنْكَاره وَمِنْهُم المتأول بِزِيَادَة فِي الْإِنْكَار غير مَشْرُوعَة، كَمَا أحدث أُولَئِكَ مَا لَيْسَ مَشْرُوعًا وَصَارَ علىٰ تَمَادي الأيام يزْدَاد الْمُحدث من السماع ويزداد التَّغْلِيظ فِي أهل الْإِنْكَار، حَتَّىٰ آل الْأَمر من أَنْوَاع الْبدع والضلالات والتفرق والاختلافات إِلَىٰ مَا هُوَ من أعظم القبائح الْمُنْكَرَات الَّتِي لَا يشك فِي عظم إثمها وتحريمها من لَهُ أدنىٰ علم وإيمان ..)[1].

(١) الاستقامة (١/ ٢٩٩-٣٠٥) باختصار.

تصحيح الشيخ لمسألة الكشف

لم أجد عند الشيخ تعريفًا لمعنىٰ الكشف، ولكن يظهر من كلامه حول الكشف أنه ملتزم بتعريف الصوفية المبسط للكشف ويقصد به أن يكشف الله جل وعلا لعبده شيئًا من الغيوب[1].

لا ينكر الشيخ وجود الكشف وأنه قد يحصل للبشر عمومًا، وللمؤمنين خصوصًا، وأنه ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- الكشف النفساني.

٢- الكشف الرحماني أو الملكي.

٣- الكشف الشيطاني.

يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (الوجه الخامس أن يقال: نحن لا ننكر أن النفس يحصل لها نوع من الكشف إما يقظة وإما منامًا بسبب قلة علاقتها مع البدن إما برياضة أو بغيرها وهذا هو الكشف النفساني، لكن قد ثبت أيضًا بالدلائل العقلية مع الشرعية وجود الجن وأنها تخبر الناس بأخبار غائبة عنهم كما للكهان

(١) انظر: حقائق عن التصوف ص(٣٣٨) وربما أطلقوا عليه الفراسة إلا أنهم يشترطون لها صفاء القلب حتىٰ يصل إلىٰ أعلىٰ درجات الفراسة وهي الكشف عن الغيب.

المصروعين وغيرهم، والناس يسمعون من المصروع من أنواع الكلام والأخبار عن الغائبات واللغة الغريبة التي يعلمون باضطرار أنها ليست في قوة ذلك الإنسان، وكذلك أهل العبادات الشيطانية من البراهمة والبخشية ونحوهم من عباد الشركين ومن أشبههم من المنتسبين إلىٰ أهل القبلة كأنواع مَن اليونسية والأحمدية والخالدية والدسوقية وأمثال هؤلاء من أهل العبادات المشركية المخالفة للكتاب والسنة فيسمع منهم حال السماع من أنواع الكلام واللغة الغريبة التي لا يمكن ذلك الشخص أن يتكلم بها ما يعلم أن المتكلم علىٰ لسان غيره أو الملقن له ذلك الكلام غيره لا أن مجرد نفسه فعلت ذلك بدون سبب منفصل من الأرواح، وإذا كان هذا مما شوهد في النفوس الخبيثة وأن كثيرًا من إخباراتها تكون عن إخبار أرواح شيطانية لها فلأن يكون إخبار الأنبياء عن إخبار أرواح الملائكة بطريق الأولىٰ وهم يقولون الشياطين عندنا قوىٰ النفس الخبيثة والملائكة قوىٰ النفس الصالحة، قلنا: قد تقدم أن جمهور المسلمين لا ينكرون وجود هذه القوىٰ كما تقدم ولكن المقصود هنا أنه يعلم وجود أمور منفصلة مغايرة لهذه القوىٰ كالجن المخبرين لكثير من الكهان بكثير من الأخبار وهذا أمر يعلمه بالضرورة كل من باشره أو من أخبره من يحصل له العلم بخبره ونحن قد علمنا ذلك بالاضطرار غير مرة فهذا نوع من المكاشفات والإخبار بالغيب غير النفساني، وأما القسم الثالث وهو ما تخبر به الملائكة فهذا

أشرف الأقسام كما دلت عليه الدلائل الكثيرة السمعية والعقلية)[١].

ويقول رحمه الله تعالىٰ: (وَمَا يَحْصُلُ مِنْ نَوْعِ الْمُكَاشَفَةِ وَالتَّصَرُّفِ «ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ» مَلَكِيٌّ وَنَفْسِيٌّ وَشَيْطَانِيٌّ فَإِنَّ الْمَلَكَ لَهُ قُوَّةٌ وَالنَّفْسَ لَهَا قُوَّةٌ وَالشَّيْطَانَ لَهُ قُوَّةٌ وَقَلْبَ الْمُؤْمِنِ لَهُ قُوَّةٌ. فَمَا كَانَ مِنْ الْمَلَكِ وَمِنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فَهُوَ حَقٌّ وَمَا كَانَ مِنْ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَسَةِ النَّفْسِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَقَدْ اشْتَبَهَ هَذَا بِهَذَا عَلَىٰ طَوَائِفَ كَثِيرَةٍ فَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ بَلْ صَارُوا يَظُنُّونَ فِي مَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ -أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ- أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ)[٢].

وقد ضبط الشيخ لنا ضوابط للتفريق بين الكشف الرحماني والشيطاني، فمنها أن يكون الكشف موافقًا للشريعة غير معارض لها، وهذا من جنس الكشوفات التي كانت تحدث للصالحين والصحابة والتابعين، يقول رحمه الله تعالىٰ: (فصل: فما يلقىٰ لأهل المكاشفات والمخاطبات من المؤمنين هو من جنس ما يكون لأهل القياس والرأي، فلا بد من عرضه علىٰ الكتاب والسنة والإجماع فليس أحد من هؤلاء المشايخ ولا الصديقين معصومًا، فكل من ادعىٰ غناءه عن الرسالة بمكاشفة أو مخاطبة أو عصمة سواء ادعىٰ ذلك لنفسه أو لشيخه فهو من أضل الناس)[٣].

---

(١) الصفدية (١/ ١٨٧).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٦١٣).

(٣) المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ (١/ ٢١٤).

فالشرع هو ميزان الأمور كلها وهو الذي يوزن به صدق الكشف من كذبه، والعقل أيضًا يصدق الكشف أو يكذبه، لذلك أنكر الشيخ رحمه الله علىٰ طوائف من ملاحدة الصوفية الذين ادعوا أنه يحصل لهم من المكاشفات ما يعارض صريح العقل، يقول رحمه الله تعالىٰ: (وَيقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ «الْفُصُوصِ»: «فَالْعَلِيُّ لِنَفْسِهِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لَهُ الْكَمَالُ الَّذِي يَسْتَوْعِبُ بِهِ جَمِيعَ النُّعُوتِ الْوُجُودِيَّةِ وَالنِّسَبِ الْعَدَمِيَّةِ سَوَاءٌ كَانَتْ مَحْمُودَةً عُرْفًا أَوْ عَقْلًا أَوْ شَرْعًا أَوْ مَذْمُومَةً عُرْفًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِمُسَمَّىٰ اللَّهِ خَاصَّةً». وَهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ هَذَا لَا يَنْدَفِعُ عَنْهُمْ التَّنَاقُضُ فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ ذَاكَ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ مَا كَانَ يَقُولُهُ التلمساني: إِنَّهُ ثَبَتَ عِنْدَنَا فِي الْكَشْفِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعَقْلِ. وَيَقُولُونَ: مَنْ أَرَادَ التَّحْقِيقَ -يَعْنِي تَحْقِيقَهُمْ- فَلْيَتْرُكْ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ)[1].

لذلك كان كشف أهل السنة مفارقا لكشف أهل الحلول والاتحاد من الملاحدة، فكشف أهل السنة متسق وشرع الله جل وعلا، ومتسق والعقل السليم الذي أودعه الله فيهم، يقول الشيخ قدس الله روحه:

الْوَجْهُ الْخَامِسُ: إنَّ أَهْلَ الْإِثْبَاتِ لَهُمْ مِنْ الْعَقْلِ الصَّرِيحِ وَالْكَشْفِ الصَّحِيحِ مَا يُوَافِقُ مَاجَاءَ بِهِ النُّصُوصُ، فَهُمْ مَعَ مُوَافَقَةِ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٢٤٣).

الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ يُعَارِضُونَ بِعَقْلِهِمْ عَقْلَ النُّفَاةِ وَبِكَشْفِهِمْ كَشْفَ النُّفَاةِ لَكِنْ عَقْلُهُمْ وَكَشْفُهُمْ هُوَ الصَّحِيحُ، وَلِهَذَا تجِدُهُمْ ثَابِتِينَ فِيهِ وَهُمْ فِي مَزِيدِ عِلْمٍ وَهُدًىٰ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧] وَأُولَئِكَ تَجِدُهُمْ فِي مَزِيدِ حَيْرَةٍ وَضَلَالٍ، وَآخِرُ أَمْرِهِمْ يَنْتَهِي إِلَىٰ الْحَيْرَةِ وَيُعَظِّمُونَ الْحَيْرَةَ، فَإِنَّ آخِرَ مَعْقُولِهِمْ الَّذِي جَعَلُوهُ مِيزَانًا يَزِنُونَ بِهِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ يُوجِبُ الْحَيْرَةَ حَتَّىٰ يَجْعَلُوا الرَّبَّ مَوْجُودًا مَعْدُومًا، ثَابِتًا مَنْفِيًّا، فَيَصِفُونَهُ بِصِفَةِ الْإِثْبَاتِ وَبِصِفَةِ الْعَدَمِ، وَالتَّحْقِيقُ عِنْدَهُمْ جَانِبُ النَّفْيِ، بِأَنَّهُمْ يَصِفُونَهُ بِصِفَاتِ الْمَعْدُومِ وَالْمَوَاتِ، وَآخِرُ كَشْفِهِمْ وَذَوْقِهِمْ وَشُهُودِهِمْ الْحِيرَةُ، وَهَؤُلَاءِ لَابُدَّ لَهُمْ مِنْ إِثْبَاتٍ فَيَجْعَلُونَهُ حَالًّا فِي الْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ يَجْعَلُونَ وُجُودَهُ وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَآخِرُ نَظَرِ الْجَهْمِيَّةِ وَعَقْلِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَيْئًا، وَآخِرُ كَشْفِهِمْ وَعَقْلِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَضَلُّ الْبَشَرِ مَنْ جَعَلَ مِثْلَ هَذَا الْكَشْفِ مِيزَانًا يَزِنُ بِهِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ أَمَّا أَهْلُ الْعَقْلِ الصَّرِيحِ وَالْكَشْفِ الصَّحِيحِ فَهُمْ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مِنْ مَشَايِخِ الْفِقْهِ وَالْعِبَادَةِ الَّذِينَ لَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ لِسَانُ صِدْقٍ وَكُلُّ مَنْ لَهُ فِي الْأُمَّةِ لِسَانُ صِدْقٍ عَامٌّ مِنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ الْمَنْسُوبِينَ إِلَىٰ الْفِقْهِ وَالتَّصَوُّفِ فَإِنَّهُمْ عَلَىٰ الْإِثْبَاتِ لَا عَلَىٰ النَّفْيِ، وَكَلَامُهُمْ فِي ذَلِكَ كَثِيرٌ قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ[1].

---

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٦/ ٦٢٥).

وينقل الشيخ عن الجنيد تقريره والمشايخ لهذا المعنىٰ الذي هو وجوب موافقة الكشف الصحيح وتلازمه مع الإيمان والتقوىٰ فيقول: (وَلِهَذَا لَمَّا ذُكِرَ للجنيد بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّ قَوْمًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَصِلُونَ مِنْ طَرِيقِ الْبِرِّ إِلَىٰ تَرْكِ الْعِبَادَاتِ. فَقَالَ: الزِّنَا وَالسَّرِقَةُ وَشُرْبُ الْخَمْرِ خَيْرٌ مِنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ. وَمَا زَالَ أَئِمَّةُ الدِّينِ وَمَشَايِخُهُ يُعَظِّمُونَ النَّكِيرَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَإِنْ كَانُوا مِنَ الزُّهَّادِ الْعَابِدِينَ وَأَهْلِ الْكَشْفِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الْكَوْنِ وَأَرْبَابِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ فِي الْعُلُومِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ قَدْ يَكُونُ بَعْضُهَا فِي أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَمِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ. وَإِنَّمَا الْفَاصِلُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ؛ الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَىٰ. الَّذِي هُوَ نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. كَمَا قَالَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾)[1]. ويقول الشيخ مقررًا لهذا المفهوم: (وَكُلَّمَا قَوِيَ الْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ قَوِيَ انْكِشَافُ الْأُمُورِ لَهُ؛ وَعَرَفَ حَقَائِقَهَا مِنْ بَوَاطِلِهَا وَكُلَّمَا ضَعُفَ الْإِيمَانُ ضَعُفَ الْكَشْفُ وَذَلِكَ مَثَلُ السِّرَاجِ الْقَوِيِّ وَالسِّرَاجِ الضَّعِيفِ فِي الْبَيْتِ الْمُظْلِمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قَالَ: هُوَ الْمُؤْمِنُ يَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ الْمُطَابِقَةِ لِلْحَقِّ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ فِيهَا بِالْأَثَرِ فَإِذَا سَمِعَ فِيهَا بِالْأَثَرِ كَانَ نُورًا عَلَىٰ نُورٍ)[2].

وهنا مسألة مهمة ينبغي التفطن لها، وقد لا تستسيغها كثير من

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤٣٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ٤٥).

الأدبيات العلمية اليوم، وهي أنه لا يلزم من صدق الكشف أن يكون من ألقي في قلبه الكشف قادرًا علىٰ بيان البينة والدليل علىٰ صدق هذا الكشف، وَأَيْضًا فَإِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ الْكَوْنِيَّةُ قَدْ تَنْكَشِفُ لِلْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ لِقُوَّةِ إيمَانِهِ يَقِينًا وَظَنًّا؛ فَالْأُمُورُ الدِّينِيَّةُ كَشْفُهَا لَهُ أَيْسَرُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ؛ فَإِنَّهُ إلَىٰ كَشْفِهَا أَحْوَجُ فَالْمُؤْمِنُ تَقَعُ فِي قَلْبِهِ أَدِلَّةٌ عَلَىٰ الْأَشْيَاءِ لَا يُمْكِنُهُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا فِي الْغَالِبِ فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يُمْكِنُهُ إبَانَةُ الْمَعَانِي الْقَائِمَةِ بِقَلْبِهِ فَإِذَا تَكَلَّمَ الْكَاذِبُ بَيْنَ يَدَيْ الصَّادِقِ عَرَفَ كَذِبَهُ مِنْ فَحْوَىٰ كَلَامِهِ فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ نَخْوَةُ الْحَيَاءِ الْإِيمَانِيِّ فَتَمْنَعُهُ الْبَيَانَ، وَلَكِنْ هُوَ فِي نَفْسِهِ قَدْ أَخَذَ حِذْرَهُ مِنْهُ وَرُبَّمَا لَوَّحَ أَوْ صَرَّحَ بِهِ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ وَشَفَقَةً عَلَىٰ خَلْقِ اللَّهِ لِيَحْذَرُوا مِنْ رِوَايَتِهِ أَوْ الْعَمَلِ بِهِ. وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْكَشْفِ يُلْقِي اللَّهُ فِي قَلْبِهِ أَنَّ هَذَا الطَّعَامَ حَرَامٌ؛ وَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَافِرٌ؛ أَوْ فَاسِقٌ؛ أَوْ دَيُّوثٌ؛ أَوْ لُوطِيٌّ؛ أَوْ خَمَّارٌ؛ أَوْ مُغَنٍّ؛ أَوْ كَاذِبٌ؛ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ظَاهِرٍ بَلْ بِمَا يُلْقِي اللَّهُ فِي قَلْبِهِ. وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ يُلْقِي فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةً لِشَخْصِ وَأَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ؛ وَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ صَالِحٌ؛ وَهَذَا الطَّعَامَ حَلَالٌ وَهَذَا الْقَوْلَ صِدْقٌ؛ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَبْعَدَ فِي حَقِّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ)[1].

بل إن الشيخ تقي الدين ينقل عن أبي حامد أنه ما ترك طريقة الملاحدة من الفلاسفة إلا بعد أن قذف الله في قلبه نورًا كشف له

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ٤٧).

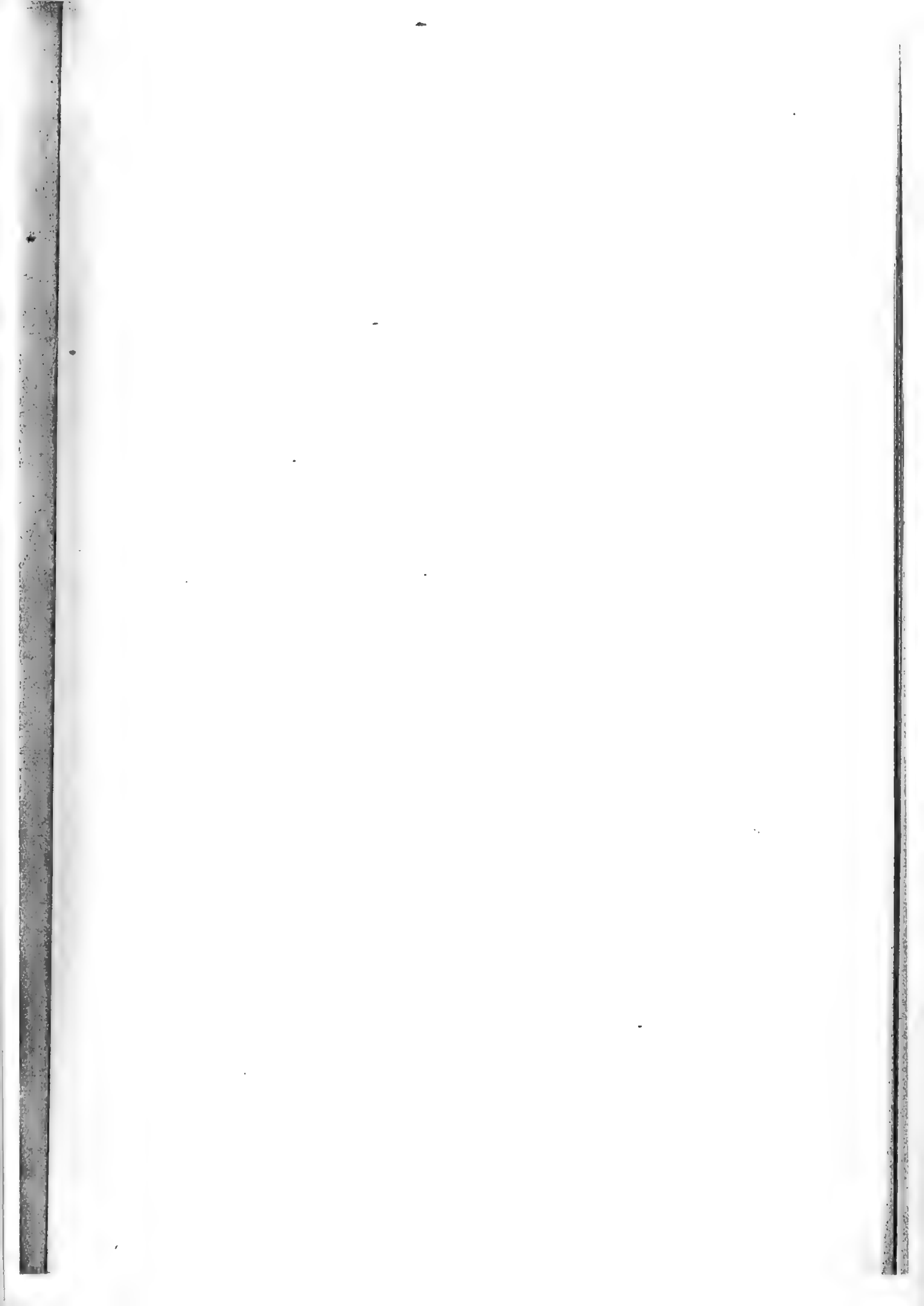
ضلال هذا المسلك، يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (بَلْ أَبُو حَامِدٍ لَمَّا ذَكَرَ فِي الْمُنْقِذِ مِنْ الضَّلَالِ وَالْمُفْصِحِ بِالْأَحْوَالِ أَحْوَالَهُ فِي طُرُقِ الْعِلْمِ وَأَحْوَالِ الْعَالِمِ وَذَكَرَ أَنَّ أَوَّلَ مَا عَرَضَ لَهُ مَا يَعْتَرِضُ طَرِيقَهُمْ -وَهُوَ السَّفْسَطَةُ بِشُبَهِهَا الْمَعْرُوفَةِ- وَذَكَرَ أَنَّهُ أَعْضَلَ بِهِ هَذَا الدَّاءُ قَرِيبًا مِنْ شَهْرَيْنِ؛ هُوَ فِيهِمَا عَلَىٰ مَذْهَبِ السَّفْسَطَةِ بِحُكْمِ الْحَالِ لَا بِحُكْمِ الْمَنْطِقِ وَالْمَقَالِ حَتَّىٰ شَفَىٰ اللَّهُ عَنْهُ ذَلِكَ الْمَرَضَ وَعَادَتْ النَّفْسُ إلَىٰ الصِّحَّةِ وَالِاعْتِدَالِ وَرَجَعَتْ الضَّرُورِيَّاتُ الْعَقْلِيَّةُ مَقْبُولَةً مَوْثُوقًا بِهَا عَلَىٰ أَمْنٍ وَتَبَيُّنٍ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِنَظْمِ دَلِيلٍ وَتَرْتِيبِ كَلَامٍ؛ بَلْ بِنُورِ قَذَفَهُ اللَّهُ فِي الصَّدْرِ وَذَلِكَ النُّورُ هُوَ مِفْتَاحُ أَكْبَرِ الْمَعَارِفِ قَالَ: فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْكَشْفَ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ الْأَدِلَّةِ الْمُجَرَّدَةِ فَقَدْ ضَيَّقَ رَحْمَةَ اللَّهِ الْوَاسِعَةَ . .).

وهذا الذي أصله الشيخ في مسألة الكشف لم يفهمه كثير من متصوفة هذا الزمان، فلما قرأوا في بعض سير الشيخ تقي الدين أنه أقسم بالله أن المسلمين سينتصرون علىٰ التتر، هاجوا وماجوا واستهزءوا من مثل هذا، ولفرط جهل بعضهم قالوا بأن الشيخ يعلم الغيب وغير هذا من الإفك المعروف، وهذا لا يعدو أن يكون نوعًا من الكشف يؤتيه الله من يشاء من عباده.

هذه المفاهيم الثلاثة التي عرضناها لم تكن إلا إضاءة علىٰ بعض جوانب منهج الشيخ في التعامل مع المفاهيم الصوفية، ويتجلىٰ لنا بوضوح أن الطريقة الإقصائية والإجمالية في الرفض ليست هي طريقة الشيخ ولا منهجه أبدًا، بل كان يصحح ما تحمله

من جوانب صحيحة، ويبين أن ما صح منها هو اعتقاد أهل السنة من الصوفية، وما شذ منها فهم ينكرونه أشد إنكار ويرفضونه ويضللون من اتخذه معتقدًا ونسبه إلىٰ التصوف.

وبهذا؛ يتبين لنا خطأ كثير من الباحثين الذين صوروا أن نظرة شيخ الإسلام عن الصوفية والمتصوفة تقوم علىٰ التبديع ابتداء ثم البحث عن المعتدلين منهم، وهذا غلط واضح، وقد سبق معنا أن بينا أن الشيخ يرىٰ الصوفية كما الفقهاء، مدرسة من مدارس الإسلام انشغلت بالتنسك والعبادة والزهد والسلوك.

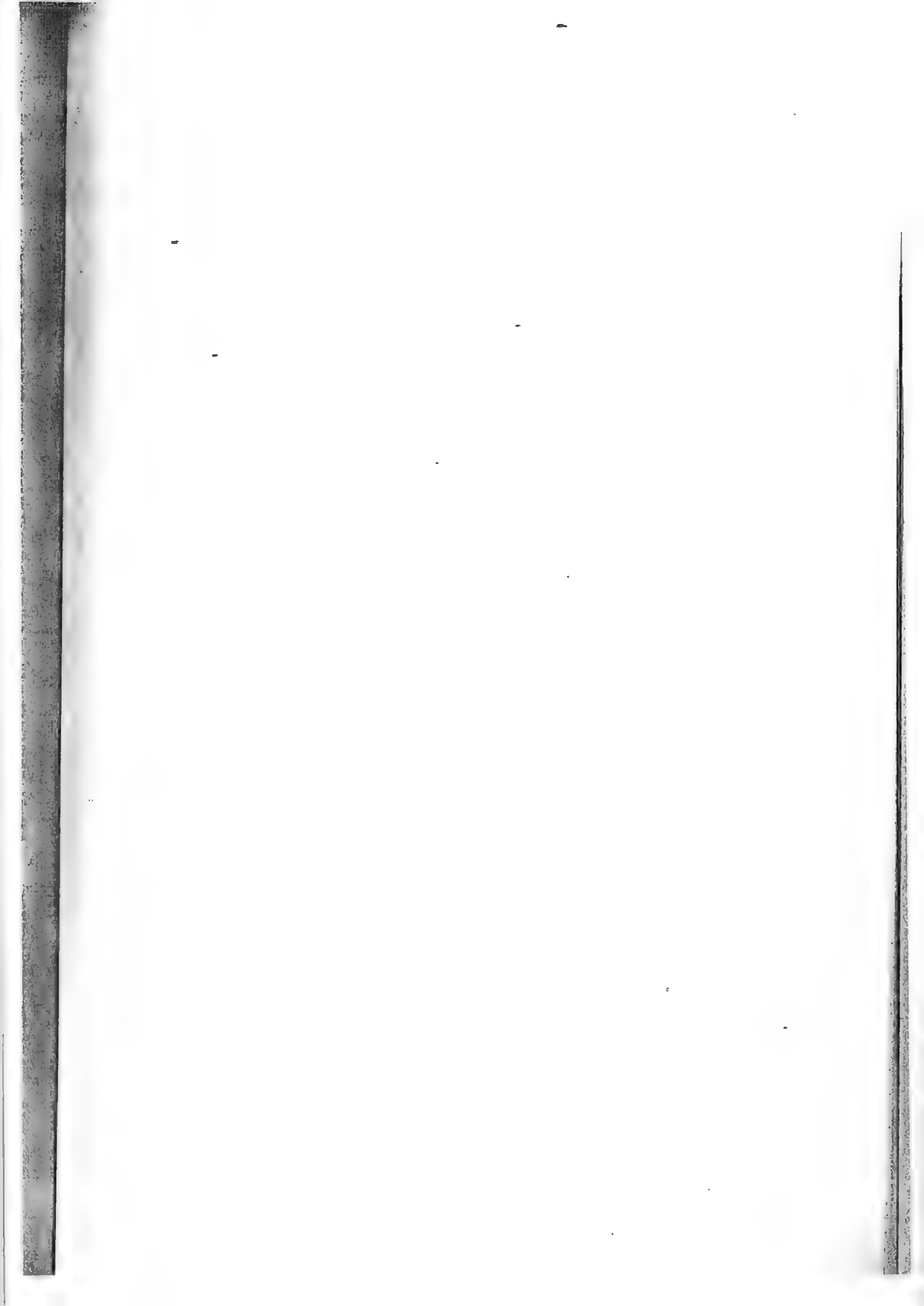


«فَأَمَّا الْمُسْتَقِيمُونَ مِنْ السَّالِكِينَ كَجُمْهُورِ مَشَايِخِ السَّلَفِ: مِثْلِ الْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِي وَالسَّرِيِّ السقطي والْجُنَيْد بْنِ مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَمِثْلِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ وَالشَّيْخِ حَمَّادٍ وَالشَّيْخِ أَبِي الْبَيَانِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ. فَهُمْ لَا يُسَوِّغُونَ لِلسَّالِكِ وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الشَّرْعِيَّيْنِ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ وَيَدَعَ الْمَحْظُورَ إلَى أَنْ يَمُوتَ وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ. وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ»[١].

ابن تيمية قدس الله روحه

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/٥١٧).



نظرة عامة على اهتمام الشيخ بالمصنفات الصوفية

لم يكن الشيخ رحمه الله تعالىٰ ممن يطلق الأحكام القبلية علىٰ المخالفين لمجرد أنهم ينتسبون إلىٰ فرقة أو مذهب ما، بل كان دائم التحقيق والتنقيب والبحث والتمحيص، ويبدأ بحثه دائمًا بحسن الظن والتأويل، فإن لم يجد مخرجًا فيعتذر، فإن لم يجد عذرًا أوقع حكم الشرع ونبه علىٰ أن الله أعلم بالسرائر، وهذا بين واضح لمن أدام النظر في مصنفات الشيخ رحمه الله.

هذا الشعور بوجوب الإنصاف عند الشيخ كان دافعًا له أن يكثر القراءة والتحقق تحت منهجية علمية رصينة، كما هو الحال في جميع بحوث الشيخ الفقهية والعقدية، وهذا البحث هو الذي سيؤثر تأثيرًا قويًا في تطور نظرة الشيخ لشخصية ابن عربي من خلال مطالعته لمصنفات ابن عربي حتىٰ ثبت نهاية علىٰ ما قد أسلفناه سابقًا.

يخبر الشيخ عن نفسه وعن مطالعته لكتب الصوفية من الحلولية والاتحادية منهم فيقول: (وَقَدْ رَأَيْت مِنْهُمْ وَمِنْ كُتُبِهِمْ؛ وَسَمِعْت مِنْهُمْ وَمِمَّنْ يُخْبِرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ)[1].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٦٠).

وهذا بين في كثير من المواضع التي يناقش فيها الشيخ كثيرًا من اعتقادات الفلاسفة ويبين أوجه التشابه بينها وبين ما يذكره ملاحدة الصوفية وغير ذلك، وللشيخ اهتمَام بالغ بالمصنفات الصوفية علىٰ اختلافها في القرب والبعد من منهج أهل السنة والجماعة، وسنستعرض بعض المصنفات التي نظر فيها الشيخ تقي الدين وكيف كان لها الأثر البالغ عليه وفي فكره رحمه الله تعالىٰ.

من الملامح المهمة التي يتعرض لها الشيخ في أثناء عرضه لمصنفات الصوفية، هي كثرة النقول الضعيفة والموضوعة في هذه المصنفات، ويكثر هذا في أثناء حديثه عن مصنفات أبي عبد الرحمن السلمي والقشيري صاحب الرسالة وغيرهما ممن صنفوا في أخبار الزهاد، وكان الشيخ دائم التنبيه علىٰ ذلك في مواضع كثيرة، ويرىٰ الشيخ أن منشأ هذه الأغلاط والنقول التي فيها ما فيها من الضعف هي أن من النساك والعباد من هو متقن ومنهم من هو غير ذلك، يقول الشيخ ﵀ في معرض حديثه عن مرويات أبي عبد الرحمن السلمي: (وَهُوَ فِي نَفْسِهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالدِّينِ وَالصَّلَاحِ وَالْفَضْلِ. وَمَا يَرْوِيه مِنْ الْآثَارِ فِيهِ مِنْ الصَّحِيحِ شَيْءٌ كَثِيرٌ. وَيَرْوِي أَحْيَانًا أَخْبَارًا ضَعِيفَةً بَلْ مَوْضُوعَةً. يَعْلَمُ الْعُلَمَاءُ أَنَّهَا كَذِبٌ. وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ حُفَّاظِ الْحَدِيثِ فِي سَمَاعِهِ. وَكَانَ البيهقي إذَا رَوَىٰ عَنْهُ يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنْ أَصْلِ سَمَاعِهِ. وَمَا يُظَنُّ بِهِ وَبِأَمْثَالِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَمُّدُ الْكَذِبِ لَكِنْ لِعَدَمِ الْحِفْظِ وَالْإِتْقَانِ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ الْخَطَأُ فِي الرِّوَايَةِ؛ فَإِنَّ النُّسَّاكَ وَالْعُبَّادَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُتْقِنٌ فِي

الْحَدِيثِ مِثْلُ ثَابِتٍ البناني والْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ وَأَمْثَالِهِمَا وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ يَقَعُ فِي بَعْضِ حَدِيثِهِ غَلَطٌ. وَضَعْفٌ مِثْلُ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ وَفَرْقَدٍ السبخي وَنَحْوِهِمَا. وَكَذَلِكَ مَا يَأْثُرُهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ بَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الطَّرِيقِ أَوْ يَنْتَصِرُ لَهُ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَحْوَالِ. فِيهِ مِنْ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ شَيْءٌ كَثِيرٌ. وَفِيهِ -أَحْيَانًا- مِنْ الْخَطَأِ أَشْيَاءُ؛ وَبَعْضُ ذَلِكَ يَكُونُ عَنْ اجْتِهَادٍ سَائِغٍ. وَبَعْضُهُ بَاطِلٌ قَطْعًا)[1].

وهذا المنهج مهم جدًا عند وضع المصنفات في ميزان التحقيق، فكثير من الناس يريد من صاحب المصنفات أن يكون محدثًا فقيهًا بارعًا في كل العلوم متقنًا لها أيما إتقان! والذي يعلم قدر الناس والعلماء يعلم أنهم متفاوتون في كثير من الأمور من حيث نشأتهم في بيئة تهتم بالحديث أو لا ، أو أنهم ممن فتح الله عليهم في تلقي الحديث وتعلمه وغير ذلك. أما الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه ينبه علىٰ وزن هذه المرويات ويعتذر لهم، ثم هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر هذا عن أبي حامد رحمه الله تعالىٰ فيقول: (فهؤلاء الذين هم أفضل الخلق من الأولين والآخرين لم يذكرهم أبو حامد وذلك لأن هؤلاء لا يعرف طريقهم إلا من كان خبيرًا بمعاني القرآن خبيرًا بسنة رسول الله ﷺ خبيرًا بآثار الصحابة فقيهًا في ذلك عاملًا بذلك، وهؤلاء هم أفضل الخلق من المنتسبين إلىٰ العلم والعبادة، وأبو حامد لم ينشأ بين من كان يعرف طريقة هؤلاء ولا تلقىٰ عن هذه

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤٢).

الطبقة ولا كان خبيرًا بطريقة الصحابة والتابعين، بل كان يقول عن نفسه إنه مزجي البضاعة في الحديث ولهذا يوجد في كتبه من الأحاديث الموضوعة والحكايات الموضوعة ما لا يعتمد عليه من له علم بالآثار، ولكن نفعه الله تعالىٰ بما وجده في كتب الصوفية والفقهاء من ذلك كتاب أبي طالب ورسالة القشيري وغير ذلك، وبما وجده في كتب أصحاب الشافعي ونحو ذلك فخيار ما يأتي به ما يأخذ من هؤلاء وهؤلاء. ومعلوم أن طريقة أئمة الصوفية وأئمة الفقهاء أكمل من طريقة أبي القاسم القشيري ومن طريقة أبي طالب والحارث ومن طريقة أبي المعالي وأمثاله، وأولئك الأئمة كانوا أعلم بطريقة الصحابة وأتبع لها من أتباعهم، فالقاضي أبو بكر الباقلاني وأمثاله أعلم بالأصول والسنة وأتبع لها من أبي المعالي وأمثاله، والأشعري والقلانسي ونحوهما أعلىٰ طبقة في ذلك من القاضي أبي بكر وعبد الله بن سعيد بن كلاب، والحارث المحاسبي أعلىٰ طبقة في ذلك من هؤلاء، ومالك والأوزاعي وحماد بن زيد والليث بن سعد وأمثالهم أعلىٰ طبقة من هؤلاء، والتابعون أعلىٰ من هؤلاء، والصحابة أعلىٰ من التابعين. وكذلك أبو طالب المكي يأخذ عن شيخه ابن سالم، وابن سالم يأخذ عن سهل بن عبد الله التستري، وسهل أعلىٰ درجة عند الناس من أبي طالب ثم الفضل وأبو سليمان وأمثالهما أعلىٰ درجة من سهل وأمثاله، وأيوب السختياني وعبد الله بن عون ويونس بن عبيد وغيرهم من أصحاب الحسن أعلىٰ طبقة من هؤلاء، وأويس

القرني وعامر بن عبد قيس وأبو مسلم الخولاني وأمثالهم أعلىٰ طبقة من هؤلاء، وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي وأبو الدرداء وأمثالهم أعلىٰ طبقة من هؤلاء)[1].

فهذا المنهج الذي يتبعه الشيخ في الحكم علىٰ المرويات التي وردت في كتب الصوفية هو النظر إلىٰ معرفة المصنف بالسنة وعلومها، ولا يحمله أكثر من طاقته، فأنت ترىٰ هنا اعتذاره للشيخ أبي حامد كونه نشأ في بيئة ليست علىٰ اهتمام بالسنة وطريقة أهل الأثر، وهذا المنهج هو الذي دفع الشيخ لتفضيل قوت القلوب وأبي طالب المكي علىٰ إحياء علوم الدين وأبي حامد، لأن أبا طالب المكي أعلم بالحديث والأثر من أبي حامد، يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: «أما (كِتَابُ قُوتِ الْقُلُوبِ) و(كِتَابُ الْإِحْيَاءِ) تَبَعٌ لَهُ فِيمَا يَذْكُرُهُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ: مِثْلُ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَالْحُبِّ وَالتَّوَكُّلِ وَالتَّوْحِيدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَأَبُو طَالِبٍ أَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ، وَالْأَثَرِ وَكَلَامِ أَهْلِ عُلُومِ الْقُلُوبِ مِنْ الصُّوفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ، وَكَلَامُهُ أَسَدُّ وَأَجْوَدُ تَحْقِيقًا وَأَبْعَدُ عَنْ الْبِدْعَةِ مَعَ أَنَّ فِي «قُوتِ الْقُلُوبِ» أَحَادِيثَ ضَعِيفَةً وَمَوْضُوعَةً وَأَشْيَاءَ كَثِيرَةً مَرْدُودَةً. وَأَمَّا مَا فِي (الْإِحْيَاءِ) مِنْ الْكَلَامِ فِي «الْمُهْلِكَاتِ» مِثْلُ الْكَلَامِ عَلَىٰ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَغَالِبُهُ مَنْقُولٌ مِنْ كَلَامِ الْحَارِثِ الْمُحَاسَبِيِّ فِي الرِّعَايَةِ وَمِنْهُ مَا هُوَ مَقْبُولٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مَرْدُودٌ

(١) شرح العقيدة الأصفهانية (ص١٨٠).

وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَنَازَعٌ فِيهِ. وَ«الْإِحْيَاءُ» فِيهِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ؛ لَكِنْ فِيهِ مَوَادُّ مَذْمُومَةٌ فَإِنَّهُ فِيهِ مَوَادُّ فَاسِدَةٌ مِنْ كَلَامِ الْفَلَاسِفَةِ تَتَعَلَّقُ بِالتَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ فَإِذَا ذَكَرَ مَعَارِفَ الصُّوفِيَّةِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَخَذَ عَدُوًّا لِلْمُسْلِمِينَ أَلْبَسَهُ ثِيَابَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَدْ أَنْكَرَ أَئِمَّةُ الدِّينِ عَلَىٰ «أَبِي حَامِدٍ» هَذَا فِي كُتُبِهِ. وَقَالُوا: مَرَّضَهُ «الشِّفَاءُ» يَعْنِي شِفَاءَ ابْنِ سِينَا فِي الْفَلْسَفَةِ. وَفِيهِ أَحَادِيثُ وَآثَارٌ ضَعِيفَةٌ؛ بَلْ مَوْضُوعَةٌ كَثِيرَةٌ. وَفِيهِ أَشْيَاءُ مِنْ أَغَالِيطِ الصُّوفِيَّةِ وَتُرَّهَاتِهِمْ) ومع هذا الذي ذكره الشيخ من مآخذ علىٰ الإحياء، إلا أنه نظر بعين الإنصاف والتجرد وذكر ما فيه من محاسن فقال: (وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْمَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ الْعَارِفِينَ الْمُسْتَقِيمِينَ فِي أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الْمُوَافِقِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمِنْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَاتِ وَالْأَدَبِ مَا هُوَ مُوَافِقٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِمَّا يَرِدُ مِنْهُ فَلِهَذَا اخْتَلَفَ فِيهِ اجْتِهَادُ النَّاسِ وَتَنَازَعُوا فِيهِ)[١].

ويتبين لنا هنا أن الشيخ لم يكن ليعرض عن مصنفات الزهاد والعباد بالكلية، بل كان متسقًا مع منهجيته في الحكم علىٰ المصنفات والمصنفين، وهي طريقة أهل العلم من أهل التحقيق والفقه.

ولنلقي الضوء أكثر علىٰ منهج الشيخ العلمي في تعاطيه مع المصنفات، لابد لنا أن ننظر إلىٰ تعاطيه مع مصنفات ابن عربي

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٥٥١).

كونه يمثل الشخصية الأكثر جدلية في تعاطي ابن تيمية مع الملف الصوفي.

سبق معنا أن الشيخ قد بدأ رحلته مع كتب ابن عربي واستحسن كثيرًا من كلامه في كتبه ومصنفاته وقد ذكر ذلك في رسالته إلىٰ أبي الفتح نصر المنبجي حيث قال: (وَإِنَّمَا كُنْت قَدِيمًا مِمَّنْ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِابْنِ عَرَبِيٍّ وَيُعَظِّمُهُ: لِمَا رَأَيْت فِي كُتُبِهِ مِنْ الْفَوَائِدِ مِثْلِ كَلَامِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ «الْفُتُوحَاتِ» «والكنة» «وَالْمُحْكَمِ الْمَرْبُوطِ» «وَالدُّرَّةِ الْفَاخِرَةِ» «وَمَطَالِعِ النُّجُومِ» وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَلَمْ نَكُنْ بَعْدُ اطَّلَعْنَا عَلَىٰ حَقِيقَةِ مَقْصُودِهِ وَلَمْ نُطَالِعِ الْفُصُوصَ وَنَحْوَهُ وَكُنَّا نَجْتَمِعُ مَعَ إخْوَانِنَا فِي اللَّهِ نَطْلُبُ الْحَقَّ وَنَتَّبِعُهُ وَنَكْشِفُ حَقِيقَةَ الطَّرِيقِ فَلَمَّا تَبَيَّنَ الْأَمْرُ عَرَفْنَا نَحْنُ مَا يَجِبُ عَلَيْنَا. فَلَمَّا قَدِمَ مِنْ الْمَشْرِقِ مَشَايِخُ مُعْتَبَرُونَ وَسَأَلُوا عَنْ حَقِيقَةِ الطَّرِيقَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَحَقِيقَةِ حَالِ هَؤُلَاءِ: وَجَبَ الْبَيَانُ. وَكَذَلِكَ كَتَبَ إلَيْنَا مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ: رِجَالٌ سَالِكُونَ أَهْلُ صِدْقٍ وَطَلَبَ أَنْ أَذْكُرَ النُّكَتَ الْجَامِعَةَ لِحَقِيقَةِ مَقْصُودِهِمْ)[1].

فكأن الشيخ يبين أن مطالعته للفصوص أفصحت عما كان في غيره من المصنفات كالفتوحات ومطالع النجوم، وهو كذلك لا يتفرد في طعنه في هذه الكتب بل ينقل عن بعض من عاينه من الشيوخ قوله: (إنَّهُ كَانَ كَذَّابًا مُفْتَرِيًا وَفِي كُتُبِهِ -مِثْلِ الْفُتُوحَاتِ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٤٦٤).

الْمَكِّيَّةِ وَأَمْثَالِهَا- مِنْ الْأَكَاذِيبِ مَا لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ لَبِيبٍ)[1]، والشيخ قد تعرض لكثير من نقولات ابن عربي بالنقد والتمحيص وأوسع في رد-أباطيل الاتحادية وغيرهم ونقل عنهم النقول وردها ومحصها أيما تمحيص، ما يدل علىٰ سعة اطلاع منه علىٰ مصنفاتهم.

ومن المصنفات التي تعرض لها الشيخ رحمه الله، وكانت ذات أثر بالغ في كتاباته هي مصنفات الشيخ عبد القادر الجيلاني، فإن الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالىٰ قد شرح بعض عبارات الشيخ عبد القادر في كتابه فتوح الغيب، وفصلها وعلق عليها، وتعرضه لكتاب فتوح الغيب له دلالة عميقة فالكتاب هذا يمثل مقالات الشيخ التي وجهها لمريديه، فكأن بالشيخ تقي الدين يرشد إلىٰ هذا الكتاب للوقوف علىٰ حقيقة مفارقة ما كان عليه الشيخ عبد القادر لما عليه ملاحدة الصوفية اليوم.

والذي له عناية بكتب الشيخ تقي الدين يجد أيضًا أنه من الملاحظ اعتناء الشيخ بكتب أبي حامد وتقويمه لها والتعليق علىٰ كثير منها والاعتذار له في مواضع، والإنكار عليه في أخرىٰ، والاستشهاد بكلامه في مواضع أيضًا.

هذا الاهتمام الفكري منه رحمه الله بالتراث الصوفي ومحاولة تقويمه وإزالة الشوائب عنه سينقلنا إلىٰ النظر في شخصيته وكيف أثر ذلك فيه حتىٰ يظهر لنا في ثوبه الصوفي، الصوفي المتمسك بالكتاب والسنة والبعيد عن الشرك والبدعة.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ١٣١).

ابن تيمية الصوفي

أبرز المعالم .. الزهد:

لا شك أن متلازمة الزهد والصوفي هي متلازمة ظاهرة جدًا، لا يعني هذا أنها منتفية في غيره، ولكنها علىٰ الأقل بادية فيه سواء كانت متصنعة أو أصلية فيه، هذه الصفة التي هي أبرز المعالم وأمها في التصوف كانت أبدىٰ ما تكون في حياة الشيخ رحمه الله تعالىٰ، وقد ظهر هذا الزهد والالتفات عن الدنيا مبكرًا جدًا في حياته ﷺ، فيذكر عمر البزار سراج الدين الإزجي رحمه الله تعالىٰ فيقول: (أما زهده فِي الدُّنْيَا ومتاعها فَإِن الله تَعَالَىٰ جعل ذَلِك لَهُ شعارا من صغره حَدثنِي من أثق بِهِ عَن شَيْخه الَّذِي علمه الْقُرْآن الْمجِيد قَالَ: قَالَ لي أَبوهُ وَهُوَ صبي يَعْنِي الشَّيْخ: أحب إليك أن توصيه وتعده بأنك إِن لم تَنْقَطِع عَن القراءة والتلقين أَدْفَعْ إليك كل شهر أَرْبَعِينَ درهمًا، قَالَ: وَدفع إِلَيّ أَرْبَعِين درهمًا. وَقَالَ: أعْطه إِيَّاهَا فَإِنَّهُ صَغِير وَرُبمَا يفرح بهَا فَيَزْدَاد حرصه فِي الِاشْتِغَال بِحِفْظ الْقُرْآن ودرسه. وَقل لَهُ: لَك فِي كل شهر مثلهَا فَامْتنعَ من قبُولهَا وَقَالَ: يَا سَيِّدي إِنِّي عَاهَدت الله تَعَالَىٰ أن لَا آخذ علىٰ الْقُرْآن أجرًا وَلم يَأْخُذهَا. فَرَأَيْت أن هَذَا لَا يَقع من صبي إِلَّا لما لله فِيهِ من

الْعِنَايَة. قلت: وَصدق شَيْخه فَإِن عناية الله هِيَ الَّتِي أوصلته إِلىٰ مَا وصل من كل خير من صغيره لَا من كبر)[1].

هذا الخلق المغروس في جنبات قلبه لن ينزع حتىٰ مماته وسيكون مشهودًا عليه بين الناس (بل لَو سُئِلَ عَامي من أهل بلد بعيد من الشَّيْخ من كَانَ أزهد أهل هَذَا الْعَصْر وأكملهم فِي رفض فضول الدُّنْيَا وأحرصهم علىٰ طلب الآخرة لقَالَ مَا سَمِعت بِمثل ابْن تَيْمِية رَحْمَة الله عَلَيْهِ)[2].

وهذا الزهد لم يكن إلا نتاج صدقه مع الله جل وعلا في سره وعلنه، وسيأتي معنا بيان ذلك في أحواله، والمقصود أن هذا الزهد إنما كان ناشئًا عن رضا لا عن تصنع، فلم يكن يطلب شيئًا من أمور الدنيا طعامًا كان أو شرابًا، ولا حتىٰ كان يطلب من أهله لباسًا (وَهَكَذَا كَانَ فِي لِبَاسه لم يسمع أنه أمر أن يتَّخذ لَهُ ثوب بِعَيْنِه بل كَانَ أَهله يأْتونَ بلباسه وَقت علمهمْ باحتياجه إِلىٰ بدل ثِيَابه الَّتِي عَلَيْهِ وَرُبمَا بقيت عَلَيْهِ مُدَّة حَتَّىٰ تتسخ وَلَا يَأْمر بغسلها حَتَّىٰ يكون أَهله هم الَّذين يسألونه ذَلِك)[3].

وهذا الزهد كان باديًا عليه في كل أحواله ورسومه، يصفه الذهبي فيقول: (وهو فقير لا مال له، وملبوسه كأحد الفقهاء فرجية ودلق وعمامة تكون قيمة ثلاثين درهما ومداس ضعيف الثمن وشعره

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٤٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (ص٥٤).

مقصوص وعليه مهابة وشنبه يسير، ولحيته مستديرة ولونه أبيض حنطي اللونِ، وهو ربع القامة ما بين المنكبين)[١].

وأنت ترىٰ أن الشيخ لو أراد أن يدخل علىٰ الملوك ويأخذ من الدنيا ما شاء من ذهب وورق لفعل، لكنه آثر الآخرة وسعىٰ لها سعيها، وهذا كان سببًا لكثير من الحسد والبغضاء من المتفقهة تجاهه.

يصف سراج الدين الأزجي هيئة لباس الشيخ فيقول: (كَانَ ﵁ متوسطًا فِي لِبَاسه وهيئته لَا يلبس فاخر الثِّيَاب بِحَيْثُ يرمق ويمد النّظر إِلَيْهِ وَلَا أطمارًا وَلَا غَلِيظَة تشهر حَال لَابسها ويميز من عَامَّة النَّاس بِصفة خَاصَّة يرَاهُ النَّاس فِيهَا من عَالم وعابد، بل كَانَ لِبَاسه وهيئته كغالب النَّاس ومتوسطهم وَلم يكن يلْزم نوعًا وَاحِدًا من اللبَاس فَلَا يلبس غَيره بل كَانَ يلبس مَا اتّفق وَحصل، وَيَأْكُل مَا حضر، وَكَانَت بذاذة الإيمان عَلَيْهِ ظَاهِرَة لَا يرىٰ متصنعًا فِي عِمَامَة وَلَا لِبَاس وَلَا مشْيَة وَلَا قيام وَلَا جُلُوس وَلَا يتهيأ لأحد يلقاه وَلَا لمن يرد عَلَيْهِ من بلد)[٢].

وهذا التواضع والانسلاخ عن الدنيا وإعراضه عن ترفها، كان موافقًا لنظرته ﵁ عن هذه الدنيا الدنية، فهو لا يراها ذا بال أصلًا، ولا ينبغي علىٰ العارف بالله أن يلتفت إليها بحال، يقول

(١) الدرة اليتيمة في السيرة التيمية (ص١٢٠).

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٥٣).

الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (وَأَمَّا الدُّنْيَا فَأَمْرُهَا حَقِيرٌ وَكَبِيرُهَا صَغِيرٌ. وَغَايَةُ أَمْرِهَا يَعُودُ إِلَىٰ الرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ. وَغَايَةُ ذِي الرِّيَاسَةِ أَنْ يَكُونَ كَفِرْعَوْنَ الَّذِي أَغْرَقَهُ اللَّهُ فِي الْيَمِّ انْتِقَامًا مِنْهُ. وَغَايَةُ ذِي الْمَالِ أَنْ يَكُونَ كقارون الَّذِي خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. لَمَّا آذَىٰ نَبِيَّ اللَّهِ مُوسَىٰ. وَهَذِهِ وَصَايَا الْمَسِيحِ وَمَنْ قَبْلَهُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ كُلُّهَا تَأْمُرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَالتَّجَرُّدِ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الدُّنْيَا خَسِيسًا رَأَيْت أَنَّ أَعْظَمَ مَا يُهْدَىٰ لِعَظِيمِ قَوْمِهِ الْمُفَاتَحَةُ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ: بِالْمُذَاكَرَةِ فِيمَا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللَّهِ. وَالْكَلَامُ فِي الْفُرُوعِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الْأُصُول)[1].

فكان الزهد هو شعاره رحمه الله تعالىٰ وقد قال في حضرة السلطان الناصر محمد بصوت عال ونفس مطمئنة لما وشي به واتهم بأنه أراد أخذ الملك: (أَنا أفعل ذَلِك؟ وَالله إِن ملكك وَملك الْمغل لَا يُسَاوِي عِنْدِي فلسين. فَتَبَسَّمَ السُّلْطَان لذَلِك وأجابه فِي مُقَابلَته بِمَا أوقع الله لَهُ فِي قلبه من الهيبة الْعَظِيمَة إِنَّك وَالله لصَادِق وَإِن الَّذِي وَشَىٰ بك إِلَيّ كَاذِب)[2].

ولهذا فتح الله عليه من الفتوح والأنوار ما لم يفتحه علىٰ أحد من أهل زمانه.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/٦١٦).

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٧٣).

ولا يظن ظان أن هذا إنما كان لقلة يد الشيخ، وأنه لما لم يحصّل الدنيا أعرض عنها، بل إن الشيخ كانت تأتيه من الهبات الكثير ولكنه يأبىٰ أن يجعل في قلبه حظًا لها، يقول الحافظ ابن فضل الله العمري: (كانت تأتيه -الشيخ تقي الدين- القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، فيهب ذلك بأجمعه ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه، لا يأخذ منه شيئًا إلا ليهبه، ولا يحفظه إلا ليذهبه)

وهذا الزهد والتواضع لم يكن تصنعًا منه رحمه الله كحال متصوفة اليوم، يقول الذهبي رحمه الله: (وربما قام لمن يجيء من سفرٍ أو غاب عنه، وإذا جاء فربما يقومون له، والكل عنده سواء؛ فإنه فارغ من هذه الرسوم، ولم ينحن لأحدٍ قط، وإنما يُسَلِّم ويُصافح ويبتسم، وقد يُعظِّم جليسه مرة، ويهينه في المحاورة مرات)[1]، هذا الزهد والإخلاص والتجرد من كل تصنع، هو الذي ولد أحواله رحمه الله تعالىٰ.

- **الأحوال الربانية:**

يعتري السالكَ والعبادَ أحوالٌ مختلفة تختلف باختلاف عوامل كثيرة، وهذه الأحوال كانت كثيرًا ما تظهر عند زهاد وعباد السلف، فمنهم من يصعق عند سماع آية ومنهم من أغشي عليه ومنهم من قرأ آية فمات علىٰ إثرها، وهذا التأثر بهذه العبادات كان ذا أثر بارز

(١) نقلًا عن معجم أصحاب ابن تيمية (ص٢٥).

عند الصوفية، وهي إما أحوال رحمانية أو شيطانية، فإما أن يصيب المؤمن حال سماعه لكلام الله أو ذكره إياه التأثر والوجل المحمود، أو السكر وزوال العقل الذي يؤدي إلىٰ قول مذموم.

وللشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفصيل يوضح موقفه من الأحوال التي تطرأ علىٰ المؤمن حال العبادة والذكر والسماع فيقول: (وَمَا يَحْصُلُ عِنْدَ السَّمَاعِ وَالذِّكْرِ الْمَشْرُوعِ مِنْ وَجَلِ الْقَلْبِ وَدَمْعِ الْعَيْنِ وَاقْشِعْرَارِ الْجُسُومِ فَهَذَا أَفْضَلُ الْأَحْوَالِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ. وَأَمَّا الِاضْطِرَابُ الشَّدِيدُ وَالْغَشْيُ وَالْمَوْتُ وَالصَّيْحَاتُ فَهَذَا إنْ كَانَ صَاحِبُهُ مَغْلُوبًا عَلَيْهِ لَمْ يُلَمْ عَلَيْهِ كَمَا قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فَإِنَّ مَنْشَأَهُ قُوَّةُ الْوَارِدِ عَلَىٰ الْقَلْبِ مَعَ ضَعْفِ الْقَلْبِ، وَالْقُوَّةُ وَالتَّمَكُّنُ أَفْضَلُ كَمَا هُوَ حَالُ النَّبِيِّ ﷺ وَالصَّحَابَةِ وَأَمَّا السُّكُونُ قَسْوَةً وَجَفَاءً فَهَذَا مَذْمُومٌ لَا خَيْرَ فِيهِ)[1].

إذن، فلا مناص من الأحوال التي تعتري المؤمن في سماعه وذكره، إلا أنها إما أن تكون أحوالًا ترضي شرع الرب أو تسخطه.

ولنا أن نسأل كيف كانت أحوال الشيخ رحمه الله تعالىٰ في عبادته وتنسكه وسيره علىٰ طريق الله للوصول إلىٰ مقام الشهود؟

لا شك أن أحواله كانت أحوالًا ربانية، كيف لا وهو لم يعش إلا لرفع وإعلاء مقام الاتباع، والتحذير من الابتداع!

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٥٢٢).

• حال الشيخ مع التوحيد:

وهي أم المسائل التي ما فتئ الشيخ ينبه عليها ويصححها عند الناس، وسطر فيها ما شاء الله له أن يسطر من نفائس ودرر تعبر عن قوة الصلة بينه وبين هذه الكلمة «لا إله إلا الله»، وتبين هذه الكلمات أنها كانت مغروسة فيه غرسًا أصيلًا متمكنًا، وأنها خالطت بشاشة قلبه مخالطة تؤنس صاحبها أي إيناس، وتصلح قلبه وترفعه إلىٰ أعلىٰ المقامات.

وأتركك مع كلمات عذبة سطرها الشيخ تقي الدين في تبيين جماليات مقام العبودية والتوحيد لرب العالمين، يقول قدس الله سره وروحه: (وَلَكِن بعد ذَلِك الْفرق الثَّانِي وَهُوَ أَن يشْهد أَن الْمَخْلُوقَات قَائِمَة بِاللَّه مدبرة بِأَمْرِه وَيشْهد كثرتها مَعْدُومَة بوحدانية الله ﷻ وَأَنه سُبْحَانَهُ رب المصنوعات وإلهها وخالقها ومالكها فَيكون -مَعَ اجْتِمَاع قلبه علىٰ الله إخلاصًا ومحبة وخوفًا ورجاء واستعانة وتوكلًا علىٰ الله وموالاة فِيهِ ومعاداة فِيهِ وأمثال ذَلِك- نَاظرًا إِلَىٰ الْفرق بَين الْخَالِق والمخلوق مُمَيِّزًا بَين هَذَا وَهَذَا يشْهد تفرق الْمَخْلُوقَات وَكَثْرَتهَا مَعَ شَهَادَته أَن الله رب كل شَيْء ومليكه وخالقه وَأَنه هُوَ الله لَا إِلَه إِلَّا هُوَ. وَهَذَا هُوَ الشُّهُود الصَّحِيح الْمُسْتَقيم وَذَلِكَ وَاجِب فِي علم الْقلب وشهادته وَذكره ومعرفته وَفِي حَال الْقلب وعبادته وقصده وإرادته ومحبته وموالاته وطاعته.

وَذَلِكَ تَحْقِيق شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله فَإِنَّهَا تَنْفِي عَن قلبه

ألوهية مَا سوىٰ الْحق وَتثبت فِي قلبه ألوهية الْحق.

فَيكون نافيًا لألوهية كل شَيْء من الْمَخْلُوقَات مثبتًا لألوهية رب الْعَالمين وَرب الأَرْض وَالسَّمَاوَات وَذَلِكَ يتَضَمَّن اجْتِمَاع الْقلب علىٰ الله وعَلىٰ مُفَارقَة مَا سواهُ فَيكون مفرقًا فِي علمه وقصده فِي شَهَادَته وإرادته فِي مَعْرفَته ومحبته بَين الْخَالِق والمخلوق، بِحَيْثُ يكون عَالمًا بِاللَّه تَعَالَىٰ ذَاكِرًا لَهُ عَارِفًا بِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِك عَالم بمباينته لخلقه وانفراده عَنْهُم وتوحده دونهم وَيكون محبًا لله مُعظمًا لَهُ عابدًا لَهُ راجيًا لَهُ خَائفًا مِنْهُ محبًا فِيهِ مواليًا فِيهِ معاديًا فِيهِ مستعينًا بِهِ متوكلًا عَلَيْهِ مُمْتَنعًا عَن عبَادَة غَيره والتوكل عَلَيْهِ والاستعانة بِهِ وَالْخَوْف مِنْهُ والرجاء لَهُ والموالاة فِيهِ والمعاداة فِيهِ وَالطَّاعَة لأَمره وأمثال ذَلِك مِمَّا هُوَ من خَصَائِص إلهية الله ﷻ.

وَإِقْرَاره بإلوهية الله تَعَالَىٰ دون مَا سواهُ يتَضَمَّن إِقْرَاره بربوبيته وَهُوَ أَنه رب كل شَيْء ومليكه وخالقه ومدبره فَحِينَئِذٍ يكون موحدا لله. وَيبين ذَلِك أَن أفضل الذّكر لَا إِلَه إِلَّا الله كَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن أبي الدُّنْيَا وَغَيرهمَا مَرْفُوعًا إِلَىٰ النَّبِي ﷺ أَنه قَالَ: «**أفضل الذّكر لَا إِلَه إِلَّا الله وَأفضل الدُّعَاء الْحَمد الله**». وَفِي «الْمُوَطَّأ» وَغَيره عَن طَلْحَة بن عبيد الله بن كريز أَن النَّبِي ﷺ قَالَ: «**أفضل مَا قلت أَنا والنبيون من قبلي: لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ، لَهُ الْملك وَله الْحَمد، وَهُوَ علىٰ كل شَيْء قدير**»[1].

(١) العبودية (ص١٣٦).

علىٰ هذا المقياس هل وقر التوحيد في قلب أحد منا؟ فالحمد لله الذي جعل الإيمان في زيادة ونقصان، ولم يجعل العاصي في أبد الدهر خسران!

هذه الكلمات التي سطرها الشيخ لم تكن مجرد تنظير لفلسفة التوحيد، بل كانت حالًا تعتري الشيخ في أحلك اللحظات وأشدها، والقاعدة تقول: إن من خاف وضاقت عليه الأمور وأمكنه أن يدفعها بأقل مجهود فعل ولا عتب ولا ضير، وإن تمام التوكل علىٰ الله إنما يظهر في هذا المشهد والموقف، وقد كانت القاعدة عند الشيخ رحمه الله تقول: (لن يخَاف الرجل غير الله إِلَّا لمَرض فِي قلبه فإن رجلًا شكىٰ إِلَىٰ أَحْمد بن حَنْبَل خَوفه من بعض الْوُلَاة، فَقَالَ: لَو صححت لم تخف أحدًا. أَي خوفك من أجل زَوَال الصِّحَّة من قَلْبك)[1].

والذي قرأ شيئًا من صفحات التاريخ يعلم ما فعله التتر بالمسلمين من سفك وقتل، وأنهم أوغلوا في المسلمين قتلًا وذبحًا وكانوا لا يخافون في الله لومة لائم، ولك أن تتخيل كيف أن شيخ الإسلام ثبت ووقف في وجه التتر لما فر من فر من أعيان المسلمين والقضاة وأئمة الدين، ودخل علىٰ قازان وثبت وكلمه بكلام شديد لا يدل إلا علىٰ عظم تعلق بالله وشفاء القلب من مرض التعلق بغيره سبحانه .

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٧٢).

وهذا الشيخ عمر بن السيد يذكر قصة الشيخ تقي الدين وكيف أنه كلم قازان بكلام شديد لا يدل إلا علىٰ ثبوت التوحيد في قلب شيخ الإسلام وخلوه إلا من شهود التوحيد، وشهود أن مطلق التصرف في يد الملك جل جلاله: (وجرت له مع قازان وقطلو شاه وَبُولَايْ أُمُورٌ وَنُوَبٌ، قَامَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِيهَا كُلِّهَا للَّه، وَقَالَ الْحَقَّ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﷻ. قَالَ وَقُرِّبَ إِلَىٰ الْجَمَاعَةِ طعام فَأَكَلُوا مِنْهُ إِلَّا ابْنَ تَيْمِيَّةَ فَقِيلَ لَهُ أَلَا تَأْكُلُ؟ فَقَالَ: كَيْفَ آكُلُ مِنْ طَعَامِكُمْ وَكُلُّهُ مِمَّا نَهَبْتُمْ مِنْ أَغْنَام النَّاسِ وَطَبَخْتُمُوهُ بِمَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّاسِ، قَالَ ثُمَّ إِنَّ قَازَانَ طَلَبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ فَقَالَ فِي دعائه +اللَّهمّ إن كان هذا عبدك مَحْمُودٌ إِنَّمَا يُقَاتِلُ لِتَكُونَ كَلِمَتُكَ هِيَ الْعُلْيَا وَلِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لَكَ فَانْصُرْهُ وَأَيِّدْهُ وَمَلِّكْهُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً وَطَلَبًا لِلدُّنْيَا وَلِتَكُونَ كَلِمَتُهُ هِيَ الْعُلْيَا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وَزَلْزِلْهُ وَدَمِّرْهُ وَاقْطَعْ دَابِرَهُ؛ قَالَ وَقَازَانُ يُؤَمِّنُ علىٰ دعائه، ويرفع يديه. قال فجعلنا نجمع ثِيَابَنَا خَوْفًا مِنْ أَنْ تَتَلَوَّثَ بِدَمِهِ إِذَا أَمَرَ بِقَتْلِهِ، قَالَ فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ لَهُ قَاضِي الْقُضَاةِ نَجْمُ الدِّينِ ابْنُ صَصْرَىٰ وَغَيْرُهُ: كِدْتَ أَنْ تُهْلِكَنَا وَتُهْلِكَ نَفْسَكَ، وَاللَّهِ لَا نَصْحَبُكَ مِنْ هُنَا، فَقَالَ: وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَصْحَبُكُمْ. قَالَ فَانْطَلَقْنَا عُصْبَةً وَتَأَخَّرَ هُوَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أصحابه، فتسامعت به الخواقين وَالْأُمَرَاءُ مِنْ أَصْحَابِ قَازَانَ فَأَتَوْهُ يَتَبَرَّكُونَ بِدُعَائِهِ، وَهُوَ سَائِرٌ إِلَىٰ دِمَشْقَ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، قَالَ وَاللَّهِ مَا وَصَلَ إِلَىٰ دِمَشْقَ إِلَّا فِي نَحْوِ ثَلَاثِمِائَةِ فَارِسٍ فِي رِكَابِهِ، وَكُنْتُ أَنَا مِنْ

جُمْلَةِ مَنْ كَانَ مَعَهُ، وَأَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبَوْا أَنْ يَصْحَبُوهُ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ التَّتَرِ فَشَلَّحُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ)[1].

ويحكي الشيخ مشهدًا فيه حال من أحوال التوحيد، وهو حال العزة والقوة بالحق، وثبات القلب بشهود وحدانية الحق، يقول الشيخ في رسالته إلىٰ ملك قبرص النصراني: (وَلَمَّا قَدِمَ مُقَدَّمُ الْمَغُولِ غازان وَأَتْبَاعُهُ إِلَىٰ دِمَشْقَ وَكَانَ قَدْ انْتَسَبَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ؛ لَكِنْ لَمْ يَرْضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا فَعَلُوهُ؛ حَيْثُ لَمْ يَلْتَزِمُوا دِينَ اللَّهِ وَقَدْ اجْتَمَعَت بِهِ وَبِأُمَرَائِهِ وَجَرَىٰ لِي مَعَهُمْ فُصُولٌ يَطُولُ شَرْحُهَا؛ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَدْ بَلَغَتْ الْمَلِكَ؛ فَأَذَلَّهُ اللَّهُ وَجُنُودَهُ لَنَا حَتَّىٰ بَقِينَا نَضْرِبُهُمْ بِأَيْدِينَا وَنَصْرُخُ فِيهِمْ بِأَصْوَاتِنَا. وَكَأَنَّ مَعَهُمْ صَاحِبَ سَيَسَ مِثْلُ أَصْغَرِ غُلَامٍ يَكُونُ حَتَّىٰ كَانَ بَعْضَ الْمُؤَذِّنِينَ الَّذِينَ مَعَنَا يَصْرُخُ عَلَيْهِ وَيَشْتُمُهُ وَهُوَ لَا يَجْتَرِئُ أَنْ يُجَاوِبَهُ)[2]، فلما استولت محبة الله وتوحيده علىٰ قلب الشيخ، لم تتحرك جوارحه إلا نصرة لدينه، فكان قيامه هذا لله، فأيده الله بعزة جرت علىٰ يدي عبده ابن تيمية كرامة لرسول الله ﷺ.

يقول الشيخ قدس الله روحه: (فَإِذَا ظَهَرَ لِلْعَبْدِ مِنْ سِرِّ الرُّبُوبِيَّةِ أَنَّ الْمُلْكَ وَالتَّدْبِيرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَلَا يَرَىٰ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا حَرَكَةً وَلَا سُكُونًا وَلَا قَبْضًا وَلَا بَسْطًا وَلَا خَفْضًا وَلَا رَفْعًا إِلَّا وَاَللَّهُ ﷻ فَاعِلُهُ

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٨٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٦١٨).

وَخَالِقُهُ وَقَابِضُهُ وَبَاسِطُهُ وَرَافِعُهُ وَخَافِضُهُ فَهَذَا الشُّهُودُ هُوَ سِرُّ الْكَلِمَاتِ الْكَوْنِيَّاتِ)[١].

ثم ينقل لنا ابن عبد الهادي حالًا أخرىٰ من أحوال الشيخ، يتمثل فيها الشيخ أعلىٰ درجاتِ التوكل والثبات واختلاط التوحيد بالروح وبشاشة القلب، يقول ابن عبد الهادي: (وَلَقَد أَخْبرنِي حَاجِب من الْحجاب الشاميين أَمِير من أمرائهم ذُو دين متين وَصدق لهجة مَعْرُوف فِي الدولة قَالَ: قَالَ لي الشَّيْخ يَوْم اللِّقَاء وَنحن بمرج الصفر وَقد تراءىٰ الْجَمْعَانِ: يَا فلَان أوقفني موقف الْمَوْت. قَالَ: فسقته إِلَىٰ مُقَابلَة الْعَدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تَحت الْغُبَار المنعقد عَلَيْهِم، ثمَّ قلت لَهُ: يَا سَيِّدي هَذَا موقف الْمَوْت وَهَذَا الْعَدو قد أقبل تَحت هَذِه الغبرة المنعقدة فدونك وَمَا تُرِيدُ. قَالَ فَرفع طرفه إِلَىٰ السَّمَاء وأشخص بَصَره وحرك شَفَتَيْه طَويلًا ثمَّ انْبَعَثَ وأقدم علىٰ الْقِتَال وَأما أَنا فخيل إِلَيّ أَنه دَعَا عَلَيْهِم وَأَن دعاءه اسْتُجِيبَ مِنْهُ فِي تِلْكَ السَّاعَة.

قَالَ: ثمَّ حَال الْقِتَال بَيْننَا والالتحام وَمَا عدت رَأَيْته حَتَّىٰ فتح الله وَنصر وانحاز التتار إِلَىٰ جبل صَغِير عصموا نُفُوسهم بِهِ من سيوف الْمُسلمين تِلْكَ السَّاعَة وَكَانَ آخر النَّهَار. قَالَ: وَإِذا أَنا بالشيخ وأخيه يصيحان بِأَعْلَىٰ صوتيهما تحريضًا علىٰ الْقِتَال وتخويفًا للنَّاس من الْفِرَار. فَقلت: يَا سَيِّدي لَك الْبشَارَة بالنصر فَإِنَّهُ قد فتح

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨٩).

الله وَنصر وَهَا هم التتار محصورون بِهَذَا السفح وَفِي غَد إِن شَاءَ الله تَعَالَىٰ يؤخذون عَن آخِرهم.

قَالَ: فَحمدَ الله تَعَالَىٰ وَأثنىٰ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهله ودعا لي فِي ذَلِك الموطن دُعَاء وجدت بركته فِي ذَلِك الْوَقْت وَبعده -. . . قَالَ: ثمَّ لم يزل الشَّيْخ بعد ذَلِك علىٰ زِيَادَة فِي الْحَال والقال والجاه وَالتَّحْقِيق فِي الْعلم والعرفان حَتَّىٰ حرك الله سُبْحَانَهُ عَزمَات نفوس وُلَاة الْأَمر لِقِتَال أهل جبل كسروان وهم الَّذين بغوا وَخَرجُوا علىٰ الإِمَام وأخافوا السبل وعارضوا المارين بهم من الْجَيْش بِكُل سوء. فَقَامَ الشَّيْخ فِي ذَلِك أتم قيام وَكتب إِلَىٰ أَطْرَاف الشأم فِي الْحَث علىٰ قتال الْمَذْكُورين وَأَنَّهَا غزَاة فِي سَبِيل الله، ثمَّ تجهز هُوَ بِمن مَعَه لغزوهم بِالْجَبَلِ صَحبه ولي الْأَمر نَائِب المملكة المعظمة أعز الله نَصره والجيوش الشآمية المنصورة وَمَا زَالَ مَعَ ولي الْأَمر فِي حصارهم وقتالهم حَتَّىٰ فتح الله الْجَبَل وَأجلىٰ أَهله وَكَانَ من أصعب الْجبَال وأشقها ساحة وَكَانَت الْمُلُوك الْمُتَقَدّمَة لَا تقدم علىٰ حصاره مَعَ علمهَا بِمَا عَلَيْهِ أَهله من الْبَغي وَالْخُرُوج علىٰ الإِمَام والعصيان وَلَيْسَ إِلَّا لصعوبة المسلك ومشقة النُّزُول عَلَيْهِم. وَكَذَلِكَ لما حَاصَرَهُمْ بيدرا بالجيش رَحل عَنْهُم وَلم ينل مِنْهُم منالًا لذَلِك السَّبَب وَلغيره وَذَلِكَ عقيب فتح قلعة الرّوم ففتحه الله علىٰ يَدي ولي الْأَمر نَائِب الشَّام المحروس أعز الله نَصره وَكَانَ فَتحه أحد المكرمات والكرامات المعدودة للشَّيْخ)[1].

---

(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٩٥).

وكل هذا والشيخ يقول: (وَاللَّهِ إِنِّي إِلَىٰ الْآنِ أُجَدِّدُ إِسْلَامِي كُلَّ وَقْتٍ، وَمَا أَسْلَمْتُ بَعْدُ إِسْلَامًا جَيِّدًا)[1].!

• حال الشيخ في عباداته:

فلما رأينا من تمام حال الشيخ مع التوحيد وتأثره به في كل حركاته، فلا يخشىٰ إلا الله، كان لزامًا ظهور هذه الخشية علىٰ جوارحه، وأظهر ما تكون حين يقبل علىٰ الله بجوارحه، فيقف بين يدي الله في صلاته، فتظهر عليه حال عجيبة؛ إذا سمعتها كأنك لم تصل قط، وكأنك لم تدر ما الصلاة قط!

يقول سراج الدين الأزجي رحمه الله تعالىٰ: (وَكَانَ إذا أحرم بِالصَّلَاةِ تكَاد تتخلع الْقُلُوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فَإِذا دخل فِي الصَّلَاة ترتعد أعضاؤه حَتَّىٰ يميله يمنة ويسرة وَكَانَ إذا قَرَأَ يمد قِرَاءَته مدًا كَمَا صَحَّ فِي قِرَاءَة رَسُول الله ﷺ وَكَانَ رُكُوعه وَسُجُوده وانتصابه عَنْهُمَا من أكمل مَا ورد فِي صَلَاة الْفَرْض وَكَانَ يُخَفف جُلُوسه للتَّشَهُّد الأول خفَّة شَدِيدَة ويجهر بالتسليمة الأولىٰ حَتَّىٰ يسمع كل من حضر)[2].

ترتعد أعضاؤه خشية من الله جل وعلا، كمال الاستحضار والفناء في العبادة، هذه حاله مع الصلاة ولا عجب، فالتوحيد إذا صلح، صلح سائر العمل؛ لا انفكاك ولا افتراق.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٠).

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص ٣٧).

ثم يغيب في غياهب الليل والناس نيام، يناجي مولاها (متفردًا عَن النَّاس كلهم خَالِيًا بربه ﷻ ضارعًا مواظبًا علىٰ تِلَاوَة الْقُرْآن الْعَظِيم)[1]. بل إنه (قل أن سمع بِمثلِهِ لأنه كَانَ قد قطع جلّ وقته وزمانه فِيهِ حَتَّىٰ أنه لم يَجْعَل لنَفسِهِ شاغلةِ تشغله عَن الله تَعَالَىٰ مَا يُرَاد لَهُ لَا من أهل وَلَا من مَال)[2]. معرض عن الدنيا مقبل علىٰ الله في صلاته، ويعيش في غاية الأنس بالله لا يضره حسد حاسد ولا مضرة مضر، كأن لسان حاله يقول (لو لم يكن بك علي غضب فلا أبالي)!

فيزداد شوقه لله، ويزداد تزوده واقتياته من ذكر مولاه (فَإِذا فرغ من الصَّلَاة أثنىٰ علىٰ الله ﷻ هُوَ وَمن حضر بِمَا ورد من قَوْله اللَّهُمَّ أنت السَّلَام ومنك السَّلَام تبَارَكت يَا ذَا الْجلَال والإكرام، ثمَّ يقبل علىٰ الْجَمَاعَة ثمَّ يَأْتِي بالتهليلات الواردات حِينَئِذٍ ثمَّ يسبح الله وَيَحْمَدهُ ويكبره ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَيخْتم الْمِائَة بالتهليل كَمَا ورد)[3]. ولا يكفيه هذا، فإنه لما أعرض عن زاد الدنيا، ازداد قوته من زاد الآخرة والذكر فينقطع بعد صلاته لا يكلمه أحد ولا يكلم أحدًا بغير حاجة، (فَلَا يزَال فِي الذّكر يسمع نَفسه وَرُبمَا يسمع ذكره من إِلَىٰ جَانِبه مَعَ كَونه فِي خلال ذَلِك يكثر من تقليب بَصَره نَحْو السَّمَاء).

وهذا ابن القيم يصف حال شيخه مع الذكر فيقول: (وكان إذا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ص(٣٧).

صلىٰ الفجر يجلس في مكانه، حتىٰ يتعالىٰ النهار جدًا، يقول: هذه غدوتي لو لم أتغذ هذه الغدوة سقطت قواي)[1]. ويكرر الذكر ولا يمل ولا يكل، كأنه في كل مرّة تتكشف له الكشوف، وتتجلىٰ له الفتوح فـ (يقْرَأ الْفَاتِحَة ويكررها وَيقطع ذَلِك الْوَقْت كُله أعني من الْفجْر إِلىٰ ارْتِفَاع الشَّمْس فِي تكْرِير تلاوتها)[2].

ولا تلهيه الدنيا عن أن يبقىٰ في ملكوت الله، فلا يقطعه السوق ولا صخب الدنيا من أن يلتفت عن ذكر الله، يقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: (وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدروب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلىٰ أن أنال مطلوبي)[3].

وكان إذا استعصت عليه مسألة وأشكلت اهتدىٰ إلىٰ مسجد مهجور، بعيدًا عن الناس وخر ساجدًا يردد (يا معلم إبراهيم علمني!)، وإذا هاله أمر أو اعتراه ذهول في مسألة وحالة، لم يسعه إلا أن يستغفر الله ألف مرة حتىٰ ينشرح صدره وينجلي الإشكال الذي اعتراه.

لذلك وصف الذهبي شيخ الإسلام فقال: (لم أر مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه)[4].

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (٤٢)،

(٢) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (ص٣٨).

(٣) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام (ص ٢٢).

(٤) نقلا عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام - ذيل تاريخ الإسلام (ص ٢٠٩).

ولن يُرىٰ مثله!

هذا التأله في العبادة لم يكن ليجعل منه مترهبًا متبتلًا في محراب منقطعًا عما سواه من أحداث، ففي فترة الشيخ كانت الدنيا تغلي بالأحداث الجسيمة من صنيع التتر والمغل، واضمحلال فكري واجتماعي وفقهي وعقدي، فآثر حظ نفسه في الزواج والعيال وزينة الحياة الدنيا.

ولما مارس الشيخ تصحيحه ونقده لبعض أفكار وممارسات صوفية زمانه، وكان من ضمنها عزوفهم عن الجهاد في سبيل الله، يقول رحمه الله تعالىٰ: (وَإِذا عرفت هَذِه الْأُصُول- يعني أصول المحبة والاتباع -فعامة أهل السماع الْمُحدث مقصرون فِي هَذِه الْأُصُول الثَّلَاثَة وهم فِي ذَلِك متفاوتون تَفَاوتًا كثيرًا بِحَسب قُوَّة اعتياضهم بِالسَّمَاعِ الْمُحدث عَن السماع الْمَشْرُوع وَمَا يتبع ذَلِك حَتَّىٰ آل الْأَمر بِأخرة إِلَىٰ الانسلاخ من الْإِيمَان بِالْكُلِّيَّةِ ومصيره منافقا مَحْضا أَو كَافِرًا صرفًا، وَأما عامتهم وغالبهم الَّذين فيهم حب الله وَرَسُوله وَمَا يتبع ذَلِك فهم فِيهِ مقصرون تَجِد فيهم من التَّفْرِيط فِي الْجِهَاد فِي سَبِيل الله وَمَا يدْخل فِيهِ من الْأَمر بِالْمَعْرُوفِ والنهي عَن الْمُنكر والتفريط فِي مُتَابعَة رَسُول الله ﷺ فِي شَرِيعَته وسنته وأوامره وزواجره أمرًا عَظِيمًا جدًا وَكَذَلِكَ فِي أَمر الْإِخْلَاص لله تَجِد فيهم من الشّرك الْخَفي أَو الجلي أمورًا كَثِيرَة)[1]، فهذا التفريط

---

(١) الاستقامة (١/ ٢٦٥-٢٦٦).

الذي انتقده الشيخ، قابله في شخصيته من الهمة العالية والشجاعة المنقطعة النظير والثبات ما كان ثمرة من ثمرات تألهه وتعلقه بربه جل في علاه، يقولُ البزار الأزجي رحمه الله تعالىٰ: (وَأخْبر غير وَاحِد أن الشَّيْخ رضي الله عنه كَانَ إِذا حضر مَعَ عَسْكَر الْمُسلمين فِي جِهَاد يكون بَينهم واقيتهم وقطب ثباتهم إِن رأىٰ من بَعضهم هلعًا أَو رقة أَو جبانة شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر وَالظفر وَالْغنيمَة وَبَين لَهُ فضل الْجِهَاد والمجاهدين وإنزال الله عَلَيْهِم السكينَة، وَكَانَ إِذا ركب الْخَيل يتحنك ويجول فِي الْعَدو كأعظم الشجعان وَيقوم كأثبت الفرسان وَيكبر تَكْبِيرًا أنكىٰ فِي الْعَدو من كثير من الفتك بهم ويخوض فيهم خوض رجل لَا يخَاف الْمَوْت. وَحَدثُوا أنهم رَأَوْا مِنْهُ فِي فتح عكة أمورًا من الشجَاعَة يعجز الواصف عَن وصفهَا. قَالُوا وَلَقَد كَانَ السَّبَب فِي تملك الْمُسلمين إِيَّاهَا بِفِعْلِهِ ومشورته وَحسن نظره)[1]. بل إن قازان ليشهد له بذلك فيقول ما معناه: (إِنِّي لم أر مثله وَلَا أثبت قلبًا مِنْهُ وَلَا أوقع من حَدِيثه فِي قلبِي وَلَا رَأَيْتنِي أعظم انقيادًا مني لأحَدٍ مِنْهُ فَأخبر بِحَالِهِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ من الْعلم وَالْعَمَل، فَقَالَ الشَّيْخ للترجمان: قل لغازان أنت تزْعم أنك مُسلم ومعك قَاضٍ وَإِمَام وَشَيخ ومأذونون علىٰ مَا بلغنَا فغزوتنا، وَأَبُوك وَجدك كَانَا كَافِرين وَمَا عملا الَّذِي عملت، عاهدا فوفيا وأنت عَاهَدت فغدرت، وَقلت فَمَا وفيت وَجُرت. وَسَأَلَهُ إِن أَحْبَبْت أَن أعمر لَك بلد آبَائِك حران وتنتقل إِلَيْهِ وَيكون برسمك. فَقَالَ: لَا

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٧٠).

وَالله لَا أَرغب عَن مهَاجر إِبْرَاهِيم ﷺ استبدل بِهِ غَيره.

فَخرج من بَين يَدَيْهِ مكرمًا معززًا قد صنع لَهُ الله بِمَا طوىٰ عَلَيْهِ نِيَّته الصَّالِحَة من بذله نَفسه فِي طلب حقن دِمَاء الْمُسلمين فَبلغهُ مَا أَرَادَهُ)[1].

- **أحواله مع عباد الله:**

قال ابن القيم رحمه الله: (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: العارف لا يرىٰ له علىٰ أحد حقًا، ولا يشهد له علىٰ غيره فضلًا؛ ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب)[2].

وهذا كان حاله دائمًا رضي الله عنه، في سره وعلانيته، إن حوىٰ جيبه درهمًا كان لغيره، وإن حوىٰ بيته رغيفًا كان جله لضيفه، ولنفسه لقيمات، حتىٰ إن ضيفه ليتوجع علىٰ حال الشيخ من قلة أكله ويتعجب من حال إيثاره علىٰ قلة ما بيده. فيروي الشَّيْخ الصَّالح الْعَارِف زين الدّين عَليّ الوَاسِطِيّ مَا مَعْنَاهُ (أنه أَقَامَ بِحَضْرَة الشَّيْخ مُدَّة طَوِيلَة قَالَ: فَكَانَ قوتنا فِي غالبها أنه كَانَ فِي بكرَة النَّهَار يأتيني وَمَعَهُ قرص قدره نصف رَطْل خبْزًا بالعراقي فيكسره بِيَدِهِ لقما وَنَأْكُل مِنْهُ أَنا وَهُوَ جَمِيعًا ثمَّ يرفع يَده قبلي وَلَا يرفع بَاقِي القرص من بَين يَدي حَتَّىٰ أشبع بِحَيْثُ أَنِّي لَا أحتاج إلىٰ الطَّعَام إِلَىٰ اللَّيْل وَكنت أرىٰ ذَلِك من بركَة الشَّيْخ ثمَّ يبْقىٰ إلىٰ بعد الْعشَاء الآخرة حَتَّىٰ يفرغ

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٧١).

(٢) نقلا عن المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ (١/ ١٤٣).

من جَمِيع عوائده الَّتِي يُفِيد النَّاس بهَا فِي كل يَوْم من أصناف الْقرب فيؤتىٰ بعشائنا فيأكل هُوَ معي لقيمات ثمَّ يؤثرني بِالْبَاقِي وَكنت أسأله أن يزِيد علىٰ أكله فَلَا يفعل حَتَّىٰ إِنِّي كنت فِي نَفسِي أتوجع لَهُ من قلَّة أكله)[1]، وإذا أقبل عليه فقير أو مسكين، يبادر إلىٰ إعطائه فلربما نزع ثوبه أو عمامته وأعطاه إياه وطيب خاطره واعتذر إليه لقلة طوله.

فانظر إلىٰ صوفية اليوم، وقارن حالهم بحال التقي ابن تيمية، كيف أنهم يدعون الزهد وكروشهم ممتلئة، وهو يرىٰ في نفسه العيب وحاله يحكي عنه زهده!

وكان رضي الله عنه واسع الصدر، لا يتذرع ولا يسأم شيئا، يتودد إلىٰ الناس، فيلتمس الناس بركته، يتواضع إليهم فلا يزيده هذا إلا تعظيمًا في عيونهم وقلوبهم فـ (كَانَ يتواضع للكبير وَالصَّغِير والجليل والحقير والغني الصَّالح وَالْفَقِير، وَكَانَ يدني الْفَقِير الصَّالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحَدِيثه المستحلىٰ زِيَادَة علىٰ مثله من الأغنياء حَتَّىٰ أَنه رُبمَا خدمه بِنَفسِهِ وأعانه بِحمْل حَاجته جبرًا لِقَلْبِهِ وتقربًا بذلك إِلىٰ ربه، وَكَانَ لَا يسأم مِمَّن يستفتيه أَو يسْأَله بل يقبل عَلَيْهِ ببشاشة وَجه ولين عَرِيكَة وَيقف مَعَه حَتَّىٰ يكون هُوَ الَّذِي يُفَارِقهُ كَبِيرًا كَانَ أَو صَغِيرًا رجلًا أَو امْرَأَة حرًا أَو عبدًا عَالمًا أَو عاميًا حَاضرًا أَو باديًا وَلَا يجبهه وَلَا يحرجه وَلَا ينفره بِكَلَام يوحشه بل يجِيبه ويفهمه

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص٤٩.

ويعرفه الْخَطَأ من الصَّوَاب بلطف وانبساط، وَكَانَ يلْزم التَّوَاضُع فِي حُضُوره من النَّاس ومغيبه عَنْهُم فِي قِيَامه وقعوده ومشيه ومجلسه ومجلس غَيره)[1].

وكان حاله مع خصومه كحاله مع أخلائه، لا يظلمهم ولا يأمر بالاعتداء عليهم، بل كان دائم الاعتذار لهم والتودد إليهم والتلطف معهم، بل إن كثيرًا من المخالفين كانوا يشهدون بذلك، وكان دائم الصفح عنهم مع قدرته علىٰ أذيتهم إن أراد، فتارة يشفع لهم عند السلطان، وهم هم الذين كفروه وآذوه، وتارة يرد عنهم أتباعه بعد أن ضربوه وتفردوا به، وكل هذا لله!

يروي لنا ابن عبد الهادي أحداث قصة حدثت مع الشيخ بأن الشيخ شرف الدين -أخا الشيخ تقي الدين- بلغه بأن جمَاعَة بِجَامِع مصر قد تعصبوا علىٰ الشَّيْخ وتفردوا بِهِ وضربوه

فَقَالَ حَسبنَا الله وَنعم الْوَكِيل وَكَانَ بعض أَصْحَاب الشَّيْخ جَالِسًا عِنْد شرف الدّين. قَالَ: فَقُمْت من عِنْده وَجِئْت إِلَىٰ مصر فَوجدت خلقًا كثيرا من الحسينية وَغَيرهَا رجَالًا وفرسانًا يسْأَلُون عَن الشَّيْخ فَجِئْت فَوَجَدته بِمَسْجِد الْفَخر كَاتب المماليك علىٰ الْبَحْر وَاجْتمعَ عِنْده جمَاعَة وتتابع النَّاس، وَقَالَ لَهُ بَعضهم: يَا سَيِّدي قد جَاءَ خلق من الحسينية وَلَو أَمرتهم أَن يهدموا مصر كلهَا لفعلوا!

فَقَالَ لَهُم الشَّيْخ لأي شَيْء؟

---

(١) المصدر السابق.

قَالَ لِأَجلِك.

فَقَالَ لَهُم هَذَا مَا يحِق!

فَقَالُوا: نَحن نَذْهَب إِلَىٰ بيُوت هَؤُلَاءِ الَّذين آذوك فنقتلهم ونخرب دُورهمْ فَإِنَّهُم شوشوا علىٰ الْخلق وأثاروا هَذِه الْفِتْنَة علىٰ النَّاس. فَقَالَ لَهُم: هَذَا مَا يحل. قَالُوا: فَهَذَا الَّذِي قد فَعَلُوهُ مَعَك يحل؟ هَذَا شَيْء لَا نصبر عَلَيْهِ وَلَا بُد أَن نروح إِلَيْهِم ونقاتلهم علىٰ مَا فعلوا!

وَالشَّيْخ ينهاهم ويزجرهم.

فَلَمَّا أَكْثرُوا فِي القَوْل قَالَ لَهُم: إِمَّا أَن يكون الْحق لي أَو لكم أَو لله فَإِن كَانَ الْحق لي فهم فِي حل مِنْهُ، وَإِن كَانَ لكم فَإِن لم تسمعوا مني وَلَا تستفتوني فافعلوا مَا شِئْتُم، وَإِن كَانَ الْحق لله فَالله يَأْخُذ حَقه إِن شَاءَ كَمَا يَشَاء!

قَالُوا: فَهَذَا الَّذِي فَعَلُوهُ مَعَك هُوَ حَلَال لَهُم؟

قَالَ: هَذَا الَّذِي فَعَلُوهُ قد يكونُونَ مثابين عَلَيْهِ مَأْجُورِينَ فِيهِ!

قَالُوا: فَتكون أَنْت علىٰ الْبَاطِل وهم علىٰ الْحق؟ فَإِذا كنت تَقول إِنَّهُم مَأْجُورونَ فاسمع مِنْهُم وَوَافَقْهُمْ علىٰ قَوْلهم!

فَقَالَ لَهُم: مَا الْأَمر كَمَا تَزْعُمُونَ فَإِنَّهُم قد يكونُونَ مجتهدين مخطئين فَفَعَلُوا ذَلِك باجتهادهم والمجتهد المخطىء لَهُ أجر!

فَلَمَّا قَالَ لَهُم ذَلِك قَالُوا: فَقُمْ واركب مَعنا حَتَّىٰ نجيء إِلَىٰ الْقَاهِرَة.

فَقَالَ: لَا، وَسَأَلَ عَن وَقت الْعَصْر فَقيل لَهُ إِنَّه قريب فَقَامَ قَاصِدا إِلَىٰ الْجَامِع لصَلَاة الْعَصْر.

فَقيل لَهُ: يَا سَيِّدي قد تواصوا عَلَيْك ليقتلوك وَفِي الْجَامِع قد يتمكنون مِنْك بِخِلَاف غَيره فصل حَيْثُ كَانَ فَأبىٰ إِلَّا الْمُضِيّ إِلَىٰ الْجَامِع وَالصَّلَاة فِيهِ.

فَخرج وَتَبعهُ خلق كثير لَا يرجعُونَ عَنهُ فضاقت الطَّرِيق بِالنَّاسِ فَقَالَ لَهُ من كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ: ادخل إِلَىٰ هَذَا الْمَسْجِد مَسْجِد فِي الطَّرِيق واقعد فِيهِ حَتَّىٰ يخف النَّاس لِئَلَّا يَمُوت أحد من الزحام.

فَدخل وَلم يجلس فِيهِ ووقف وَأَنا مَعَه فَلَمَّا خف النَّاس خرج يطْلب الْجَامِع الْعَتِيق فَمر فِي طَرِيقه علىٰ قوم يَلْعَبُونَ بالشطرنج علىٰ مسطبة بعض حوانيت الحدادين فنفض الرقعة وقلبها فبهت الَّذِي يلْعَب بهَا وَالنَّاس من فعله ذَلِك.

ثمَّ مَشىٰ قَاصِدًا للجامع وَالنَّاس يَقُولُونَ هُنَا يقتلونه السَّاعَة يقتلونه.

فَلَمَّا وصل إِلَىٰ الْجَامِع قيل السَّاعَة يغلق الْجَامِع عَلَيْهِ وعَلىٰ أَصْحَابه وَيقْتلُونَ.

فَدخل الْجَامِع ودخلنا مَعَه فصلىٰ رَكْعَتَيْنِ فَلَمَّا سلم مِنْهَا أذن الْمُؤَذّن بالعصر فصلىٰ الْعَصْر ثمَّ افْتتح بِقِرَاءَة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ثمَّ تكلم فِي الْمَسْأَلَة الَّتِي كَانَت الْفِتْنَة بِسَبَبِهَا إِلَىٰ أَذَان الْمغرب.

فَخرج أَتبَاع خصومه وهم يَقُولُونَ: وَالله لقد كُنَّا غالطين فِي هَذَا الرجل لقيامنا عَلَيْهِ وَالله إِن الَّذِي يَقُوله هَذَا هُوَ الْحق وَلَو تكلم هَذَا بِغَيْر الْحق لم نمهله إِلَىٰ أَن يسكت بل كُنَّا نبادر إِلَىٰ قَتله وَلَو كَانَ هَذَا يبطن خلاف مَا يظْهر لم يخف علينا وصاروا فرْقَتَيْن يُخَاصم بَعضهم بَعْضًا ..)[1]!

وصفاء نفسه يأبىٰ أن يتشبه بغير أهل الصفاء، فلا يقدم علىٰ الانتصار لنفسه، ولا يرىٰ إلا أن يعتذر لمن أساء إليه ويرد الإساءة بالإحسان، هم يستطيلون في النيل منه وهو ما يقدر علىٰ خير إلا وعمله معهم، ولا يعين عليهم عدوا لهم قط.

ويأتيه السلطان يطلب منه فتوىٰ لقتل بعض من آذوه وهو يرفض ولا يذكر للسلطان عنهم إلا خيرًا ويشرع فِي مدحهم وَالثنَاء عَلَيْهِم وشكرهم وَأَن هَؤُلَاءِ لَو ذَهَبُوا لم يجِد السلطان مثلهم فِي مصره، فيسكن السلطان ويفرج عنهم، فيتعجب خصومه وينطق ابن مخلوف الذين كفر ابن تيمية وأمر بحبسه وتآمر علىٰ قتله وألب السلطان والعوام عليه: (مَا رَأينَا أتقىٰ من ابْن تَيْمِية لم نبق مُمكنا فِي السَّعْي فِيهِ وَلما قدر علينا عَفا عَنَّا)[2].!

ويموت خصومه وشانؤوه فلا يفرح ولا يدخله السرور، بل يطرق ويسترجع، يقول شمس الدين: (كان يدعو لأعدائه، ما رأيته

---

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (ص٣٠٥).

(٢) العقود الدرية من مناقب ابن تيمية (ص٢٩٩).

يدعو علىٰ واحد منهم، وقد نعيت إليه يومًا أحد معارضيه الذي كان يفوق الناس في إيذائه وعدائه، فزجرني، وأعرض عني، وقرأ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ وذهب لساعته إلىٰ منزله، فعزىٰ أهله، وقال: «اعتبروني خليفة له، ونائبًا عنه، وأساعدكم في كل ما تحتاجون إليه» وتحدث معهم بلطف وإكرام بعث فيهم السرور، فبالغ في الدعاء لهم حتىٰ تعجبوا منه).

الله أكبر!

ولهذا قذف الله في قلوب العامة حبه وتوقيره وتبجيله (فَقل أن يَرَاهُ أحْدُ مِمَّن لَهُ بَصِيرَة الا وانكب علىٰ يَدَيْهِ يقبلهما حَتَّىٰ أنه كَانَ إِذا رَآه أرباب المعايش يتخطون من حوانيتهم للسلام عَلَيْهِ والتبرك بِهِ وَهُوَ مَعَ هَذَا يُعْطي كلًا مِنْهُم نَصِيبًا وافرًا من السَّلَام وَغيره، وإذا رأىٰ مُنْكرًا فِي طَرِيقه أزاله أوْ سمع بِجنَازَة سارع إلىٰ الصَّلَاة عَلَيْهَا أوْ تأسف علىٰ فَوَاتهَا، وَرُبمَا ذهب إلىٰ قبر صَاحبهَا بعد فَرَاغه من سَماع الحَدِيث فصلي عَلَيْهِ.

ثمَّ يعود إلىٰ مَسْجده، فَلَا يزَال تَارَة فِي إفتاء النَّاس وَتارَة فِي قَضَاء حوائجهم حَتَّىٰ يُصَلِّي الظّهْر مَعَ الْجَمَاعَة ثمَّ كَذَلِك بَقِيَّة يَوْمه وَكَانَ مَجْلِسه عَامًا للكبير وَالصَّغِير والجليل والحقير وَالْحر وَالْعَبْد وَالذكر والأنثىٰ، قد وسع علىٰ كل من يرد عَلَيْهِ من النَّاس يرىٰ كل مِنْهُم فِي نَفسه أن لم يكرم أحدًا بِقَدرِهِ)[1].

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٣٩).

(وكَانَ يدني الْفَقِير الصَّالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحَديثه المستحلىٰ زِيَادَة علىٰ مثله من الأغنياء حَتَّىٰ أَنه رُبمَا خدمه بِنَفسِهِ وأعانه بِحمْل حَاجته جبرًا لِقَلْبِهِ وتقربًا بذلك إلىٰ ربه، وَكَانَ لَا يسأم مِمَّن يستفتيه أَو يسْأَله بل يقبل عَلَيْهِ ببشاشة وَجه ولين عَرِيكَة وَيقف مَعَه حَتَّىٰ يكون هُوَ الَّذِي يُفَارِقهُ كَبِيرًا كَانَ أَو صَغِيرًا -رجلًا أَو امْرَأَة حرًا أَو عبدًا عَالمًا أَو عاميًا حَاضرًا أَو باديًا وَلَا يجبهه وَلَا يحرجه وَلَا ينفره بِكَلَام يوحشه بل يجِيبه ويفهمه ويعرفه الْخَطَأ من الصَّوَاب بلطف وانبساط، وَكَانَ يلْزم التَّوَاضُع فِي حُضُوره من النَّاس ومغيبه عَنْهُم فِي قِيَامه وقعوده ومشيه ومجلسه ومجلس غَيره)[1].

وأحواله في الخفاء خير منها في العلن، وإن من أشد الناس تعظيمًا له هو أخاه، وكان من تعظيمه ما تتحير من العقول، فالعادة تقول إن أهل الرجل قد يظهر لهم ما لا يظهر للأجانب، فيجيب شرف الدين قائلًا: (إِنِّي أرىٰ مِنْهُ أشياء لَا يَرَاهَا غَيْرِي أوجبت عَليّ أن أكون مَعَه كَمَا ترَوْنَ، وَكَانَ يسْأَل عَن ذَلِك فَلَا يذكر مِنْهُ شَيْئًا لما يعلم من عدم إِيثَار الشَّيْخ لذَلِك)[2].

• الولي يلقىٰ مولاه!

ثم يسجنه شانؤوه في القلعة بدمشق، ولا فرق إن كان في السجن أو خارجه، فهو في كل أحواله مع الله (ما يصنع أعدائي

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٥١).

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٥٥).

بي؟ أنا جنَّتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارِقُني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة)[1]، ويُمنَع عنه كل كراس يقرأ به، أو قلم يخط به، فربما كتب بالفحم لايمنعه ذلك من أن ينير بنور علمه.

وقلبه العامر بشهود الله ووحدانيته لا يأبىٰ إلا الرضا بكل حال، ولا يلهج لسانه إلا بالحمد والشكر لله فإن أمر المؤمن كله خير، وكذا كان أمر الشيخ قدس الله روحه، فيرسل لمريديه وتلامذته بعد أن أخرج سجانوه الكتب من سجنه ومنعوه عنها فيقول: (وَنحن وَللَّه الْحَمد وَالشُّكْر فِي نعم عَظِيمَة تتزايد كل يَوْم ويجدد الله تَعَالَىٰ من نعمه نعمًا أُخْرَىٰ، وَخُرُوج الْكتب كَانَ من أعظم النعم فَإِنِّي كنت حَرِيصًا علىٰ خُرُوج شَيْء مِنْهَا لتقفوا عَلَيْهِ وهم كَرِهُوا خُرُوج الأخنائية فاستعملهم الله تَعَالَىٰ فِي إِخْرَاج الْجَمِيع وإلزام المنازعين بِالْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَبِهَذَا يظْهر مَا أرسل الله بِهِ رَسُوله من الْهدىٰ وَدين الْحق فَإِن هَذِه الْمسَائِل كَانَت خُفْيَة علىٰ أَكثر النَّاس فَإِذا ظَهرت فَمن كَانَ قَصده الْحق هداه الله وَمن كَانَ قَصده الْبَاطِل قَامَت عَلَيْهِ حجَّة الله وَاسْتحق أَن يذله الله ويخزيه

وَمَا كتبت شَيْئا من هَذَا ليكتم عَن أُحْدُ وَلَو كَانَ مبغضًا والأوراق الَّتِي فِيهَا جواباتكم غسلت.

وَأَنا طيب وعيناي طيبتان أطيب مَا كَانَتَا.

---

(١) الوابل الصيب (ص٤٨).

وَنحن فِي نعم عَظِيمَة لَا تحصىٰ وَلَا تعدّ وَالْحَمْد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مُبَارَكًا فِيهِ.

ثمَّ ذكر كلَامًا وَقَالَ:

كل مَا يَقْضِيه الله تَعَالَىٰ فِيهِ الْخَيْر وَالرَّحْمَة وَالْحكمَة إِن رَبِّي لطيف لما يَشَاء إِنَّه هُوَ الْقوي الْعَزِيز ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وَلَا يدْخل علىٰ أحد ضَرَر إِلَّا من ذنُوبه ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فَالْعَبْد عَلَيْهِ أَن يشْكر الله وَيَحْمَدهُ دَائِمًا علىٰ كل حَال ويستغفر من ذنُوبه فالشكر يُوجب الْمَزِيد من النعم وَالِاسْتِغْفَار يدْفع النقم وَلَا يقْضِي الله لِلْمُؤمنِ قَضَاء إِلَّا كَانَ خيرًا له إِن أَصَابَته سراء شكر وَإِن أَصَابَته ضراء صَبر فَكَانَ خيرًا لَهُ.)[1].

فلما أخرجت الكتب والقراطيس، أقبل علىٰ مولاه (بالْعِبَادَة والتلاوة والتذكر والتهجد حَتَّىٰ أَتَاهُ الْيَقِين)[2].

ويمرض قدس الله روحه، فيشعر شمس الدين الوزير بدنو أجل الشيخ، فعاده واستسمحه من الذي بدا منه أو من غيره (فَأَجَابَهُ الشَّيْخ رضي الله عنه بِأَنِّي قد أحللتك وَجَمِيع من عاداني وَهُوَ لَا يعلم أَنِّي علىٰ الْحق.

وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ إِنِّي قد أحللت السُّلْطَان الْملك النَّاصِر من حَبسه إيَّايَ لكَونه فعل ذَلِك مُقلدًا غَيره مَعْذُورًا وَلم يَفْعَله لحظ نَفسه

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (ص٣٨٤).

(٢) المصدر السابق.

بل لما بلغه مِمَّا ظَنّه حَقًا من مبلغة وَالله يعلم أنه بِخِلَافِهِ.

وَقد أحللت كل وَاحِد مِمَّا كَانَ بيني وَبَينه إِلَّا من كَانَ عدوًا لله وَرَسُوله)[1]. رقي في النفس يتعب من جاء بعده، ويفضح من انتحل زي الصادقين، علىٰ فراش الموت مسجىٰ ولا يسعه إلا أن يعفو ويصفح، ولو شاء لدعا عليه!

فبقي علىٰ حاله (مُجَاهدًا فِي ذَات الله تَعَالَىٰ صَابِرًا محتسبا لم يجبن وَلم يهلع وَلم يضعف وَلم يتتعتع بل كَانَ ﷺ إلىٰ حِين وَفَاته مشتغلا بِاللَّه عَن جَمِيع مَا سواهُ)[2]. ويختم (الْقُرْآن مُدَّة إِقَامَته بالقلعة ثَمَانِينَ أَو إِحْدَىٰ وَثَمَانِينَ ختمة انْتهىٰ فِي آخر ختمة إِلَىٰ آخر اقْتَرَبت السَّاعَة ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾)[3]. ويبعث المرء علىٰ ما مات عليه، أفخيرًا من هذه خاتمة؟ لا والله!

فيتوفاه الله في السحر، في وقت تنزل الرحمات، ويصعد المؤذن علىٰ المنارة والحرس علىٰ الأبرجة، أن قد فاضت روح الشيخ وهي الآن تأنس عند باريها، فما أصبح الناس حتىٰ أقبلوا من كل فج عميق، كأنه قطب اجتمعت عليه قلوب المريدين لما أحبه الله، ويغلق الناس حوانيتهم ولم يتخلف من الحضور إلا قليل، (فَلم يبْق فِي دمشق من يَسْتَطِيع المجيء للصَّلَاة عليه إِلَّا حضر

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٨١).

(٢) المصدر السابق

(٣) العقود الدرية في مناقب ابن تيمية (ص٣٨٤).

لذَلِك وتفرغ لَهُ حَتَّىٰ غلقت الأسواق بِدِمَشْق وعطلت معايشها حِينَئِذٍ وَحصل للنَّاس بمصابه أمْر شغلهمْ عَن غَالب أمورهم وأسبابهم وَخرج الأمراء والرؤساء وَالْعُلَمَاء وَالْفُقَهَاء والأتراك والأجناد وَالرِّجَال وَالنِّسَاء وَالصبيان من الْخَواص والعوام.

قَالُوا وَلم يتَخَلَّف أحد من غَالب النَّاس فِيمَا أعْلَم إِلَّا ثَلَاثَة أنفس كَانُوا قد اشتهروا بمعاندته فاختفوا من النَّاس خوفًا علىٰ أنفسهم بِحَيْثُ غلب علىٰ ظنهم أنهم مَتىٰ خَرجُوا رجمهم النَّاس فأهلكوهم)[1].!

(وحضر جمع كثير إلىٰ القلعة، وأذن لَهُمْ فِي الدُّخُولِ عَلَيْهِ، وَجَلَسَ جَمَاعَةٌ عِنْدَهُ قبل الغسل وقرأوا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم انصرفوا، ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن)[2]. حتىٰ اكتظ الناس واقتصروا علىٰ من يغسله ويعين في غسله، فلما فرغوا أرادوا إخراجه (وَقد اجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلىٰ الجامع وامتلأ الجامع أيضًا وَصَحْنُهُ وَالْكَلَّاسَةُ وَبَابُ الْبَرِيدِ وَبَابُ السَّاعَاتِ إِلَىٰ باب اللبادين والغوارة)[3]. ولما كثر الناس صلي عليه مرات ومرات: (وَصُلِّيَ عَلَيْهِ أَوَّلًا بِالْقَلْعَةِ)[4]. ثم: (بالجامع الأموي الخطيب، وبظاهر البلد أخوه زين الدين،

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٨٣).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ١٣٥).

(٣) العقود الدرية في مناقب ابن تيمية (ص٣٨٤).

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ١٣٦).

وكان الجَمع وافرًا إلىٰ الغاية)[1]. حتىٰ إن الجند لما وضعوا الجنازة كانوا (يحفظونها من النَّاس من شدَّة الزحام)[2]. فلما صلي عليه بالجامع (وَحمل من بَاب الْبَرِيد وَاشْتَدَّ الزحام وَألقىٰ النَّاس علىٰ نعشه مناديلهم وعمائمهم للتبرك وَصَارَ النعش علىٰ الرؤوس تَارَة يتَقَدَّم وَتارَة يتَأَخَّر وَخرج النَّاس من الْجَامِع من أبوابه كلهَا من شدَّة الزحام وكل بَاب أعظم زحمة من الآخر.

ثمَّ خرج النَّاس من أَبْوَاب الْبَلَد جَمِيعهَا من شدَّة الزحام لَكِن كَانَ الْمُعظم من الْأَبْوَاب الْأَرْبَعَة بَاب الْفرج الَّذِي أخرجت مِنْهُ الْجِنَازَة وَمن بَاب الفراديس وَمن بَاب النَّصْر وَبَاب الْجَابِيَة وَعظم الْأَمر بسوق الْخَيل.

وَتقدم فِي الصَّلَاة عَلَيْهِ هُنَاكَ أَخُوهُ زين الدّين عبد الرحمن)[3].

(قَالَ أحدهم وَكنت أَنا قد صليت عَلَيْهِ فِي الْجَامِع وَكَانَ لي مستشرف علىٰ الْمَكَان الَّذِي صلي فِيهِ عَلَيْهِ بِظَاهِر دمشق فَأَحْبَبْت أن أنظر إِلَىٰ النَّاس وكثرتهم فَأَشْرَفت عَلَيْهِم حَال الصَّلَاة وَجعلت أَنْظُر يَمِينا وَشمَالًا وَلَا أرىٰ أواخرهم بل رَأَيْت النَّاس قد طبقوا تِلْكَ الأرض كلهَا.

---

(١) الدرة اليتيمة في السيرة التيمية. من كتاب ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية للحافظ الذهبي ص(١١١).

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية (ص٣٨٦).

(٣) المرجع السابق.

وَاتفقَ جمَاعَة من حضر حِينَئِذٍ وَشَاهد النَّاس والمصلين عَلَيْهِ علىٰ أنهم يزِيدُونَ علىٰ خمسماية ألف.

وَقَالَ العارفون بِالنَّقْلِ والتاريخ لم يسمع بِجنَازَة بِمثل هَذَا الْجمع إِلَّا جَنَازَة الإمام أحْمَد بن حنبل ﵁.

-ثمَّ حمل بعد ذَلِك إِلىٰ قَبره فَوضع وَقد جَاءَ الْكَاتِب شمس الدّين الْوَزير وَلم يكن حَاضرًا قبل ذَلِك فصلىٰ عَلَيْهِ أيضا وَمن مَعَه من الأمراء والكبراء وَمن شَاءَ الله من النَّاس.

وَلم ير لجنازة أحد مَا رئي لجنازته من الْوَقار والهيبة وَالْعَظَمَة وَالْجَلالَة وتعظيم النَّاس لَهَا وتوقيرهم إِيَّاهَا وتفخيمهم أمْر صَاحبهَا وثنائهم عَلَيْهِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ من الْعلم وَالْعَمَل والزهادة وَالْعِبَادَة والإعراض عَن الدُّنْيَا والاشتغال بالآخرة والفقر والإيثار وَالْكَرم والمروءة وَالصَّبْر والثبات والشجاعة والفراسة والإقدام والصدع بِالْحَقِّ والإغلاظ علىٰ أعداء الله وأعداء رَسُوله والمنحرفين عَن دينه والنصر لله وَلِرَسُولِهِ ولدينه ولأهله والتواضع لأولياء الله والتذلل لَهُم والإكرام والإعزاز والاحترام لجنابهم وَعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها وَنَعِيمهَا ولذاتها وَشدَّة الرَّغْبَة فِي الآخر والمواظبة علىٰ طلبِهَا حَتَّىٰ لتسمع ذَلِك وَنَحْوه من الرِّجَال وَالنِّسَاء وَالصبيان.

وكل مِنْهُم يثني عَلَيْهِ بِمَا يُعلمهُ من ذَلِك وَدفن فِي ذَلِك الْيَوْم ﵁ وأعاد علينا من بركاته)[1].

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٨٥).

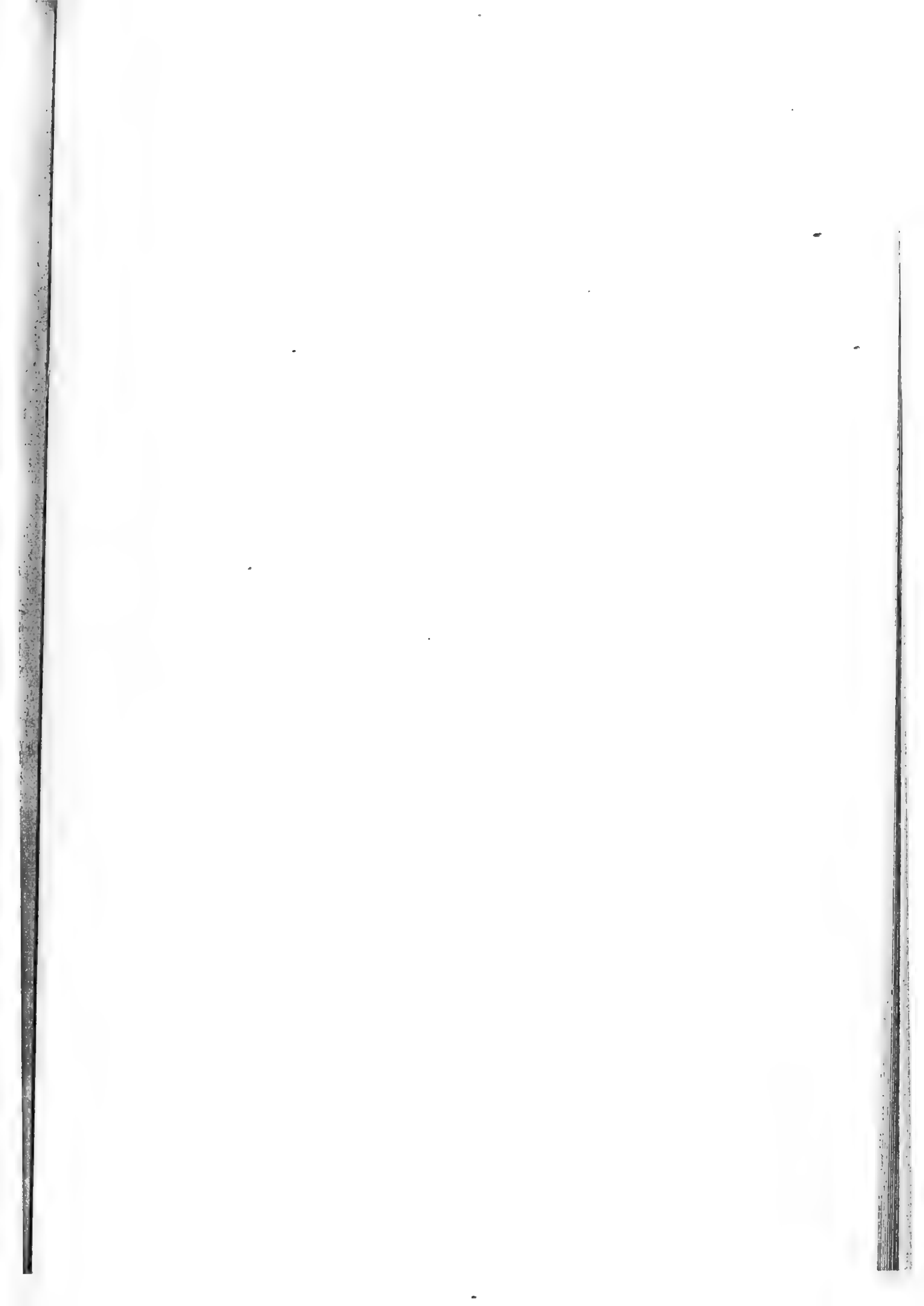
ولم يزل الناس يتوافدون علىٰ و(يتناوبون قَبره للصَّلَاة عَلَيْهِ من الْقرىٰ والأطراف والأماكن والبلاد مِشَاة وركبانًا.

وَمَا وصل خبر مَوته إلىٰ بلد فِيمَا نعلم إلا وَصلي عَلَيْهِ فِي جَمِيع جوامعه ومجامعه خُصُوصًا أرْض مصر وَالشَّام وَالْعراق وتبريز وَالْبَصْرَة وقراها وَغَيرهَا)[1]. و(وَرُئِيَتْ لَهُ مَنَامَاتٌ صالحة عجيبة)[2]، ودفن الإمام في مقابر الصوفية بدمشق، ودفن معه سره المكتوم، وكان الله بالسر عليمًا!

---

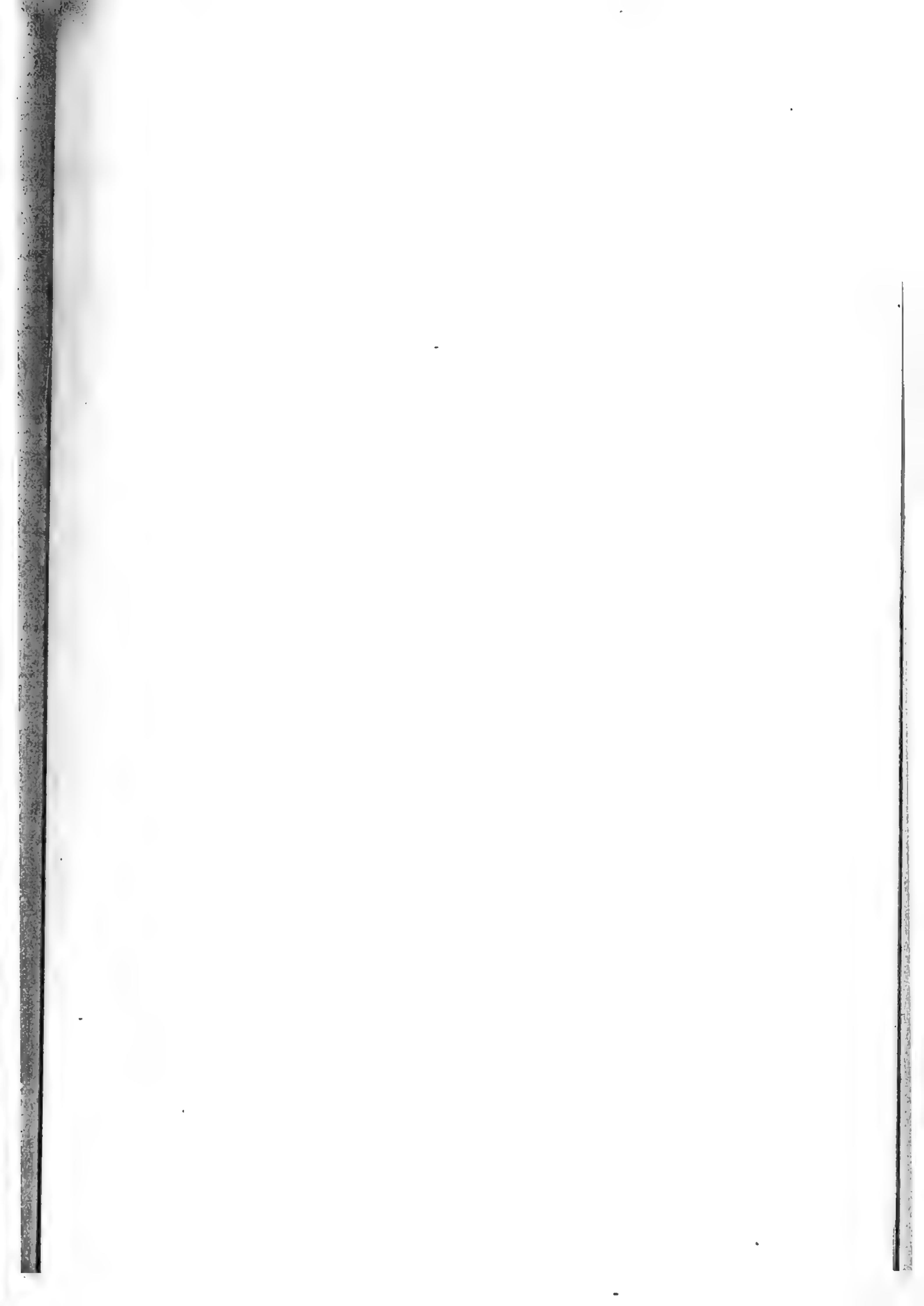
(١) المصدر السابق (ص٨٦).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ١٦٠).



الملحق

الاشتغال الصوفي - السلفي بالإعلام



الإعلام والترويج

عندما نتحدث عن الإعلام، فإننا نتحدث عن أية وسيلة يمكن من خلالها نشر المعلومات، لذلك سنجد أن هذه الوسائل تختلف من زمن لآخر، فمن الشعر والحمام الزاجل إلىٰ مواقع التواصل الاجتماعي، كلها وسائل استخدمت في نشر المعلومات والترويج للأفكار!

لكن علىٰ هذا المفهوم الذي يقتضي أن الإعلام هو مجرد وسيلة لنقل الوقائع والمعلومات، فيكاد يكون وهمًا لأنه من الملاحظ جدًا أن الإعلام المجرد ليس حاضرًا أبدًا، حتىٰ طبقًا للفلسفة الإعلامية الليبرالية التي تقوم علىٰ موضوعية نقل الأخبار والحقائق، فتقدمها مجردة دون إضافة أو إبداء رأي أبدًا، تقريبًا كطريقة الطبري في تاريخه.

إذن ما هي صورة الإعلام اليوم؟

صورة الإعلام اليوم هي صورة مركبة بين نقل الخبر عبر الوسائل وتغليفها بغلاف الدعاية (Propaganda)، يقوم كل من (Grath S.Jowett) و(Victoria O'Donnell) بتقديم تعريف لمصطلح الدعاية: (الدعاية هي صورة من صور التواصل التي من شأنها أن

تحقق الوصول لردة فعل تعزز مقصد المروج للدعاية وراء قيامه بها)[1].

إذن، الإعلام اليوم هو عبارة عن وسيلة لإيصال فكرة أو معلومة أو أيديولوجيا المعلن أو المعلم، ليستطيع من خلالها إقناع الشريحة الأكبر من الناس، يمكنك أن ترىٰ هذا بارزًا من خلال متابعة عدة قنوات إخبارية تغطي خبرًا واحدًا في وقت واحد، لتخرج بثلاث وجهات نظر متعارضة!

• تاريخ موجز عن الإعلام والترويج بين الصوفية والسلفية:

لن نستعرض كل التاريخ الصوفي والسلفي وصور الإعلام والترويج فيه، لأن هذا يحتاج لتتبع وتأريخ يصعب بسطه هنا، ولكننا سنلقي نظرة علىٰ بدايات الإعلام والترويج للمعتقدات الصوفية والسلفية ابتداء من زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، علىٰ اعتباره شكل نقلة نوعية ومفصلية في خريطة الدعوة الإسلامية المعاصرة، ونقلة نوعية في صور التصادم مع الحركة الصوفية في زمانه لتواجد الدولة العثمانية في ذلك الوقت.

• الدولة العثمانية ومحمد بن عبد الوهاب:

مرت الدولة العثمانية بعدة محاولات لإحداث حركة إصلاحية

---

(١) "Propaganda is a form of communication that attempts to achieve a response that furthers the desired intent of the propagandist". Propaganda and Persuasion, Fifth Edition , pg,1

سلفية، ابتداء من محمد بن بير علي البركوي، وانتهاء بحركة قاضي زاده التي تم القضاء عليها نهائيًا مع فشل الحملة علىٰ فيينا عام ١٠٩٤هـ[١]، بعد ذلك دخلت الدولة العثمانية فيما يعرف بعهد الركود، ولا يمكن أن تحدد له بتاريخ زمني دقيق إلا أنه قد يمتد من بداية حصار مدينة «ويانة» وسقوطها في أيدي النمساويين وعزل الصدر سليمان باشا ومن ثم قتله، الذي أدىٰ إلىٰ أن يخرج القرار من داخل البلاط العثماني بعزل السلطان محمد الرابع عام ١٠٩٩هـ بعد أن امتد حكمه أربعين سنة ونيف، منيت فيه الدولة العثمانية بهزائم وخسرت مساحات شاسعة من أراضيها وينتهي بعد أن تم القضاء علىٰ الإنكشارية.

في هذا العصر دخلت الآلة الطابعة إلىٰ الدولة العثمانية بشكل رسمي، وكانت قد ظهرت في صورتها الجديدة علىٰ يد يوهان غوتنبرغ في عام ١٤٥٥، وتشير الدراسات إلىٰ أن بعض اليهود أدخلوا الآلة الطابعة إلىٰ الدولة العثمانية بعد ظهورها في أوروبا بثلاث وثلاثين سنة، ولكن هذه المحاولات كلها لم تكن إلا محاولات فردية، وتأخر دخول الآلة الطابعة بشكل رسمي وإنشاء دار للطباعة إلىٰ قريب المئتي سنة، أي في عصر الركود العثماني، ومع هذا بقي الاعتماد علىٰ الكتابة اليدوية اعتمادًا أساسيًا.

علىٰ الجنوب من عاصمة الدولة العثمانية، وفي الجزيرة

---

(١) انظر: عثمانيون وسلفيون: حركة قاضي زاده بين محاربة التصوف والعودة إلىٰ عهود السلف، أوراق نماء (٧٩).

العربية خصوصًا، كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في أوج نشاطها وقامت عاصمة الشيخ في الدرعية، وبدأت بالتوسع وحصلت صدامات بينه وبين الدولة العثمانية، إلىٰ أن وقعت الملحمة الكبرىٰ بين الشيخ وبين محمد علي باشا بعد أمر من السلطان مصطفىٰ الرابع ، وسقطت الدولة السعودية الأولىٰ بعيد وفاة الشيخ بسنوات ونكل بأعلامها شر تنكيل.

- **وسائل الترويج والإعلام الصوفي من الدولة العثمانية إلىٰ اليوم:**

لطالما كان الفن يأخذ الحيز الأكبر في التاريخ الصوفي، فالموسيقىٰ والغناء والطرب كلها تعد من أهم الوسائل الإعلامية لترسيخ المعاني الصوفية التي تتمثل في الجمال والجلال والاتصال والذكر ومدح النبي وآله، والتوسل بهم، والاستغاثة بالأولياء، وتهذيب النفس والسلوك، وغير ذلك من العقائد والمعاني التي ترسم لنا التصوف.

كذلك الأمر كان في الدولة العثمانية، فكانت الطرق الصوفية تقيم الموالد وجلسات الطرب والذكر، وتستخدم عنصر الفن والموسيقىٰ بشكل أساسي، وكان هذا العنصر له التأثير الأقوىٰ بلا شك في نشر العقائد الصوفية والطرق، بل إن هذا التأثير يجد صداه بارزًا وواضحًا في الوسط الغربي.

من الوسائل التي كانت منتشرة هناك، هي المواكب الصوفية، فيخرج المريدون خلف شيخهم ويحملون رايات الطريقة الصوفية

ويجوبون الحواري والأزقة في المدينة ومعهم الطبول ويرفعون أصواتهم بالذكر والأناشيد.

ولا يجب علينا أن نغفل أيضًا، عنصر التراث المعماري ففي عصر المماليك كانت الخنقاوات تعد المنشأة الدينية الخاصة بالتصوف، وبعد قيام الدولة العثمانية قامت التكيات[1] مقام الخنقاوات المملوكية، وكانت تمتاز أيضا بالجمال العمراني والزخرفة واختيار الأماكن الطبيعية التي تضفي علىٰ القلب والنفس البهجة والسرور والارتياح والطمأنينة، وكلها من مظاهر الاهتمام بالجمال عند الصوفية.

وإذا عدنا قليلًا إلىٰ الحركة الإصلاحية السلفية للقاضي زاده، سنجدها كانت تهتم جدًا بإخماد هذا اللون من ألوان التراث الصوفي إن صح التعبير، لما كان له من أثر مهم في ترسيخ العقائد الصوفية وتثبيتها في أنفس الناس، العامة منهم خاصة!

هذا كله كان إلىٰ جانب حركة التأليف والتصنيف، ولكن لا يمكن أن نعدها من العناصر الفعالة في ترسيخ الدعائم الصوفية، لأن الحركة الصوفية هي حركة تعتمد علىٰ الوجدان والعاطفة وشيء ما من المثالية، ثم يأتي بعد ذلك الحوار العقلي الفلسفي كمدعم لهذه الحركة.

---

(١) جمع تكية، وهي من المنشآت الدينية الخاصة بالمنقطعين للعبادة من المتصوفة ولها أغراض أخرىٰ كمساعدة عابري السبيل وغير ذلك.

تمتد هذه الفلسفة الدعائية الإعلامية من هناك إلىٰ تاريخنا المعاصر، لنلحظ انتشارًا واسعًا لأشرطة الأناشيد الصوفية بمختلف صورها، التي تصحبها المعازف، أو الدفوف أو الخالية من هذه وتلك. وهذا التنوع في رأيي إنما جاء استجابة لعاملين أساسيين:

الأول: طروء حركة تصحيحية داخل التيار الصوفي، دعت إلىٰ نبذ البدع وتحريم المعازف مع الإبقاء علىٰ الأطر الصوفية العامة.

الثاني: أن قوة الخطاب السلفي القاضي بتحريم المعازف، دفعت بعض الصوفية إلىٰ محاولة الابتعاد عن مواطن الخلاف رغبة في كسب مساحة أوسع بين عوام المسلمين.

مثلًا: نجد في مصر أن الإنشاد الصوفي كان يحتل مكانًا مهمًا بين العوام والخواص، وتقام له المجالس والموالد في القرىٰ والمدن الكبرىٰ وعند الأضرحة وما زال هذا التقليد متواصلًا إلىٰ اليوم حتىٰ أصبح ثقافة شعبية نجدها بارزة حتىٰ في المسلسلات والأفلام، والذي يلفت الانتباه إلىٰ أن أعلام الإنشاد الصوفي في مصر هم مقرئون في الأصل، أمثال محمد عمران وطه الفشني ونصر الدين طوبار وغيرهم، إلا أن الحرفية في الإنتاج والإعلام كانت ضعيفة مقارنة بغيرها من الفرق الإنشادية في البقاع الأخرىٰ من الدول الإسلامية، فكانت هذه الأناشيد غالبًا ما تذاع في قنوات الإعلام الرسمي دون تخصيص منابر مخصصة لهذا النوع من أنواع الفنون الصوفية.

نتقل إلىٰ الشام -فرج الله عنها وعن أهلها- لنجد ظهورًا قويا لفرق وأعلام الإنشاد الصوفية، إما تصريحًا بانتسابها للتصوف، أو شكليًا كاتباع للطريقة السائدة في الغناء الصوفي، وعلىٰ سبيل المثال: حسن حفار، منذر سرميني المشهور بأبي الجود، محمد الأمين المشهور بأبي محمود الترمذي، نور الدين خورشيد، فرقة أبي أيوب الأنصاري المشهورة بفرقة الإخوة أبي شعر، عماد رامي، ماهر زين، وغير ذلك من الفرق والمنشغلين بالإنتاجات المرئية والمسموعة للأناشيد الصوفية، التي تعزز الفكر الصوفي بكل صوره من الغلو إلىٰ التوسط والاعتدال، ويميز هذه الفرق تطويرها للأداء والأدوات المستخدمة لتواكب العصر والمسلتلزمات الإنتاجية العصرية.

وهذه الحركة الشامية في الإنشاد شكلت نقلة نوعية في الوسط الفني الصوفي بعد تأسيسها لقناة: «الصوفية» وهي من أشهر القنوات المتخصصة في نشر الثقافة الصوفية عبر الأناشيد والغناء الصوفي.

وهكذا الحال مع جميع البقاع التي تنتشر فيها الخريطة الصوفية، ستجد الإنشاد مقترنًا بالوجود الصوفي هناك.

ولم يقف الحال إلىٰ هنا، بل التفت السلطة الرسمية حول هذه النشاطات والتقاليد التي عادة ما تسمىٰ بالموالد، وحظيت باهتمام رسمي واسع ابتداء من رجال الدين والمؤسسات الدينية الرسمية وعلىٰ رأسها الأزهر، وانتهاء بالدعاة علىٰ الصعيد الشعبي، بل إن

بعض المؤرخين ذكر أن نابليون بونبارت دعم المولد وتكفل بنفقاته وأمر الشيخ البكري بإحيائه[1].

إلىٰ جانب هذا الاهتمام بالأناشيد كان الاهتمام أيضًا بمجالس التعليم والندوات التي أقيمت لإرساء دعائم الفكر الصوفي، وهذه الندوات والاجتماعات لم يكن ليغيب عنها عنصر الإنشاد الصوفي ما يجعلنا نركز الضوء عليه باعتباره من أهم وسائل الدعاية والإعلام والإقناع عند الحركة الصوفية.

• مراحل المحتوىٰ الترويجي والإعلامي الصوفي المعاصر:

هذه كانت الصورة بشكل عام إلىٰ وقت قريب، حتىٰ طرأ عليها تغير قوي ملحوظ في الطرح والأسلوب لتنتشر الحركة الصوفية تحت العباءة الأزهرية وتفتتح قنوات تلفزيونية لتقدم طرحًا جديدًا يخلط بين العاطفة التقليدية والتناول العلمي لمسائل النزاع التقليدي مع الخصوم، السلفيين خصوصًا.

تقوم التيارات الصوفية اليوم باستخدام الوسائل الإعلامية المَرئية ووسائل التواصل الاجتماعي لنشر دعوتها وتلميع صورتها ومحاولة الحصول علىٰ قابلية جماهيرية لها بين المجتمعات الإسلامية..

---

(١) نقل ذلك بعض الباحثين عن عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المصري المعروف.

وهذا الاستخدام يمر بأربع مراحل:

١- الطرح العام.

٢- الطرح الخاص.

٢- الهدم الممنهج.

٣- تقديم البديل.

هذه العناصر الأربعة ستكون محل دراستنا في هذا الفصل من الكتاب، وسنحاول أن نستقرئ أبرز وجوه الطرح الصوفي ونحاول أن نحلل خطابهم الموجه، ومراحل التطور في هذا الخطاب عبر المراحل التي وضعناها آنفًا.

• مرحلة الطرح العام:

وأعني بالطرح العام تناول المواضيع والمسائل العامة التي هي محل اتفاق بين جميع المدارس، كمسائل السلوك والمسائل العقدية الأصلية كمسائل الربوبية، أو المسائل الفقهية الفرعية.

وهذه المرحلة مازالت مستمرة ولكنها كانت في أوجها في بدايات الظهور الإعلامي الصوفي، وخفتت الآن بعد طغيان المراحل الأخرىٰ علىٰ هذه المرحلة، وسنلحظ هذا عبر دراسة البرامج دراسة موسعة وتاريخية.

• مرحلة الطرح الخاص:

وأعني بالطرح الخاص، تناول المواضيع والمسائل ذات

الحزازية والحساسية بين التيار الصوفي والسلفي، كمسائل البدعة والتوسل والقبور والاستغاثة وربما الأسماء والصفات، ومحاولة تقديم الحجج والبراهين علىٰ صدق المعتقد الصوفي، وليس بالضرورة أن يكون هذا الطرح علىٰ شكل مناظرات أو أن يكون فيه ذكر للمخالف، إنما يكتفىٰ التلميح كقولهم: (يقول بعضهم . . .)، (بعض المتعصبين في زماننا . .) ونادرًا ما نجد تصريحًا بذكر اسم السلفيين في أثناء طرح هذه المسائل.

وأيضا سنلاحظ أن التيار الصوفي هنا، سيبدأ باتخاذ بعض المواضيع التي ليست ضمن الأبجديات السلفية، كحرية المرأة ومكانتها في الإسلام، كنوع من عوامل التقارب والتصالح وتحسين الصورة أمام المجتمع.

وهذا الاتخاذ إنما هو لردم هوة الفارق بينه وبين أطروحات السلفية المعاصرة، ومحاولة التفوق علىٰ ما تطرحه هذه السلفية من مواضيع تثير اهتمام الناس.

- **مرحلة الهدم الممنهج:**

وأعني بالهدم الممنهج الطرح الذي يعتمد علىٰ التشويه والتعييب وذكر المساوئ والتشهير بالآخر، إما بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة.

- **مرحلة البديل:**

وهذه المرحلة بدأت قريبًا بعد أن استوت تلك المراحل

وبلغت ذروتها، فأصبح التيار الصوفي يقوم بالترويج لنفسه كبديل بعد الإخفاقات المتتالية للتيارات الإسلامية وعلىٰ رأسها السلفية، وهذه الطريقة تتسم بأمور:

١- لبس العباءة الأزهرية، فالبديل الصوفي يطرح نفسه كبديل عبر المؤسسة الأزهرية.

٢- أن البديل الصوفي يقوم بتناول مواضيع ذات صلة بالتيار السلفي كمسائل التكفير، ويحاول أن يقوم بتحقيقها تحقيقًا علميًا وأن يثبت وصايته علىٰ الفهم الديني للنصوص والمسائل بطريقة قد تكون غير مباشرة، كي يقوم بتهميش التيار السلفي علميًا.

٣- أن البديل الصوفي يقوم بتصدر المشهد الإسلامي - العلماني، ليقدم نفسه كممثل حصري للدين الإسلامي، فيبدأ بمناقشة الأفكار العلمانية والحداثية والليبرالية تحت مسمىٰ الدين الصحيح أو الوسطي(١).

- **مرحلة الطرح العام:**

وهي تعد من أطول المراحل التي مرت فيها التجربة الإعلامية الصوفية، ويمكن التأريخ لها مع بدايات قناة اقرأ أي حوالي بداية الألفية الثانية، وبدأت مع مجموعة من البرامج للحبيب الجفري ومعز مسعود وحمزة يوسف ومصطفىٰ حسني ومحمد السقاف

---

(١) وكلمة الوسطي: هي لفظة ليست محل اتفاق بين التيار الصوفي فمنهم من لا يرىٰ صحة التقسيم: الدين الوسطي - الدين المتطرف.

وأحمد حسون ومحمد سعيد رمضان البوطي وآخرين.

تركزت هذه المرحلة علىٰ إفشاء معاني الحب والجمال والأنس والجلال وتهذيب النفس والسلوك والأخلاق والصفات الحميدة والأمور العقدية المجملة من إثبات وجود الله تعالىٰ ووحدانيته، وقليل من التطرق إلىٰ المسائل الخلافية بشكل عام.

من أهم برامج هذه المرحلة هي مجموعة البرامج التي قدمها الحبيب الجفري، حيث هنا تشكلت الهالة الأولىٰ حول شخصية الجفري، وقد سجل العشرات من الحلقات في الحديث عن السلوك وفضائل الأخلاق ومحاسن النفس وتهذيبها.

وتمتاز هذه البرامج بابتعاده عن أي طرح فقهي أو عقدي في المجمل، وتركيزه علىٰ معاني الجمال والانكسار والروحانية والأنس بالله التي هي من أهم مكونات الشخصية الصوفية.

سنجد أيضًا أن الحبيب الجفري سيحافظ علىٰ مكونات كاريزمية خاصة من اللباس والهيئة الصوفية، ويتكون من الثوب الأبيض والعمامة وخاتم باليد وخرقة علىٰ الكتف وربما زيد عليها عصا، وهذه الهيئة واللباس سنجد أنها من المكونات المتكررة معنا في جميع المراحل التي مر بها الجفري عبر الإعلام.

وسيحافظ أيضًا علىٰ الهدوء في الكلام، وهذا الهدوء سوف يتسم بتغير مواكب للتغيرات المرحلية التي ستمر بها الحركة الصوفية الإعلامية.

أيضًا؛ الرقة في الصوت والكلمة والاهتزاز العاطفي في نبرة الكلام له تأثير مهم في المستمع ليضفي قيم الخوف والوجل والانكسار الذي له ارتباط بالطرح الصوفي بشكل قوي جدًا.

وهذه البرامج بلا مبالغة شكلت حالة من حالات الإنعاش للتيار الصوفي بعد أن بدأت أعراض الموت تظهر عليه، لقوة ظهور المكون السلفي الإعلامي في هذا الوقت الذي تصدر المشهد وهمش معه باقي التيارات.

وشكلت بعض البرامج الأخرىٰ إلىٰ جانب برامج الحبيب الجفري قنوات أخرىٰ لتدعيم الفكرة نفسها التي طرحت في برامج الجفري.

مثلًا نجد أن معز مسعود شكل العامل الحضاري في الطرح الصوفي كونه لم يلتزم بالهيئة الصوفية كما التزم بها الجفري إلا أنه حافظ علىٰ موضوع الرسالة، واستخدم عامل اللغة أيضًا، فكانت برامجه تقدم باللغة الإنجليزية.

وفي الاتجاه الآخر، لمحاولات التأكيد علىٰ عالمية الحركة الصوفية وحضورها في الوسط الغربي يظهر حمزة يوسف الأمريكي بلسانه العربي في برنامجه علىٰ قناة الأم بي سي بعنوان (رحلة)، قام من خلالها بالتطرق لمواضيع مختلفة عامة بأسلوب شبابي، وسنجد أنه كان المؤثر الأقوىٰ لإظهار برنامج خواطر (لأحمد الشقيري).

هذه البرامج العامة التي كانت تبث هذه الأفكار العامة عن السلوك والأخلاق الحميدة وبعض المواضيع الشبابية العامة

بأسلوب عصري أو تقليدي كلها كانت تمثل الصورة العامة للطرح الصوفي في هذه المرحلة الأولية، وهي مرحلة وإن كانت أولية إلا أنها ما زالت ممتدة إلىٰ الوقت الحاضر مع تفاوت في احتلال مكانة الاهتمام عند الطرح الإعلامي الصوفي المعاصر.

● **المرحلة الثانية: مرحلة الطرح الخاص:**

بعد تأسيس موطئ قدم للإعلام الصوفي وانتشار الأفكار العامة هنا وهناك، بدأت بوادر المرحلة الثانية بالظهور، وبدأ الحديث عن بعض المواضيع الخاصة التي قد تكون محل لغط بين الصوفية والسلفية، أو محل تهميش من السلفية.

نجد الحبيب الجفري، يبدأ برفع راية حرية المرأة في الإسلام ومكانتها السامية، ويبدأ بالتركيز علىٰ هذا الجانب في كثير من أطروحاته التلفازية كبرنامج (الميزان) علىٰ قناة اقرأ، و(برنامج الطريق إلىٰ الله) علىٰ قناة دريم، وغير ذلك من البرامج التي قدمها الحبيب والتي حملت في طياتها مناقشة مواضيع كانت محل جدل أو تهميش في الخطاب الإسلامي.

وأيضًا تناول الجفري الكثير من المواضيع ذات الجدل السلفي الصوفي كالتوسل والاستغاثة والبدعة .

تبدأ بعض البرامج أيضًا تظهر في طرحها للمواضيع الأكثر مركزية في الصراع السلفي الصوفي، كمسائل البدعة والغناء والمعازف والتوسل، ويكون من أبرز من قام بطرح هذه الفكر هو

مصطفىٰ حسني في برنامجه (خدعوك فقالوا) الذي أذيع علىٰ قناة اقرأ.

لتصل هذه المرحلة بعد ذلك إلىٰ ذروتها بإقامة برامج متخصصة لتناول هذه المواضيع، ويبرز نجم الحبيب الجفري وأسامة الأزهري في جميع هذه المواضيع ليصبحا مرجعية أساسية للتيار الصوفي بشكل عام.

هذه المرحلة لم تفارقها تلك الكاريزما الأولية من هيئة ولباس وهدوء في الطرح، بل في كثير من المرات كانت تطرح فكرة الاختلاف المستساغ لهذه المواضيع، فكأن المراد من هذا النوع من أنواع التصادم هو حجز مكان في الحوار إلىٰ جانب المحاور السلفي، وإظهار الرأي المخالف للسائد منذ مدة بخصوص هذه المواضيع.

يجدر بنا الإشارة إلىٰ أن هذا الطرح كانت مكوناته تعتمد علىٰ ثلاثة مكونات أساسية:

الأول: تقديم الاستدلال من الكتاب والسنة، لأنه بطبيعة الحال هذا الخطاب يراد منه تأسيس مخزون محاجّة كاف عند أتباع التيار الصوفي، ومحاولة أخرىٰ أيضًا لكسر الصورة النمطية التي أحيطت بها الصوفية من أنها ليست أكثر من تيار ينطلق من انطلاقات الهوىٰ والبدع دون استناد علىٰ قواعد شرعية واستدلالات صحيحة.

الثاني: أن هذه الأطروحات كانت تشحن وتغلف بغلاف قول

الجمهور في مجمل المسائل، وإلا فالاعتماد علىٰ ابن حجر والنووي، وهذا الاعتماد إنما هو محاولة لتوريط الخطاب السلفي وإيقاعه في تناقض = فالسلفية -عادة- تسلم بأن ابن حجر والنووي من العلماء المعتبرين، فكيف تصف هذه الأقوال التي تبناها كل من ابن حجر والنووي بأنها أقوال بدعية؟ فإما أن يسلم بقولهما أو يرميا بالبدعة! ولكن بطبيعة الحال التيار السلفي يمتلك منهجية معينة في الرد علىٰ هذا، ولكن القصد هو أن التيار الصوفي يعتمد في طرحه علىٰ أسماء ليست محل جدل في الغالب. وهذا المكون سيتطور ليشكل مرحلة الهدم الممنهج.

الثالث: هذه الأطروحات تقدم تحت قاعدة لا إنكار في مسائل الخلاف، فتصور علىٰ أنها من مسائل الخلاف المعتبر، ثم توضع بعد ذلك تحت هذه القاعدة، وهذا لا يناقض ما بدأنا به من وصف المرحلة بأنها ذات طرح خاص وتصادمية، لأن القصد كما سبق هو التصادم غير المباشر.

- **المرحلة الثالثة: الهدم الممنهج:**

مع بداية الاشتغال السلفي الإعلامي بالسياسة وتحوله للانشغال بالتيارات الليبرالية والعلمانية، والالتفات عن التيارات الداخلية، بدأت الحركة الصوفية الإعلامية بالانتقال إلىٰ مرحلة أخرىٰ من مراحل حركتها الإعلامية وهي مرحلة الهدم الممنهج، في هذه المرحلة سنجد أن الصوفية ستبدأ بتغيير اللهجة في طرحها

للمواضيع لتبدأ بتصنيف التيار السلفي بالتيار الشذوذي في الاختيارات الفقهية والعقدية التي تسببت للحركة الإسلامية بكثير من المتاعب، وأن المسائل التي كانت في السابق محل خلاف معتبر، أضحت هذه المسائل المخالف فيها يعد من التطرف والابتعاد عن الوسطية المطلوبة في فهم النصوص الشرعية، وستبدأ الاتهامات للتيار السلفي بأنه يقوم بممارسات خطيرة على المجتمع المتعايش، كمحاولات هدم الأضرحة، وتصوير السلفي على أنه بعبع يقوم بتكفير كل من يخالفه ورميه بالزندقة والتبديع، وسيصور التيار الصوفي نفسه أنه كان الضحية الأساسية لهذه المنهجية السلفية، وستلقى هذه المنهجية رواجًا كبيرًا يعتمد عليه الإعلام الليبرالي العلماني في محاولاته للتشغيب على الرموز السلفية.

كذلك سيعتمد التيار الصوفي هنا على الخلافات الداخلية السلفية، وانعدام الحس الأخلاقي داخل هذا التيار والتقاذف والتراشق بين هذا وذاك، أنت ترى أن مرحلة الطرح العام كان لها الدور الأساسي في الإقناع بصدق هذه الفكرة، وسنأتي بالتفصيل.

- **المرحلة الرابعة: مرحلة البديل:**

بعد أن تشعبت الحركة السلفية، وأطيح بها في كثير من الدول إما بإلصاق بعض تياراتها بداعش، أو السقوط السياسي لارتباطها بشكل أو بآخر بالإخوان كما حدث في مصر، بدأ الإعلام الصوفي يتجه إلى تقديم البديل الأزهري لهذه التيارات التي عاثت في الأرض فسادًا، وهذا البديل سيقوم بالترويج له أسامة الأزهري

بشكل قوي جدًا في برامجه التي يظهر فيها دائمًا مع خيري رمضان، وسيتم استعمال العامل التاريخي الريادي للأزهر الشريف، ولن يتم الخوض في كثير من التفاصيل التي تخص الأزهر كوجود كوادر سلفية خرجت منه أو حتىٰ اتجاه تنويري داخل الأزهر، إنما سيتم الاكتفاء بالنمطية التي خلقتها السلفية حول الأزهر = أنه منبع التصوف في العالم الإسلامي.

هذه المراحل الأربع ستتجلىٰ بوضوح مع كل مواضع النزاع المطروحة والمتداولة بين السلفية والصوفية.

وسنحاول في هذا الكتاب أن ندرس تجليات هذه المراحل عبر تطبيقات علىٰ أمثلة من التنازع السلفي - الصوفي المطروح في الإعلام.

• وسائل الترويج والإعلام السلفي: من زمن الدعوة الوهابية إلىٰ اليوم:

تتمثل الحركة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب بكونها حركة إصلاحية فكرية، لذلك كانت تحاول قدر المستطاع أن تنحي العواطف جانبًا في الناحية العملية، ويمكننا القول بكل أريحية إن هذه الحركة هي حركة نخبوية بحتة، تعتمد علىٰ النخب المثقفة والوجهاء في تدعيم أفكارها، ولا يعني هذا أنها لا تعتني بالعوام، بل للشيخ رسائل مخصصة لعامة المسلمين والأطفال وكيفية تنشئتهم علىٰ العقيدة الصحيحة.

كان أساس الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإعلامي قائمًا على الرسائل والمكاتبات، فكانت رسائله تعد الركيزة الأساسية في الدعاية والإعلام بدعوته وخصائصها، وإذا أخذنا نظرة على رسائله الشخصية فسنجد أنها كانت تتسم بالبعد الجغرافي ابتداء من داخل الجزيرة: القصيم، مكة، المدينة وغيرها من الأماكن، مرورًا باليمن ووصولًا إلى المغرب العربي، فهذا التنوع في محطات الرسائل والمكاتبات يدل على أن الشيخ كان يضع في عين الاعتبار أهمية إيصال الدعوة وأفكارها إلى أوسع مساحة جغرافية ممكنة.

كذلك نجد الشيخ كان يعتمد على المحاورات واللقاءات المباشرة كوسيلة من وسائل الدعاية والإعلام، مما أكسبه ثقة عند وجهاء القبائل وكان لهذه اللقاءات الأثر البالغ في تثبيت ركائز الدولة السعودية الأولى وحشد التأييد لهذه الدعوة.

وتمتد فكرة الرسائل والمكاتبات لتظهر وتنتشر فكرة المطويات التي أخذت حيزًا كبيرًا في الإعلام الدعوي داخل التيار السلفي، خصوصًا في الجزيرة العربية، وفكرة هذه المطوية قائمة على نشر الاعتقاد السلفي بشكل موجز ومركز يسهل تناوله واستيعابه من قبل أكبر شرائح المجتمع.

فمثلًا؛ تجد أن مواضيع المطويات تحوي مسائل في العقيدة والفقه والحديث والأدعية التي تلامس حياة الناس ملامسة قوية حية تواكب المناسبات المتكررة.

وتمتاز هذه المطويات بأمور:

١- شحنها بأدلة الكتاب والسنة، وهذا كان له الأثر القوي في تكوين الصورة النمطية في الربط بين الدليل وبين التيار السلفي وهذه الصورة النمطية ستشكل حجر عثرة أمام الحركة الصوفية في أثناء محاولتها إسقاط التيار السلفي من موقعه.

٢- غالبًا ما تكون النقول عن علماء الدعوة السلفية النجدية، والإمام أحمد والشيخ تقي الدين وتلميذه ابن القيم، الأمر الذي كان يمثل دعاية مهمة لهذه الرموز وأثرًا بالغًا في نفوس الناس والعوام.

٣- أن هذه المطويات غالبًا ما يقوم بنشرها كثير من الناس تطوعًا، لرخص ثمنها وبغية في نشر الخير والمردود الأخروي، علىٰ عكس العوائق التي قد تواجه إن كانت في حال كانت الدعوة مرتكزة علىٰ الكتابات المطولة.

٤- دخلت هذه المطويات في مراحل الترجمة، وتركزت علىٰ لغات أهل الهند وبلاد ستان[1]، حيث الوجود الصوفي يتركز في ذلك المكان، فكانت أشبه بحركة الترجمة المنظمة وذات أجندة واضحة.

---

(١) كلمة ستان هي لفظة فارسية تعني الأرض أو المكان، ونعني بقولنا: بلاد ستان، مجموعة من البلاد في منطقة آسيا الوسطىٰ وجنوب آسيا، كأفغانستان وباكستان وكازاخستان وغيرها من الدول، وربما قرنت مع بعض الأعراق كالبلوش نسبة إلىٰ بلوشستان أو المناطق المتنازع عليها مثل كردستان وسيستان، وفي هذا السياق أعني أن هذه المطويات تم التركيز علىٰ نقلها من اللغة العربية إلىٰ لغات هذه البلدان .

تطورت الطرق الدعائية والإعلامية عند الحركة السلفية ليبدأ التوجه إلىٰ الشرائط المسموعة والانشغال بالتسجيل الصوتي، فظهرت عدة سلاسل صوتية تقدر بمئات الشرائط المتنوعة لتسجل نقلة أخرىٰ في التاريخ الدعائي والإعلامي السلفي، وكان لهذه السلاسل الصوتية الأثر البالغ في انتشار الدعوة السلفية في كثير من الدول والأمصار الإسلامية.

علىٰ سبيل المثال نجد سلسلة الهدىٰ والنور للشيخ ناصر الدين الألباني، وتجاوزت تسجيلات الشيخ ناصر الدين الألف شريط، إلا أنها اتسمت بنوع من التطوير للإعلام السلفي، فقد كانت هذه الشرائط تتسم بعدة مزايا مهمة جدًا:

١- أن أغلب هذه التسجيلات كانت تسجيلات عفوية، فهي عبارة عن تسجيل لمجالس الشيخ الألباني مع ضيوفه وتلامذته وخصومه، وهو ما جعل هذه السلسلة تحمل الكثير من المواضيع المختلفة التي لا يمكن أن تفهرس علىٰ أبواب فقهية أو عقدية مخصصة.

٢- أكثر هذه الشرائط إنما كانت تحمل عنوانًا واحدًا عريضًا: الدعوة السلفية، فكانت جلسات الشيخ ناصر الدين كلها تنطلق من هذا المنطلق وهو محاولة إيصال فكرة الدعوة السلفية التي تدعو للكتاب والسنة بفهم السلف الصالح، وكان للشيخ الألباني الأثر المركزي في إيصال هذه الدعوة إلىٰ كثير من البيوتات الإسلامية.

٣- يلاحظ أن كثيرًا من هذه الشرائط تحوي ما يعرف

بالسؤالات، وهي أن يأتي شخص من بلد من البلاد حاملًا معه أسئلة أهل بلده فيطرحها علىٰ الشيخ وتسجل هذه الأسئلة علىٰ طريقة المحاورة بين الشيخ والسائل، فربما تشعب السؤالٓ ليتحول الشريط إلىٰ إلمام كامل بالموضوع وحيثياته، فسؤالات الشيخ أبي الحسن المأربي والشيخ أبي اسحاق الحويني، وكذلك أسئلة الحج، وزوار الشيخ من مختلف بلدان المسلمين هي ظاهرة ملاحظة تميز هذه السلاسل الصوتية.

٤- امتازت هذه السلسلة بأنها كانت تلامس الوضع الذي يمر به المسلمون في ذاك الوقت، فمن أفغانستان والإمارة الإسلامية، إلىٰ باكستان والكويت ودخول البرلمان، ثم فلسطين والانتفاضة، والجهاد في الشيشان، والتكفير والهجرة في مصر والأردن، والجزائر، ولقاءات علي بن حاج مع الشيخ ناصر الدين وغير هذه من الجلسات التي كانت تدور فيها النقاشات حول الأوضاع والنوازل التي تمر بها هذه الدول الإسلامية، ونصائح الشيخ للمتناقشين.

٥- كانت هذه التسجيلات بمثابة تجربة عملية للشخصية السلفية القريبة من القلوب، فتجد أن كثيرًا من الشرائط فيها حوارات للشيخ مع صغار طلبة العلم والعوام من الناس، ويمتاز الشيخ بصبره الطويل الذي يحاول من خلاله استنفاد جهده مع المحاور حتىٰ يخلص إلىٰ الفائدة المرجوة من هذا اللقاء.

٦- وهي من أهم الميزات، أن هذه التسجيلات حوت

التطبيق العملي للنظريات السلفية، بمعنىٰ؛ أن القواعد السلفية العامة كقواعد التبديع والتكفير والرد علىٰ المخالف كانت إلىٰ حد قريب قواعد نظرية، ظهر تطبيقها العملي بوضوح في هذه التسجيلات في أثناء تناول الشيخ لكثير من المواضيع ككتابات سيد قطب والإخوان المسلمين وجماعة التبليغ، ومحاورات الشيخ مع الإخوان والمعتزلة والأشاعرة وأنصار حزب التحرير وآخرين.

هذه الميزات التي تميزت بها سلسلة الهدىٰ والنور جعلت من ظهورها طفرة وقفزة في الإعلام السلفي المعاصر بلا شك.

وبقيت هذه الشرائط تحتل مركزًا مهمًا في الإعلام السلفي وطرق نشرها، وظهرت سلاسل مختلفة في المملكة العربية السعودية ومصر، وتميز بعض الدعاة والباحثين السلفيين كالشيخ عبد الرحمن دمشقية وغيره بالتسجيلات والشرائط التي تناولت مواضيع هي محل نزاع بين السلفية والصوفية، حتىٰ إن هذا الأسلوب نجد له أثرًا في بعض الطوائف الصوفية كالأحباش، فظهرت بعض التسجيلات علىٰ الطريقة الألبانية نفسها في التسجيل، كتسجيلات عبد الله الهرري في محاوراته مع أنصار التحرير.

بعد وفاة الشيخ الألباني بسنوات يسيرة بدأت الوجوه السلفية بالظهور بشكل أكبر علىٰ التلفاز، ففي عام ٢٠٠٢ تقريبًا انطلق برنامج علىٰ قناة المستقلة المملوكة للدكتور محمد الهاشمي بعنوان: الحوار الصريح بعد التراويح، هذا البرنامج فكرته إنشاء بيئة حوارية راقية بين الطوائف الإسلامية، فكانت أبرز المناقشات

تدور بين السنة ممثلين بالسلفيين وعلىٰ رأسهم الشيخ عثمان الخميس، والشيعة وعلىٰ رأسهم التيجاني.

هذه الحوارات أحدثت فارقًا مهمًا وملحوظًا في نظرة الناس للسلفيين، ففي الوقت الذي كانت فيه بغداد تستباح بفعل الصفويين والشيعة، لم تكن الأصوات التي تطلق-الإنذارات والتحذيرات من خطر التشيع إلا من داخل الصف السلفي، وعلىٰ هذا نشأت علاقة طردية، فكلما انكشف الغطاء عن التشيع، ازداد اعتقاد الناس بوجوب الالتفاف حول السلفية كونها تشكل حائط صد منيعًا في مواجهة التشيع الفكري، وفي الوقت نفسه تكال الشتائم والاتهامات علىٰ التيار الصوفي كونه يشكل أحد عوامل انتشار التشيع تحت عباءة حب آل البيت.

• التيار السلفي والإعلام المرئي المعاصر:

بدأت القنوات التلفزيونية تتوالىٰ في نشأتها، لتمثل سبقًا للإعلام السلفي وتفوقًا علىٰ نظيره الصوفي الذي تأخرت عنده الحركة التنظيمية للإعلام المرئي والاكتفاء بالظهور علىٰ قنوات متفرقة دون أن يملك إعلامًا رسميًا تابعًا له.

فاستكمالًا لنظرة الدعوة الوهابية بضرورة توسيع الرقعة الجغرافية للدعوة، توالت القنوات التلفزيونية بالظهور، فظهرت في فترات متقاربة عدة قنوات توزع انتشارها بين السعودية ومصر، وكلها كانت تساهم في إخراج الصورة الحضارية والمثالية للشيخ

السلفي، ويمكننا أن نحدد ثلاث مراحل مر بها الإعلام المرئي السلفي:

١- المرحلة الأولىٰ: النشأة والانتشار:

وهذه المرحلة كانت منذ بداية نشأة هذه القنوات السلفية، مع غياب واضح للشاشة الإسلامية الممنهجة، مما رفع من أسهم هذه القنوات ودفعتها للانتشار علىٰ أكبر رقعة إسلامية ممكنة.

اتسمت هذه المرحلة بعمومية الخطاب وتفادي أي نوع من أنواع الطرح غير المشترك بين التيارات الإسلامية.

إذا حاولنا استعراض البرامج التي ظهرت في تلك الفترة سنجدها كانت تشترك في مكونات أساسية، كالمواعظ العامة، الحديث عن أشراط الساعة، فقه العبادات، السيرة النبوية، دروس التجويد والقرآن، الآداب الإسلامية، الأحاديث الإيمانية، التربية الأسرية والإصلاح الأسري، تفسير القرآن، برامج الفتاوىٰ العامة، وغير ذلك من البرامج التي تتسم بالطابع العام غير التخصصي، وقد لاقيت هذه البرامج إقبالًا واسعًا وانتشارًا شاسعًا بين الناس.

فمثلًا؛ نجد أن قناة الحافظ في بداياتها إنما كان هدفها هو نشر ثقافة القرآن وإنشاء مقرأة حديثة تعين الناس علىٰ قراءة القرآن وتصحيح أحكام التلاوة والتجويد دون التطرق إلىٰ أي من المواضيع الأخرىٰ في الغالب.

وكانت هذه المواضيع تطرح بأسلوب مونتاجي مؤثر في

الغالب، كتلك التي انتشرت في قناة الناس والرحمة تحت عنوان: قبسات ونسمات، وهي عبارة عن مقاطع قصيرة ترتب وتجمع وتمنتج علىٰ أسلوب حديث مع إضافة بعض المؤثرات الصوتية من أناشيد.

نلاحظ أيضًا التوازن في الطرح ليشمل جميع أبواب الدين بشكل عام، فظهرت لنا شخصيات أسند إلىٰ كل منها الاشتغال بباب من أبواب الدين، فعلىٰ سبيل المثال: الشيخ محمد حسين يعقوب يمكننا ملاحظة انشغاله البالغ بالتصفية والتربية والسلوك والأخلاق، والشيخ أبو إسحاق الحويني اشتغل بما اشتغل به شيخه الشيخ ناصر الدين الألباني بالسنة النبوية وعلومها وتقديمها بأسلوب مبسط إلىٰ المستمع وهذا أنتج ثقافة عامة بالاهتمام بالسنة وعلومها بعد انتشار القصاصين وضعف الاشتغال بهذا الباب بشكل عام، وهكذا كانت هذه القنوات تحاول تغطية ما أمكن من أبواب الدين علىٰ خلاف التيار الصوفي الذي تكونت أطروحته في البداية من عناوين أساسية.

٢- المرحلة الثانية: مرحلة تدعيم الركائز السلفية واستغلالها في العملية السياسية:

وهذه المرحلة يمكن أن يؤرخ لها مع بدايات الثورات العربية، فبعد أن اشتهرت هذه القنوات الإسلامية ولاقت قبولًا في الشارع الإسلامي بشكل منقطع النظير، بدأت هذه القنوات بتدعيم ركائز السلفية المعاصرة من اهتمام بالخطاب العقدي وتكوين

كاريزما سلفية خاصة، فأصبح خطاب هذه القنوات متخصصًا ومركزًا ومنصبًا علىٰ الأمور المفصلية التي تميز الدعوة السلفية عن غيرها من دعوات التيارات الأخرىٰ.

فبعد انتشار الثورات وتوسع الحريات، بدأت الأفكار المطمورة بالظهور إلىٰ السطح كإنكار السنة النبوية المشرفة، والتشيع في بعض المناطق التي كان غائبًا عنها، والأفكار الليبرالية والعلمانية التي تتعمد مصادمة الشرع وتدعو لفصله عن الدولة وإخماد حركات الإسلام السياسي، وانتقال الإعلام الصوفي إلىٰ مرحلة الطرح الخاص.

هذه التطورات دفعت الإعلام السلفي إلىٰ التفاعل معها، فلم يكن من المعقول أن تتجاهل هذه المؤسسات السلفية الإعلامية الضخمة هذه التطورات الفكرية التي بدأ حر نارها بالاقتراب من التيار السلفي.

فبدأت هذه القنوات بتغيير الخطاب ليصبح خطابًا خاصًا مركزًا، فتظهر البرامج التخصصية في الرد علىٰ منكري السنة ويتصدر المشهد كل من الشيخ مازن السرساوي والشيخ أبو إسحاق الحويني، وكذلك تبدأ حوارات قناة صفا ووصال ليزداد التركيز علىٰ التحذير من خطر التشيع وتحتد النبرة السلفية نوعًا ما تجاه هذه المتغيرات التي عصفت بالساحة الفكرية الإسلامية.

هذا التوجه أكسب التيار السلفي ثقة بين المسلمين لإثباته القدرة علىٰ التكيف مع التغيرات الفكرية، والصمود أمام ما يعصف

بها من شبهات وإظهار الكوادر المتخصصة الرصينة في مواجهتها.

هذه الثقة وهذا الخطاب كان له الأثر البالغ في إحداث تغييرات جذرية في العملية السياسية في البلاد الإسلامية، كظهور بعض الأحزاب الإسلامية السلفية ظهورًا مفاجئًا.

ففي مصر لم يواجه حزب النور أي صعوبة لجمع قاعدة شعبية كبيرة أو التفاف جماهيري حوله، فالترويج له عبر وسائل الإعلام السلفية كان كفيلًا بجمع أكثر من خمس البرلمان في فترة قياسية جدًا، كذلك الأمر كان في تونس والاستقبال الجماهيري للشيخ محمد حسان ومحمد حسين يعقوب والشيخ العريفي وغيرهم من المشايخ ورموز الدعوة السلفية.

في هذه المرحلة تكونت الشخصية السلفية التي عرفت بقوة الخطاب، الثقة، الاعتزاز بالفكر السلفي، الأحقية السلفية في تمثيل الجيل الأول.

٣- المرحلة الثالثة: مرحلة العودة للنقطة الأولىٰ:

بعد وصول التيارات السلفية إلىٰ أوجها وانتشار دعوتها انتشارًا قويًا جدًا، وتغلغلها في الكثير من المؤسسات الرسمية التي قد تعد من المؤسسات الصوفية كالأزهر والمؤسسات الدينية في المغرب وتونس، تعرضت هذه الدعوة إلىٰ هزة قوية جدًا بعد سقوط نظام مرسي والإخوان، وعملية الإغلاق الجماعية للقنوات الإسلامية وانقسام الصف السلفي بين مؤيد للانقلاب وبين معارض له، حدث شرخ كبير في الصف السلفي أثر في صورته

الإعلامية، وهذه المرحلة ظهرت تزامنًا مع المرحلتين التي مر بها الإعلام الصوفي: الهدم الممنهج، طرح البديل.

كان لهذا التوسع والدخول في بعض الأطر السياسية خصوصًا في الساحة المصرية أثرٌ سلبي في الدعوة السلفية، فكان الربط بين السلفية والإخوان المسلمين من أبرز هذه السلبيات، ولذلك كان هذا الربط هو العامل الأساسي في إسقاط السلفية مع سقوط الإخوان، لأن التيار السلفي وضع في موقف لا يحسد عليه: إما الوقوف مع الإخوان وهذا يعني القضاء علىٰ الدعوة تمامًا والتنكيل برموزها، وإما الوقوف مع الانقلاب مما يعني الإبقاء علىٰ بعض المساحات لممارسة الدعوة السلفية ولو كانت هذه المساحات ضيقة وهذا سيخسر الصف السلفي شعبيته بلا شك، وإما الوقوف علىٰ الحياد، وكل الخيارات ستضر بالتيار السلفي إعلاميًا بلا شك ولكن إما أن يكون الضرر كليًا أو جزئيًا، علىٰ إثر هذا انقسم الصف السلفي وانقسمت معه الدعوة السلفية وتشظت وتشتت صورتها في الإعلام، وغالب الدعاة السلفيين آثروا الوقوف علىٰ الحياد مما أثار حالة من السخط العام، وهذا أعادهم للمرحلة الأولىٰ وتعميم الخطاب مرة أخرىٰ دون مواكبة أي تطور سياسي أو فكري علىٰ الساحة، سوىٰ بعض البرامج التي تتحدث عن الإلحاد والتشيع هنا وهناك.

في هذه المرحلة تحديدًا بدأ التيار الصوفي بإظهار نفسه كبديل للفراغ الذي خلفه الإعلام السلفي بعد غيابه المفاجئ من الساحة

الإعلامية، ويظهر هذا جليًا بعد سيطرة التيار الصوفي علىٰ قناة الناس.

• **الإعلام المرئي الضبابي:**

لا بد أن نشير إلىٰ أن الإعلام المرئي الإسلامي في الفترة المعاصرة كان يمكن تصنيفه إلىٰ نوعين أساسيين:

الأول: الإعلام الممنهج: ويتمثل في تلك القنوات التي تتبع أيديولوجيا معينة تبعًا لإحدىٰ المدارس علىٰ الساحة الإسلامية.

الثاني: الإعلام التجاري أو غير الممنهج: ويتمثل في القنوات التي لا تهتم عادة بالمواضيع التي تطرح بقدر اهتمامها بالمشاهد وجلب أكبر قدر من المشاهدين.

وأقرب مثال علىٰ النوع الثاني يمكن أن يتجلىٰ في قناة اقرأ الفضائية.

وانطلاقة هذه القناة كانت في بدايات العام ١٩٩٨م، ولا يمكن تحديد منهجية معينة لهذه القناة، فهي تجمع كثيرًا من الوجوه المتناقضة فكريًا علىٰ شاشة واحدة، ولعلها كانت من أسباب نشوء كثير من القنوات السلفية التي تنبهت لأهمية الإعلام التلفزيوني كوسيلة من وسائل إيصال المعلومة.

• **المسائل الخلافية: طرق الترويج لها ومظهرها علىٰ الإعلام:**

لما كانت هذه التيارات تحمل عقائد وأفكارًا، منها ما يعد أفكارًا مركزية ترسم الخطوط الفاصلة بين التيارات، كان الترويج

لها والدعاية وطرحها بأسلوب أنيق لإقناع المتلقي أمرًا مهمًا وذا أولوية عند هذه التيارات، وهو أمر أخذه الشرع بعين الاعتبار، فالبلاغة القرآنية هي نوع من أنواع الدعاية والترويج للدين الحق الذي يجب أن تغلف بغلافها المناسب.

هنا وفي هذا الفصل سنحاول أن نلقي نظرة علىٰ أهم المسائل التي تعد من مسائل النزاع التقليدي بين السلفية والصوفية، وكيف ظهرت علىٰ إعلام كل منهما وكيف تعومل معها علىٰ ضوء الأبجديات الخاصة لكل تيار.

مسألة التوسل

التوسل إلىٰ الله جل وعلا بأسمائه وصفاته هو محل اتفاق بين الجميع، ولكن القدر المختلف فيه هو التوسل بعباده الصالحين من الأنبياء والمرسلين والأولياء، فهنا وقع الخلاف بين السلفية والصوفية في صحة التوسل بالذوات من عدمه، وننبه إلىٰ أننا لن نتطرق إلىٰ الاستدلال والنظر في المسألة علىٰ المستوىٰ العلمي، إنما محل التحليل هنا الصورة الإعلامية التي قدم فيها كل تيار اعتقاده ورأيه حول المسألة.

• التوسل في الإعلام الصوفي:

ثقافة التوسل بالجاه والذوات، هي من الثقافات السائدة في الوسط الصوفي بشكل ظاهر وواضح، ويكثر ذكرها في الأشعار والغناء الصوفي بشكل واضح، وأسلوب الترويج ونشر ثقافة التوسل إنما كان من هذا الباب لا من خلال الاستدلال المنهجي المبني علىٰ الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال الفقهاء، إنما جاء هذا تابعًا بلا شك، وهي من الأساليب الدعائية السائدة عند الشيعة الإمامية وما يعرف عندهم باللطميات.

تنتشر هذه الثقافة بشكل عام في أكثر الأناشيد الصوفية، لن

تجد أية صعوبة في ملاحظة هذا في أثناء متابعتك لبعض أعمال فرقة أبي أيوب الأنصاري (الإخوة أبو شعر) أو بعض أناشيد مصطفىٰ عاطف في حضرة الحبيب الجفري.

هذه الأناشيد بلا شك هي امتداد للثقافة السائدة عند الصوفية في مركزية السماع عندهم وكونه من أبجديات هذا التيار التي لم يتخل عنها في أي من مراحله بل سعىٰ دائما علىٰ تطويرها.

بعد الترويج لهذه المسألة أصبح علىٰ الصوفية لزامًا أن يقدموا خطابًا شرعيًا مستندًا للأدلة الشرعية ليثبتوا صحة مسألة التوسل وأنه من الدين، وبالتالي يكون ما تم الترويج له في هذه الأناشيد حقًا لا باطل فيه.

يقوم المنطق الصوفي في طرحه لمسألة التوسل علىٰ عدة مرتكزات تتعلق بهذه القضية، يقول الجفري في إجابة له عن سؤال حول التوسل: (أي سؤال شرعي ينبغي قبل الإجابة عليه أن يتصور: من أي أقسام الشريعة؟ ثم يكيف من أي أبواب الفقه مثلا؟ ثم النظر في حكم الله في المسألة، ثم الفتوىٰ وقد تكون مخالفة لحكم الله في المسألة ... ومسألة التوسل من مسائل الفقه: يجوز أو لايجوز .. -مسألة التوسل- ليست من مسائل العقيدة وهذا من الأخطاء الكبيرة التي يقع فيها بعض من يتكلم في العلم في عصرنا، ويجعلونها من مسائل العقيدة والشرك وهذا هراء، سامحوني في العبارة هذا هراء عند أهل العلم سفسطة ..).

هذا الكلام يظهر لنا أول المكونات للمنطق الصوفي في

والتوسل عند السلفية لا يجوز، فهو شرك.

هكذا يسير التسلسل المنطقي عند من يروج رأي السلفيين من الصوفية، ونجد أيضًا أن السلفية لم تتعرض لهذا اللبس الظاهر، فليس كل مخالفة في العقيدة هي من أبواب الشرك بل قد تكون من البدع المحدثة وليست شركا، وليس كل شرك هو شركًا أكبر بل قد يكون أصغر وهكذا.

وهذا الجانب يبين ضعف التحليل الإعلامي والترويجي في تناول الطرح الصوفي من قبل السلفيين.

وعلىٰ كل حال فإن الخطاب الصوفي يشير إلىٰ أن التوسل قد يرتبط بالاعتقاد من جانب لكنهم يرونه جانبًا منتفيًا، يقول الجفري: (الجزء الذي ربما يتصل بالعقيدة فيها غير موجود في نفوس المسلمين، وهو اعتقاد المتوسل بأن المتوسل به ينفع ويضر من دون الله . . .)، فأنت ترىٰ هنا أن الجفري ربط ربطًا تلقائيًا بين المخالفة في العقيدة وتصنيفها علىٰ أنها شرك، فهو يظهر أنه إن صنفنا التوسل علىٰ أنه من أبواب العقائد فمنعه يكون من أبواب الشرك.

يعود السلفيون لإظهار التشدد في باب التوسل وأنه لا مسامحة في القول بجواز التوسل، واستطاع السلفيون أن يقدموا وجهة نظر قوية في قوة العلاقة بين التوسل والاستغاثة، وأن المنع من التوسل يدخل فيه سد الذرائع كونه يفضي إلىٰ الاستغاثة بالأموات وخراب العقائد، لذلك ساد في المجتمعات الإسلامية

ارتباط الشرك والبدع بالصوفية، وهذا كان نتيجة لعدم تعرض الصوفية لهذه الإشكالية الأساسية، وعدم إجابتهم عن سر هذا الترابط بين التوسل والاستغاثة!

يحاول التيار الصوفي في إعلامه التهرب من الإجابة عن هذا السؤال باستخدام مكونه الرابع بأن القول بالتوسل هو قول الجماهير من أهل العلم وأنه لم يشذ في هذه المسألة إلا ابن تيمية وأتباعه، وهذا يطرح سؤالًا علىٰ التيار السلفي: هل جماهير العلماء لم يتنبهوا لهذا الذي تنبهتم له؟

قدمت السلفية جوابًا واضحًا حول هذا التساؤل طبقًا لأبجدياتها:

أولًا: لا بد أن يقيد فهمنا للنصوص بفهم السلف، والإحداث في الدين لا يجوز، وإذا نظرنا إلىٰ مسألة التوسل فلم ينقل عن السلف أنهم توسلوا إلىٰ الله بهذه الطريقة التي يتوسل بها الخلف، فمن شذ عن طريقة السلف هم الصوفية لا السلفية.

ثانيًا: أنه ليس بصحيح ما ينشره الصوفية من أن ابن تيمية هو أول من أحدث هذا القول، بل سبقه بهذا فقهاء الأحناف.

ثالثًا: ينطلق السلفية من نقطة مركزية عندهم تتمثل في أن العبرة بالدليل لا بالأقوال، نحفظ القائل ويرد قوله، فلئن سلمت السلفية جدلًا بصحة نسبة الجمهور إلىٰ الجواز إلا أن هذا الجمهور لا يعد دليلًا علىٰ صحة المقالة.

هذا الجواب التأصيلي عند السلفية، الذي ينطلق من أبجديات السلفية في التعامل مع النصوص الشرعية والمسائل الفقهية والعقدية، كان له الأثر في قلب الدليل علىٰ الصوفية، وعلىٰ الأقل جعل استدلال الصوفية بجمهورية القول استدلالًا محل نزاع.

نلاحظ أنه متىٰ جاءت مسألة التوسل إلىٰ الساحة العلمية قدم التيار السلفي حزمة من الأدلة المترابطة حول الموضوع، هذه الاستدلالات القوية دفعت الصوفية إلىٰ استخدام الطريقة العاطفية في الإقناع، ابتدأت باحترام الخلاف، واستخدام السماع الصوفي، واعتبار التوسل من أدبيات المحبة والعلاقة بين المحب وحبيبه.

في أحد المجالس التي عقدها الجفري في مصر، قام بتقديم صورة حول السلفيين دون ذكرهم باسمهم بدأ بالحديث حول موقف السلفيين من مصير والدي النبي ﷺ، وآل البيت، والصحابة، والتبرك .. ثم يقدم صورة إجمالية عن التيار السلفي فيقول: (لو كانت قضية أبو النبي وأمه فقط، لقلنا مساكين غلطوا ما فهموا النصوص ما فهموا الأدلة، لو كانت قضية أهل البيت وحدهم: مساكين ما فهموا، خافوا من الغلو .. لكن كل المسائل المتعلقة بالنبي؟! .. المسألة وراءها شيء، ليست القضية مسألة عدم فهم للنصوص، هنالك قضية بين القوم وبين سيدنا محمد ﷺ، هذه المسألة. يقولون: نحن نحب النبي، كذبتم! لو أنكم تحبون النبي ما قابلتموه بمثل هذه المقابلة ..).

تلاحظ في هذا المجلس ارتفاع أصوات العوام بالصلاة علىٰ النبي ﷺ، وكيف أنهم تأثروا وجيشوا عواطفهم لحب النبي ﷺ، وأن التيار السلفي هنا أو الوهابي هو تيار ظلامي يكره النبي ﷺ.

هذا الاعتماد وإن لم يكن بهذا التصريح في كل النزاعات السلفية الصوفية إلا أن تأسيس قواعده واضح جدًا، لينتهي الصوفية إلىٰ: نحن أحباب النبي، وأنتم حساده!

مسألة الاستغاثة

سبق معنا أن السلفية تعتبر التوسل بوابة الاستغاثة بالأموات، لذلك كانت عندها من المسائل التي لها وجه ارتباط بالاعتقاد، ويختلف الطرح السلفي والصوفي في مسألة مهمة وهي هل التوسل والاستغاثة شيء واحد؟

في الطرح الصوفي يمكن ملاحظة عدم التفريق بين التوسل والاسغاثة بالأموات وأنهما من باب التوسل والتقرب إلىٰ الله بالذوات، فلا فرق بين أن تقول: اللهم إني أسألك بجاه محمد ﷺ، وبين أن تقول مدد يا فلان أو يا فلان أغثني، وهذا يرجع إلىٰ مسألة من أصول اعتقاد الأشاعرة -وصوفية هذا الزمان هم أشاعرة بطبيعة الحال- وهي مسألة نفي السببية .

بينما ترىٰ السلفية أن الاستغاثة هي من باب الشرك الأكبر، لأنه طلب الغوث من دون الله.

تعتمد الصوفية ابتداء علىٰ فكرة أن النفع والضر من عند الله سواء من الحي كان أو الميت، فلا فرق بين هذا وذاك.

لن نتطرق إلىٰ الاستدلال كما نبهنا ابتداء، وإن ما يهمنا هو الطريقة الترويجية للحجاج بين الطرفين، من المعلوم أن السلفية

تعتمد في هذا الباب علىٰ الأدلة من الكتاب والسنة ، وهذه الأدلة في حقيقتها إنما نزلت في كفار قريش ومشركي العرب، وهنا استغل الصوفية هذا الاستدلال، نجد أن الشيخ عبد الله بن بيه في تغريدة له علىٰ تويتر يقول ما مفادها أن الذين حرموا التوسل والاستغاثة استدلوا بآيات نزلت في المشركين وأنزلوها في المؤمنين.

أنت ترىٰ أن هذا المنطق هو الذي كان يتعامل به أهل السنة والجماعة مع الخوارج، ولا عجب إذ إن الشيخ علي جمعة دائمًا ما كان يردد أن السلفية هم خوارج العصر.

علىٰ كل حال فإن الصوفية في زماننا اليوم تتجنب الاستغاثة الصريحة في دوائرها العامة مع أنها لا ترىٰ فرقًا بين التوسل والاستغاثة، وإنما تفعل هذا لأن طلب المدد من الأموات هو محل نكير عند العوام بشكل عام، وهو أصرح في القباحة عندهم من التوسل إلىٰ الله بالذوات، فتتجنب هذا لكي لا تفتح مجالًا للتيار السلفي ليصطاد في الماء العكر.

ويمكننا الملاحظة بكل وضوح أن السلفية هي التي تعتمد التشهير في مسألة الاستغاثة وتبادر في طرق باب هذه المسألة قبل الصوفية، فالسلفية تعتمد هذه المسألة لإظهار ما تروج به دائمًا بأن التيار الصوفي تيار يشجع الشرك والخرافات، ويعتمدون في ذلك علىٰ ترويج مقاطع في الإعلام تغذي هذه المسألة بشكل واضح وتحتوي علىٰ مشاهد للصوفية وهم يستغيثون ويدعون الأموات من أهل القبور، بينما تكتفي الصوفية في أحسن أحوالها بالتنديد بهذه

الأفعال واعتبارها من الأمور المحرمة وتنفي أن تكون هذه الأمور من أمور الشرك، وتحاول الصوفية دائمًا أن تتجنب هذا النوع من أنواع التصادم في المسألة لأنها تشكل حرجًا كبيرًا أمام العوام والجمهور الإسلامي، ما يجعلها مسألة ذات أهمية عندما يعتمد عليها التيار السلفي بشكل أساسي.

تعتبر تريم من معاقل الصوفية المعاصرة، كالقصيم بالنسبة إلىٰ السلفيين، وفي إحدىٰ حلقات محمد العريفي في برنامج ضع بصمتك، يسافر إلىٰ معقل الصوفية في تريم لتوثيق هذا، ففي حلقته تحت عنوان «ضع بصمتك في التوحيد» قام بتوثيق القبور وما يحصل فيها من مخالفات شرعية ومنها الاستغاثة ودعاء الأموات.

شكلت هذه الحلقة وهي قد عرضت علىٰ قناة «اقرأ»[1]، ضربة للتيار الصوفي كونها صورت في المعقل الصوفي الأول في تريم.

لم يصدر تصريح واضح من الصوفية حيال ما تم رصده في تريم من تجاوزات، وظلت الآلة الإعلامية الصوفية تبث الأناشيد والموالد والأشعار التي تحتوي علىٰ ثقافة دعاء الأموات والاستغاثة بغير الله ﷻ، وفي وقت قريب ظهر مقطع فيديو يظهر الحبيب الجفري والمنشد مصطفىٰ عاطف في جلسة وهم يرددون أنشودة

---

(١) وعرض هذه الحلقة علىٰ قناة إقرأ يبين لنا أن هذه القناة ليس لها توجه واضح، سوىٰ المال.

تحمل ألفاظ الاستغاثة كقولهم: مدد يا مولانا يا حسين، وهنا اشتعلت مواقع التواصل بين مؤيد ومعارض، قدم السلفية هذا المقطع كدليل إدانة يؤكد صحة ما أسسوا له من أن العقائد الصوفية تحمل الحس الشركي، ودافع الصوفية بأن هذا المدد هو من الله، والحسين رضي الله عنه لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله، وبين هذا وذاك والاستخدام الإعلامي للتهويل، غابت الساحة العلمية عن أي نقاش جدي لحقيقة الاستغاثة كما هو الحال مع كثير من المسائل الشائكة.

المولد النبوي

مسألة المولد النبوي من المسائل التي أخذت مساحة كبيرة من النقاش والجدال بين السلفية والصوفية، لأنها علىٰ كل حال ترتبط بالجناب النبوي الشريف، ويمكن استغلال هذا المسألة للدعاية والترويج.

يعتمد الصوفية علىٰ المولد لإظهار المحبة وإثبات ظلمة التيار السلفي وقساوة قلبه وابتعاده عن أي معان للجمال الديني، وتتكرر هذه المعاني دائما في كل حفل يقام للمولد النبوي، يمكننا ملاحظة هذا في أي حفل يحضره الدكتور علي جمعة لنسمع كمية من العبارات اللاذعة التي تطلق علىٰ الخصوم السلفيين من قبله ليصفهم بأوصاف شديدة، كالخارجية مثلًا، وهذه الطريقة مرت مع الجفري قديما باتهامه للسلفية بأن بينهم وبين النبي ﷺ وآله عداوة شخصية، لذلك يكثر الصوفية من إظهار معاني الحب والغلو في جناب النبي ﷺ، بينما تركز السلفية علىٰ أن الاتباع هو دليل المحبة.

لا يظهر أي من الطرفين تساهلًا في مسألة المولد النبوي الشريف، فمع كل شهر ربيع الأنور تطفو إلىٰ السطح النزاعات بين التيارين ويبدأ الاستغلال الإعلامي لتقوية الخطاب، نجد أن

الصوفية تعتمد علىٰ المونتاج والإخراج التقني في تصوير الحضرات الصوفية والموالد لتظهر في أبهىٰ صورها وجمالها، كما أن عامل المسجد ذا الطراز العثماني المبهر يكون حاضرًا لتعزيز قيمة الجمال في الطرح الصوفي، وأيضًا؛ فإن الصوفية تعتمد في أثناء طرحها للمسألة إعلاميًا علىٰ حضور معاني تزكية النفس وتخليصها من دنس الكبر ومحاولات التأسي بسيرة رسول الله ﷺ.

علىٰ النقيض تقوم السلفية المعاصرة باستخدام موسم المولد للتأكيد علىٰ عدة قضايا ترىٰ أنها مهمة في كشف الغطاء عن الصوفية المعاصرة وانحرافاتها، فتقوم بالترويج إلىٰ أن الصوفية تقوم باتباع التقاليد الفاطمية في إحياء الموالد، وهذا الترويج مضر بصحة الصوفية نظرًا إلىٰ النفرة العامة من الشيعة وما يتصل بهم من معتقدات من قريب أو بعيد، وتذهب السلفية أيضًا إلىٰ الترويج للمخالفات الشرعية التي تحصل في الموالد الصوفية من غناء ورقص وذبح لغير الله وغير ذلك من المخالفات المتعارضة مع ما ابتدأت به السلفية من أن علامة المحبة الاتباع، هذا القدر من الترويج يبقي الساحة متوازنة بعض الشيء بين الطرفين ولكنك كما ترىٰ، فهو لا يحل عقدة ولا يفك إشكالًا، وإنما يزيد من النفرة العامة بين التيارين ويرسخ من الصورة النمطية لكل تيار.

صورة السلوك والأخلاق

شكلت مسألة السلوك والأخلاق تحديًا كبيرًا بين التيارات الإسلامية والفكرية، وفي أي تقديم فكري لا بد أن يتحلىٰ بنمطية أخلاقية عالية ليلقىٰ قبولًا عند المستمعين، لذلك كان من أساليب الحرب الفكرية التقليدية بين التيار السلفي والصوفي، الاتهام الأخلاقي، وطفحت هذه الاتهامات علىٰ السطح بشكل واضح في الآونة الأخيرة لتؤكد عمق هذا النزاع والاستماتة في محاولات تشويه كل من الطرفين.

تترابط فكرة الأخلاق والصوفية -ظاهريًا- ترابطًا وثيقًا، ولا تكاد تنفك الأطروحات الصوفية عن مثل هذه المضامين الأخلاقية منذ نشأة الصوفية علىٰ الإعلام وحتىٰ يومنا هذا، وقد حافظ الصوفية بجدارة علىٰ هذه الصورة البراقة بلا شك، وبغض النظر هل كانت هذه الصورة مصطنعة أم لا ، فإن الجانب السلوكي عند الصوفية شكل عامل تأثير قوي علىٰ الحركة السلفية ودفعها خطوة إلىٰ الوراء وهذا يعود إلىٰ خلو الساحة الصوفية من إشكالات داخلية (صوفية - صوفية)، بل صور الوئام والمحبة والترابط الصوفي، هو اليوم في أبهىٰ صوره وأنصعها، فالحركة الصوفية

اليوم هي متماسكة أكثر من أي يوم مضىٰ، أما التيارات السلفية اليوم فهي مليئة بالتشققات والتصدعات التي تأكلها من كل جانب.

تظهر الصورة الأخلاقية والسلوكية بشكل واضح في فضاء تويتر وفيس بوك لوجود الكثير من الاحتكاك الفكري بين أنصار ورموز هذه التيارات، وأيضًا لخلو هذه الفضاءات من أي رسميات علىٰ العكس من القنوات الفضائية والبرامج التلفزيونية علىٰ سبيل المثال، ومع هذا فإن الصورة الأخلاقية الصوفية تتسم بالمثالية والسمو والرفعة المتصنعة في كثير من الأحايين، أما التيار السلفي فصورته الأخلاقية في أحسن صورها مشوهة إما لعوامل ناتجة منه: كمفهوم الإنكار علىٰ المخالف والتغليظ علىٰ صاحب البدعة أو من غيره كالهجوم الذي يتعرض له من مخالفيه ومحاولات التشهير، ولا تخلو هذه العوامل من سطوة علىٰ التيار السلفي أو سطوة منه علىٰ مخالفيه، فهي سطوة متبادلة إن صح التعبير.

من خلال متابعة هذا الظهور علىٰ الإعلام يمكننا أن نجد تلك العناصر التي أشرنا إليه سابقًا بادية في جميع الأحوال، سواء الظهور الفردي أو الظهور الذي فيه نوع مواجهة، وإن كان في الظهور علىٰ النمط الثاني قد تختفي بعض المعالم الرئيسة كالسطوة والشدة عند السلفيين، والاكتفاء بالتبطين عند الصوفية؛ بمعنىٰ آخر إرسال رسائل غير مباشرة مع الحفاظ علىٰ الهدوء والمثالية.

برزت أسماء كثيرة من التيار السلفي علىٰ الإعلام ووجهت النقد المباشر للتيار الصوفي منذ التسعينيات من القرن الماضي

وحتىٰ اليوم، وقد تطور هذا الخطاب تدريجيًا كما بينا آنفًا، ولكن الذي يهمنا هنا هو تتبع التطور الأخلاقي في التعامل مع المخالف وخصوصًا المخالف الصوفي، سنجد أن الصورة الأخلاقية عند السلفيين ستختلف باختلاف الجغرافيا؛ فالسلفية الشامية ستتسم بنوع من الهدوء العلمي مع رصانة في التحقيق والتودد، أما السلفية الحجازية فستتسم إضافة إلىٰ النقاش العلمي بنوع من الحدة والشدة والمبالغة في الرد في كثير من الأحايين؛ ومن هنا ستصدر كثير من الألقاب والأنماط حول الصوفية: كالقبورية مثلًا، بينما ستركز السلفية المصرية والسودانية علىٰ تبسيط مفاهيم التوحيد وإظهارها بمظهر فكاهي تماشيًا مع الجو العام الذي يسود تلك المناطق، وسنجد أن السلفية بشكل عام لن تتحامل علىٰ الصوفية في مجمل ما تنسبه إليه مع خلل في التعميم.

من أوائل الذين تصدروا مشهد الرد علىٰ الصوفية هو الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله، وكعادة الشيخ فإنه يفضل الجلوس علىٰ طاولة النقاش وجهًا لوجه مع تساوي الرتب بينه وبين المناقش -علىٰ سبيل المجاز-، يسجل الشيخ الألباني موقفه من الصوفية وتعريف الصوفية فيقول: (لما تجادل صوفية آخر الزمان بيقولوا -بس هم غير صادقين-: شو بتنكروا علينا؟ الصوفية هو الأخلاق التي جاء بها الإسلام والسلوك الذي جاء به الإسلام، نحن بنقول: إذا فسرتم الصوفية بهذا المعنىٰ فهذا يعني أنكم علىٰ الكتاب والسنة، ولكنكم لا تقفون عند الكتاب والسنة ولكنكم تزيدون أشياء

سواء كالمبالغة في الزهد أو الإعراض عن نعم الدنيا والتمتع بها.

مداخلة: يعني هم يا شيخ يهتمون بالباطن ...

الشيخ: معليش، إذا كان في حدود الشرع فنحن نرحب بهذه الصوفية، وعلىٰ العكس فنحن نقول أن كلمة الصوفية دخيلة في الإسلام من حيث اللفظ علىٰ الأقل، أما المعنىٰ فكلّ يعطي هذا اللفظ معنىٰ ولا تجدهم يتفقون علىٰ معنىٰ واحد، حتىٰ نقول أن هذا المعنىٰ يطابق الكتاب والسنة، فإذن إن كان هذا المعنىٰ هو المقصود بالصوفية فأهلًا وسهلًا، ولكن لا يوجد هذا المعنىٰ بين أيدي القوم إطلاقًا ...).

نجد هنا أن الشيخ يركز علىٰ معاني الصوفية وإن كان قد أبدىٰ اعتراضًا علىٰ اللفظ لأنه لا يدل علىٰ معنىٰ واحد صحيح بل قد تختلط فيه المعاني بين الفاسدة والصحيحة، وهذا التعامل متسق مع المنهج السلفي في التعامل مع المصطلحات إذ إنهم دوما ما ينظرون إلىٰ محاولة تنقية المفاهيم والمصطلحات، بل إن وجهتهم في اختيار مصطلح السلفية هي أن باقي المصطلحات أصبحت تدل علىٰ مدلولات فاسدة من الفرق المبتدعة.

نلاحظ أيضًا أن الشيخ لم يرفض الصوفية مطلقًا بكل معانيها، وإنما إنكاره كان علىٰ الصوفية المعاصرة لأنها لا تحمل المعاني الشرعية المقيدة بالكتاب والسنة، واتجهاها الذي لا يمت إلىٰ السلوك والأخلاق بصلة، ومع هذا فهو يجعل الباب مفتوحًا أمام الترحيب بهذا النوع من الصوفية إن وجد بضابط الكتاب والسنة،

وهذا الإنصاف سينتقل مع الشيخ إلىٰ جميع مجالسه مع المخالفين وتحديدًا في جلسة له مع أحد الإخوة المتصوفة الذين يعتقدون بأن النبي ﷺ يعلم الغيب مطلقًا، فيظهر الشيخ من الإنصاف ما سيغيب عن غيره من أصحاب المنهج، يقول الشيخ رحمه الله: (الحقيقة أنا في الواقع -وأنا -رجل صريح كما يعلم إخواننا- سمعت من سمي أبو عبد الرحمن -المناقش له- ما كنت لا أراه في المنام مسموعًا، وأقول ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولكن إلىٰ جانب هذا أقول أن الجلسة كانت ممتازة من حيث الأخذ والرد، لأن مجتمعنا مع كثير من أمثالي -ولمؤاخذة- ممن يغالون في الأنبياء وغير الأنبياء لكن مع الأسف الشديد كان لا يمكن أن نمشي دقائق معدودات، فأنا أشكره من هذه الحيثية حيث مكننا من أن نفهم منه، وأن يفهم منا ونخرج من المجلس كل علىٰ بصيرة فيما قال فلان وقال فلان، هذه ميزة يجب أن لا تهدر ويجب أن تحفظ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ﴾ .. وأرجو أن لا يأخذ -أبو عبد الرحمن المناقش- من الآية الشطر الأول، لأن قصدي هو الشطر الثاني ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾ ...، حتىٰ ما يقول أنت عم بطبق علي الشطر الأول، يعني أنت بغضتني، لا ؛ إنما أنا قصدي من الآية ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾ ...

أبو عبد الرحمن: عالم زي فضيلتك عالم دائما متزن بالحلم، فلا يمكن نحن أبدًا أن يتطرق إلينا هذا الظن ...)[1].

---

(١) من د ٢٩ : ٥٠ وما بعدها.

هذا هو الذي قصدته بالنبرة العلمية عند السلفية الشامية في التعامل مع الصوفية، فهذا الإنصاف والتودد النادر مع المخالف في مسألة عقائدية أصلية سيغيب عن كثير من أطياف السلفية في مناطق جغرافية أخرىٰ، وهذا المنهج في التعامل مع الصوفية نابع من نظرة رصينة إلىٰ التصوف، فالشيخ هنا ﷺ -لا يرىٰ أن الرد علىٰ الصوفية سيكون في نقض أصولهم -من تزكية وتربية وأخلاق- بل في تبيين أنهم مباينون لها وبعيدون عن تحقيقها.

سنبقىٰ في الشام، وإلىٰ تسجيلات الشيخ عبد الرحمن دمشقية البيروتي، ستكون تلك التسجيلات الفريدة في طرحها العلمي[1]، وهذه التسجيلات ستتميز بالهدوء التام والتوثيق والاستدلال علىٰ المخالف بما يعتقده هو في كثير من المسائل كالتوسل والاستغاثة، وإن كان الشيخ سيهتم بالرد علىٰ الأحباش كثيرًا إلا أنه لا يوجد فرق جوهري بين الأحباش والصوفية سوىٰ جرأة الأحباش بتكفير السلفية والوهابية.

سنجد أيضا أن الجو العلمي -وأعني بالعلمي هنا محاولات الاستدلال بغض النظر عن تقييمها- هو السائد حتىٰ علىٰ الحركات الصوفية في الشام، كأطروحات الملا سعيد رمضان البوطي، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة والشيخ محمد راتب النابلسي وغيرهم من مشايخ الحركة الصوفية في الشام، ولا يعني هذا وجود شريحة

---

(١) ومن الجدير بالذكر أن الشيخ الدمشقية سيمر بتغيرات فيما يتعلق بأخلاقيات الطرح فسينتقل من العلمية البحتة والهدوء، إلىٰ الشدة والحدة في كثير من الأحيان.

كبيرة من صوفية الشام تنتهج المنهج المنحرف، ولكننا نتحدث هنا عن رؤوس الصوفية فجلهم أصحاب مناهج علمية فقهية رصينة.

هذا الجو العلمي الهادئ السائد كان إيجابيًا جدًا، وحرك العجلة العلمية بالاتجاه الصحيح، وهو العامل الأساسي في دفع كثير من أعلام الشام بعد أن نشأوا في بيئة التصوف أن يتجهوا إلىٰ السلفية علمًا واعتقادًا ومنهجًا، ومن الجدير بالملاحظة أن السلفية الشامية لها اشتغال عميق بتهذيب النفس والأخلاق إلىٰ جانب العقيدة والتحقيقات العلمية، ومن أبرز هذه الأسماء: الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ ابن بدران، والشيخ بهجة البيطار، والشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ علي الطنطاوي، والشيخ عبد القادر الأرناؤوط وغيرهم، وكل واحد من هؤلاء كان له أثر في من بعده، كل هذه التنقلات والتغيرات هي نتيجة الأثر العلمي الذي خلقته الحركة السلفية الشامية هناك.

يوضح لنا الشيخ علي الطنطاوي صورة من هذا الانشغال العلمي السلفي وكيف أثر فيه، فيقول: (لقد وجدت أن الذي أسمعه منه يصدم كل ما نشأت عليه، فقد كنت في العقائد علىٰ ما قرره الأشاعرة والماتريدية، وهو شيء يعتمد في تثبيت التوحيد من قريب أو بعيد علىٰ الفلسفة اليونانية، وكنت موقنًا بما ألقوه علينا، وهو أن طريقة السلف في توحيد الصفات أسلم، وطريقة الخلف أحكم، فجاء الشيخ بهجة يقول: (بأن ما عليه السلف هو الأسلم، وهو الأحكم) . . . وكنت نشأت علىٰ النفرة من ابن تيمية والهرب منه؛

بل وبغضه، فجاء يعظمه لي، ويحببه إليّ، وكنت حنفيًا متعصبًا للمذهب الحنفي، وهو يريد أن أجاوز حدود التعصب المذهبي، وأن اعتمد على الدليل، لا على ما قيل ... وتأثرت به، وذهبت مع الأيام مذهبه مقتنعًا به، بعد عشرات من الجلسات والسهرات في المجادلات والمناظرات ...»[1].

نتقل إلى السلفية الحجازية[2] لتظهر معنا بعض المكونات الأخلاقية في الخطاب السلفي يحمل طابع كثرة الإطلاقات والشدة والحدة في كثير من المسائل، والاستهتار في الطرح واللامبالاة وعدم الاكتراث بالرأي العام في مناح أخرى، مثلًا نجد أن التيار المدخلي الذي لا يتورع عن إطلاق التهم بالتبديع والتفسيق والتجريح هنا وهناك، ولن نتطرق هنا إلى الكتابات الداخلية ولكننا سنلقي الضوء على الأطروحات العامة الموجهة إلى غير الداخل السلفي أو التي يمكن أن يستفيد منها أعداء السلفية.

في فتوى للشيخ صالح الفوزان يسأل فيها عن الصوفية فيقول: (الصوفية في الأصل هي الاجتهاد في العبادة، هذا أصلها، ولكنها زادت بعد ذلك ووصلت إلى الإلحاد ووصلت إلى الشرك، لأن أصل البدعة ما فيه خير، فلما كان أصل التصوف مبتدعًا أنتج هذه الأشياء، نحن لم نقل أن كل المتصوفة كفار، لأ، لكنا نقول أن

---

(١) رجال من التاريخ لعلي الطنطاوي (ص٤١٤).

(٢) لست أعني بالسلفية الحجازية، السلفية السعودية وإن كانت هي الشريحة الأكبر هنا؛ ولكن هذا يضم كل من تأثر بالأسلوب أيضًا.

التصوف أصله مبتدع، والابتداع يتطور، فالابتداع من الشيطان، هذا الذي حصل للصوفية، متقدموهم عباد، مثل بشر الحافي والفضيل بن عياض، هؤلاء عباد، وإن كان اجتهادهم في العبادة والتقشف لا يوافقون عليه، الأصل أن الإنسان يكون علىٰ السنة، فهؤلاء علىٰ خوفهم ومع عبادتهم سلموا من هذه الأشياء، ولكن الذين جاءوا بعدهم . .)[1].

هذا الإطلاق بتبديع جميع الصوفية هو محل إشكال في معارضته لما قرره شيخ الإسلام في معرض حديثه عن الصوفية وتقريره لعلم التصوف من حيث هو علم يختص بالسلوك، ونجد أن هذه الإطلاقات هي سمة بارزة في خطاب الشيخ الفوزان في الأسئلة التي توجه إليه بل وحتىٰ في بعض المسائل الفقهية.

وعند متابعة التيار المدخلي نجد هذه الحدة والشدة بادية في الخطاب، خصوصًا أن شغلهم الشاغل متابعة الأشخاص والدعاة والحكم عليهم بالتبديع والتفسيق وتتبع الزلات، يمكننا استقراء هذا المنهج من إحدىٰ المكالمات مع الشيخ ربيع المدخلي عندما سئل عن الشيخ محمد مختار الشنقيطي فيقول: (السائل: أحد الإخوة سلسلة شرح عمدة الأحكام لمحمد الشنقيطي فهل نضعها وقف في المسجد أم لا؟

الشيخ: أنا ما قرأت هذا الشرح، ويقال لي أن هذا الرجل

---

(١) الإجابة علىٰ السؤال كانت من درس فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد.

لا يميز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة، وأنه يمشي مع الحزبيين ويمشي مع الصوفية ولا علاقة له بأهل السنة، فلا أستطيع أن أزكي إنتاجه ولا أزكيه، لأني ما قرأت إنتاجه، لأن من يروج لهذه الأشرطة وهذا الرجل؟ أهل السنة لا يروجون له! إنما يروج له الحزبيون، وهو ما يتظاهر بالتحزب، ولكن لما ترىٰ هؤلاء يلتفون عليه ويحتفون بأشرطته ويعتبرونه إمامًا من أئمة المسلمين، يدلك أن هذا الرجل منهم، فهو جسر خطير لجر الشباب إلىٰ التحزب وإلىٰ الارتماء في أحضان الحزبية . .)[1].

من خلال هذا التسجيل القصير، يبين لنا منهج التساهل في التبديع والحدة في إطلاق هذه الأحكام، ومن المثير أن في أحد التسجيلات في سلسلة الهدىٰ والنور[2] يقوم الشيخ الألباني بمحاورة أحد طلاب الشيخ ربيع، وفي التسجيل يبدي هذا الطالب اعتراضه علىٰ الشيخ سفر الحوالي يبين له فيه أن الشيخ سفر يطعن في هيئة كبار العلماء، وأن هذه الهيئة هي خط أحمر لا ينبغي أن يطعن فيها!

وللعلم فالشيخ محمد الشنقيطي عضو في هذه الهيئة، فكيف تسوهل في الطعن فيه ورميه بالحزبية؟

هذه الشدة التي أنكرها الشيخ الألباني علىٰ الشيخ ربيع

---

(١) التسجيل منتشر علىٰ اليوتيوب بعنوان: الشيخ ربيع المدخلي يرد علىٰ محمد مختار الشنقيطي.

(٢) الشريط بعنوان: الإنصاف عند الإمام الألباني.

المدخلي في أكثر من موضع من سلسلة الهدىٰ والنور، في معرض حديثه عن كتاب الشيخ ربيع الذي ألفه في الرد علىٰ السيد قطب، ستمتد إلىٰ طائفة كبيرة من دعاة السلفية الحجازية وستكون بارزة في خطابهم حتىٰ علىٰ مواقع التواصل الاجتماعي كما هو ملاحظ، وسيستخدمها التيار الصوفي للتأكيد مرة أخرىٰ علىٰ خلو الجانب السلوكي والأخلاقي في أدبيات الدعوة السلفية، وستصدر عدة مقاطع مرئية ومسموعة ومكتوبة تنشر هذا الاعتقاد حول السلفية، وسيكون العنوان كما جاء في مونتاج أصدرته شبكة سند بعنوان: «شرعنة الفحش» .

تويتر، هو من أبرز الشبكات التي تحتوي علىٰ مناكفات إما بالرسائل المباشرة أو المبطنة، وجل هذه الرسائل بين الطرفين - السلفية والصوفية أعني- ستكون منصبة علىٰ أمرين مهمين: العقيدة والأخلاق، وحديثنا هنا سيكون عن الأخلاق بشكل خاص، في حوادث التحرش المتكررة في الوطن العربي ينقسم الشارع إلىٰ قسمين الأول: يحمّل المتحرش به مسئولية التحرش، لأنه يلبس لباسًا غير محتشم، والثاني: يرىٰ أن اللباس لا يؤثر في وجود حالات التحرش أولًا، يمكنك أن تتصور بأن السلفية والصوفية استخدموا هذه الحوادث لتعزيز الفكرة الأخلاقية عند كل منهما، السلفية تظن أنها تدعو إلىٰ الاحتشام وعدم الاختلاط وتطالب بتشديد إجراءات الاحتشام، وأما الصوفية فترىٰ أن الخواء

الأخلاقي -والسلفية سبب فيه علىٰ كل حال- سبب هذه الحالات وغيرها.

يغرد الحبيب الجفري قائلا: (يبررون التحرش.. يحرضون علىٰ القتل.. يشرعون البذاءة.. ينشرون الكراهية.. ثم يتحدثون عن عظمة الإسلام! شيوخًا_ولا علماء) وفي تغريدة أخرىٰ يقول: (لو بذل أعداء الإسلام كل إمكانياتهم للإساءة إليه ما استطاعوا أن يفعلوا به ما فعله البعض من نسبة انحطاط أخلاقهم إلىٰ الكتاب والسنة).

هذه الكلمات هي المنهج التي يسير عليه الحبيب الجفري وأتباعه في نظرتهم إلىٰ السلفية، لذلك تتوالىٰ المتابعات لمستجدات الانحرافات الأخلاقية عند دعاة السلفية في كل قضية تثار علىٰ الساحة الإسلامية، وقد تقدم معنا أن الصوفية تهتم اهتمامًا بالغًا بالمرأة وقضاياها، وكذلك تهتم بالرد علىٰ الليبرالية والعلمانية وتحاول قدر المستطاع أن تنصفهم وتظهر روح السماحة، وعلىٰ هذا الضوء سينشغل الصوفية بإبداء وإبراز معالم اللاأخلاقية «السلفية» والعمل أيضًا علىٰ إبراز المثالية الأخلاقية الصوفية من خلال الشتائم التي يواجهها رموز الصوفية وردة الفعل عليها.

يكثر السباب والشتام بين الطرفين ويتم استهداف أعلام الصوفية والسلفية هنا وهناك، والملاحظ أن الصوفية تقوم باستغلال هذه الحوادث بطرق أرقىٰ من استخدام رموز السلفية لها، مثلًا يوجه أحد المتابعين علىٰ تويتر اتهامًا بالنفاق للحبيب الجفري فيرد

الجفري: (إذًا، فادع لأخيك بأن يهديه الله ويتوب عليه، بارك الله فيك وفي سائر قبيلة آل كثير المحترمين).

في المقابل نجد أن الأسلوب الهجومي الذي فيه اعتداء وتجاوز يكثر في أوساط الدعاة السلفيين علىٰ من يتعرضون لهم بالسب أو الشتم.

يكتب عادل الكلباني -وهو محسوب علىٰ التيار السلفي بطبيعة الحال بغض النظر عن التصنيفات المدخلية له-: (إذا لم يكن الواقع مجيدًا فما ينفع الماضي المجيد؟) يرد عليه أحد المغردين واسمه ميغل الخرباوي: (لك من اسمك الثاني نصيب وليس لك من الأول شيء) فيجيبه عادل الكلباني قائلًا: (وما أنت من اسمك الثاني ببعيد، بحذف الباء)، وفي تغريدة أخرىٰ يقول (هنا المشايخ محرضون، هناك مرجعية! التزييف طبع في الإعلام الأجير) فيداخل أحد المغردين فيقول: (سلام يا شيخ ما حكم الرقص) فيرد الشيخ (ما نبي نقطع رزقك).

هذا الأسلوب السوقي سيمتد إلىٰ تعاطي الدعاة مع بعض المسائل العلمية، مثلًا نجد أن الشيخ عبد الرحمن دمشقية -في مرحلته الدعوية الثانية وهي الحالية- سيستخدم الأسلوب السوقي في الرد علىٰ بعض المسائل العلمية التي يتبناها الشيعة، ففي معرض رده علىٰ إجازة بعض المعممين للإتيانِ من الدبر، يغرد قائلًا: (إذا كان مذهبكم يجيز اللواط فيلزمكم أن عليًا كان يأتي فاطمة من دبرها. قبحكم الله علىٰ هذا الاستهزاء بأهل البيت)!

أيضًا يثير الدمشقية مسألة منطقية وهي حد الإنسان بقولهم: حيوان ناطق، فيبدأ بالتغريد حول هذا الموضوع ويريد أن يلزم المعمم كمال الحيدري بهذا فيقول: (قال الحيدري إن الانسان حيوان ناطق. ويلزم من هذا أن تصف عليًا بأنه حيوان ناطق وأن فاطمة حيوان ناطق. تفضل أجب بنعم أو لا. وأي جواب سيكون لصالحي) وبعد مداخلات من المتابعين بدأ بالاستطالة وضرب المثال حتىٰ وصل إلىٰ الجناب النبوي الشريف فقال: (يعني سيدنا محمد حيوان عندك: نعم أم لا؟) وفي تغريدة أخرىٰ: (سوف أجيبك ولكن بعد أن تجيبني: هل أمك حيوانة أم لا؟ بناء علىٰ قولك الانسان حيوان ناطق. قل أمام الناس أمي حيوانة)!

بغض النظر عن أن هذا إلزام ما لا يلزم، ولكن تخيل كم أعطىٰ لشانئي الدعوة السلفية من رصيد للطعن فيها وفي أخلاقياتها بهذه الكلمات وهذا التعجرف! مع الأسف هذه الطريقة هي الطريقة السائدة في جل محاوراته وردوده اليوم، في تغريدة أخرىٰ يرد فيها علىٰ من اتهم السلفية بالحشوية: (الحشوي الحقيقي من حشا الخالق في المخلوق وصرح بوحدة الوجود كالغزالي الحشوي المصرح بوحدة الوجود والذي جعلها أول مقامات التوحيد . . هذا هو الحشوي) لم يقف الأمر إلىٰ هذا الحد، بل ذهب إلىٰ ما هو أبعد من ذلك فيقول: (أتحداك يا مهنا المهنا أن ترد علىٰ اتهامي لك بأن معتقدك الذي هو تبع للأشاعرة أن الله كناس مزابل، تدعي التنزيه وتعتقد أنه كناس مزابل؟)! وفي موضع آخر يقول: (الغزالي

كان يطعن في النبوة. ويقول الله والكلب شيء واحد وينسب العجز إلىٰ الله قائلًا: ليس في الامكان أفضل مما كان. أي الله لا يستطيع).

هذه الشدة وعدم المبالاة عند الحديث العام لن تبقىٰ حبيسة مواقع التواصل الاجتماعي، بل ستنتقل إلىٰ فضاء التلفاز، وستتنوع الإشكالات الأخلاقية بين ألفاظ سوقية وبين استخفاف بالمشاهد ووثوقية في الطرح سيستغلها الإعلام لإنتاج فقاعة أكبر حول التيار السلفي ولن يكون الاستغلال هو من طرف التيار الصوفي فقط، بل سيتسع ليشمل باقي التيارات الفكرية والحركية علىٰ الساحة.

مثلًا نجد أنه وفي القرن الحادي والعشرين، يخرج أحد الدعاة السلفيين ليبين لنا قول أهل السنة والجماعة في دوران الكرة الأرضية، ويخرج علىٰ الملأ ويحاول الاستدلال علىٰ صحة منطقه باستدلالات تفتقر إلىٰ ألف باء المكونات العلمية التجريبية بل والمنطقية، يقول الشيخ بندر الخيبري: (يقول السائل هل الأرض ثابتة أم تتحرك؟ في الحقيقة الذي عليه علماؤنا كالشيخ العلامة صالح الفوزان والإمام عبد العزيز بن باز أن الأرض ثابتة لا تتحرك، وهذا هو مقتضىٰ النصوص ومقتضىٰ العقل أصلًا، ولكن بعض .. مثل المسعري يسخر من فتوىٰ الشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالىٰ، وهو -أي المسعري- رجل عقلاني لا يلتفت إليه أصلًا، ولكن الأرض كما أخبر الله جل وعلا أنها ثابتة ....) ويبدأ يأتي بالأدلة علىٰ هذه المسألة.

لن نتعرض للمسألة من حيث الأدلة ولكن يهمنا جدًا بعض المكونات في هذا الخطاب، مثلًا نجد هذه الوثوقية في حصر ما عليه أهل السنة بكل من الشيخ الفوزان والشيخ ابن باز! وكأن المشايخ أقوالهم معتمدة في أمور الفلك!

أيضًا يصور لنا الخيبري أن التيار السلفي لا يلتفت إلىٰ العقل، فهو هنا يلمز المسعري بأنه عقلاني ولا يلتفت إليه، وأيضًا استخدامه لألفاظ تدل علىٰ القطع في دلالات هذه الأدلة التي استدل بها، وهو خلاف الواقع حتىٰ علىٰ الصعيد السلفي، هذه المكونات كلها أنتجت لنا ما وصفه د. محمد المسعري في رده علىٰ هذا المقطع بـ (الفضيحة الدولية) يقول المسعري: (أول البارحة واحد اسمه الخيبري راح دولة الإمارات من مشيخة الجاميين، يبرهن لنا أن الأرض لا تدور والشمس تدور حولها، استخدم كأس وسوا لنا تجارب فيها -يقصد استخدام الخيبري لكأس الماء في تمثيله علىٰ أدلته العقلانية!-، سوالنا فضيحة دولية قدام كل إذاعات العالم، إذاعة الصين وإذاعة روسيا .. سود وجهنا قدام خلق الله ..).

وإضافة إلىٰ هذه الإذاعات: قناة المنار وقناة عالم وقناة الجديد، وكلها ذات توجهات شيعية أو تسعىٰ إلىٰ ضرب التيار السلفي.

إذا عدنا قليلًا إلىٰ تعامل السلفية الشامية مع هذه المسألة، نجد أن الأمر مختلف تمامًا، الشيخ الألباني وعند سؤاله عن هذه

المسألة أجاب: (نحن في الحقيقة لا نشك في أن قضية دوران الأرض حقيقة علمية لا تقبل جدلًا، في الوقت الذي نعتقد أنه ليس من وظيفة الشرع عمومًا والقرآن خصوصًا أن يتحدث عن علم الفلك وعن دقائق علم الفلك، وهذا يدخل في عموم قوله ﷺ: (فأنتم أعلم بأمور دنياكم) وإذا تحدث القرآن أو السنة عن مسألة علمية إنما هو لحكمة بالغة أو معجزة أو نحو ذلك ..) هذه المنهجية العلمية الواضحة كانت ستجنب السلفية الحجازية كثيرًا من الإحراج العالمي إذا التزمت بها.

كذلك الأمر مع الداعية العالمي محمد العريفي وفي مقطع له أراد أن يأتي بسبب علمي طبي لجعل شهادة الرجل بشهادة امرأتين فأخبر عن أن الرجل عنده غدة تمكنه من التذكر والتحدث في آن واحد، وهذه الغدة التي نسي اسمها الشيخ العريفي ستشتهر فيما بعد باسم #الغدة_العريفية.

هذه الأساليب الاستهتارية سنجدها متكررة دائمًا مع في محاولات علمنة الخطابات الشرعية في مواجهة الخطابات الليبرالية، كتلك «الدراسات العلمية» التي أثبتها الشيخ صالح اللحيدان أن قيادة المرأة للسيارة ستؤثر سلبًا على الحوض والمبايض، وأخرى يتحدث عنها الدكتور علي المالكي ومفادها أن اللحوم المستوردة من الغرب فيها مادة تقتل الجينات المنوية الذكورية لزيادة عدد الإناث.

لم يصل الأمر إلى هنا فحسب، بل تعدى إلى استخدام ألفاظ

مخلة بالآداب العامة والأخلاقية في كثير من المواضع لتثير ضجة عارمة بين عوام المسلمين، كتلك التي خرجت من فم الشيخ العريفي مرات ومرات متكررة، وأحدثها كانت علىٰ قناة بداية وكانت الألفاظ فيها من الإيحاءات الجنسية ما يندىٰ له الجبين ولا يبرر بكونه يجهل أنه علىٰ الهواء مباشرة.

هذه الإطلاقات والاستطالة والشدة والحدة والاستهتار والطريقة السوقية في الكلام، كلها تغذي النمطية المنتشرة حول التيار السلفي، وأخشىٰ أن تكون قد تحولت إلىٰ حقيقة، وسنجد أن التيار الصوفي سيستخدمها بلا شك، فإذا لاحظنا بعض خطابات الجفري في محاوراته مع بعض من يمثلون السلفية ستجد أنه كثيرًا ما يكرر ما معناه بأنه سعيد بأن الحوار راق وبعيد عن السباب والشتائم و.. و.. و..، هذه الكلمات التي ينطق بها ليست اعتباطية، ولكنها ذات مدلول أبعد، يريد بهذا أن يقول بأن السلفية ليسوا علىٰ شيء في الأخلاق، وأن هؤلاء الذين يحاورهم ويكون حواره معهم بهذا الرقي إنما هو خروج عن المألوف من التيار السلفي من سب وسطوة وحدة.

هذه الإشكالات الأخلاقية التي يعاني منها التيار السلفي يجب أن تكون محط نظر المجهر النقدي -إن وجد- داخل التيار السلفي، ولا ينبغي الاغترار بكثرة المتابعين والذابين عن المنهج من العوام، فالعوام هوام!

مع الأسف؛ لا يدرك التيار السلفي أنه يمثل الدين والإسلام

بغض النظر عن النقاش الفلسفي حول هذا، وهذه المسؤولية تحتم عليه أن يتغاضىٰ عن كثير من المباحات كجواز رد الإساءة مثلًا، وأن يكون أحرص من أن يقع في التجاوزات كتلك التي مرت معنا، وهذا الكلام ليس ببدع مني بل هو منهج رصين اتبعه السلف رضوان الله عليهم يسطرها لنا الإمام الأوزاعي في كلمات لا ينبغي أن يغفل عنها الداعية أبدًا: (كنا نضحك ونمزح فلما صرنا يقتدىٰ بنا خشينا أن لا يسعنا التبسم) هذه الهالة الجلالية التي ينبغي أن يتحلىٰ بها الداعية قد غابت عن أكثر دعاة التيار السلفي، لذلك تكثر عندهم الشطحات ويصبحون محط نظر المترصدين والمتفحصين.

هذه الكلمات الموجزة ما كتبتها إلا تنبيها لخطر فوضىٰ التصدر الإعلامي عند التيار السلفي، بيد أنه ينبغي عليه أن يكون أكثر تفطنًا لهذا من غيره، كيف لا وهو يرىٰ نفسه حكرًا أو قل أحق بتمثيل العقيدة الإسلامية والدين الحنيف من باقي التيارات؟.